أوربا في العصور الوسطى

س. وارن هولستر

ترجمة

دكتور محمد فتحي الشاعر

أوربا في العصور الوسطى

س. وُرِن هُلِستر

ترجمة

دكتور محمد فتحي الشاعر

كلية الآداب – جامعة المنوفية

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

مقدمة المترجم

بعون الله وتوفيقه أقدم للدارسين فى الجامعات والى المثقفين كتـــابا مترجما يتحدث عن تاريخ أوربا فى العصور الوسطى · والواقع أن هذا الكتاب يمثل اضافة جديدة ومهمة الى مكتبتنا العربية · اذ من النادر جدا أن يجد الباحث أو القارىء المثقف كتابا عربيا مؤلفا يتحدث عن تاريخ أوربا فى العصور الوسطى باستثناء كتـــاب أستاذى الأستاذ الدكتور ســـعيد عبد الفتاح عاشور ــ صاحب مدرسة العصور الوسطى ، فى العالم العربى ــ وكتاب سيادته يقع فى جزءين ، وهذا الكتاب الذى بين يدى القارىء الكريم من تأليف الأستاذ الأمريكى المعـــاصر س· ورن هولستر C. Warren Hollister وعنـــــوانه Medieval Europe .

والواقع ان الضرورة الملحة فرضت على القيام بنقل هذا الكتاب الى اللغة العربية لاهميته القصوى بالنسبة لتلاميذى الذين يدرسون تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ، الذين وجدوا صعوبة فى الالمام بنظرة عامة عن تاريخ أوربا فى تلك العصور لتعذر وجود كتاب جامعى موجز دون اخلال أو مطول فى غير اطناب ·

واترك للقـــارىء المثقف وللطالب الجامعى الفرصة فى التعرف على محتويات الكتاب · ولا يخفى على احد اهمية الجهد الذى بذل فى ترجمته ·

بورسعيد ٨ يوليو ١٩٨٨ م — دكتور محمد فتحى الشاعر

فاتحة الكتــاب

انّ الغرض من هذا البحث الموجز فى تاريخ غرب أوربا فى العصور الوسطى هو أن يلم به الطالب المبتدىء فى الكلية الجامعية ، أو القارىء العـــام الذى يرغب فى معـرفة مجمل واف عن تلك الفترة الزمنية ، وعند استخدام هذا الكتاب فى كلية ، أو فى الدراسات الجامعية المتعلقة بالحضارة الغربية أو التاريخ العام ، فان كونه كتابا موجزا يعطى فسحة من الوقت للقراءات الاضافية فى المصادر ، أو فى الأبحاث الأكثر تعمقا فى دراســـات تالية متعلقة بموضوعاته ٠

وقمت بكتابته ليفى بالحاجة التى فرضت نفسها على دون توقع ابان القائى للمحاضرات : وهى انه لابد ان يكون هناك كتاب على شكل نواة يمكن ان تتجمع حوله القراءات الاضافية المتنوعة ٠ وهو نظرة عامة عن تاريخ العصور الوسطى دون أن يكون موجزا أو موسوعة صغيرة ٠

وفى اعتقادى ان هذا الكتاب لابد وأنه جدير بأن يحظى بالثقة لأنه كتاب موجز ثقافى ٠ ويجب أن يكون الدارس قـــادرا على الاعتماد على التفسيرات التى وردت بالكتاب ،و التى تمثل استنتاجات لها مكانتها ، أو على الدراسات الحديثة ، والتى تفوق الافتراضات العلمية للمؤلف ٠

وعلى اية حال ، فان الدارس سيحظى بالمتعة من هذا الكتاب لوجود تنظيم واضح للمعلومات التاريخية به ، فضلا عن الاحساس بعنصرى الحيوية والاثارة ٠ واخيرا فلن يكون الدارس مجبرا على قضاء معظم وقت قراءته فى سرد للأحداث التاريخية ٠ ويجب ان يكون الكتاب طويلا بالقدر الذى يكفى لتقديم فكرة شاملة عن فترة تاريخية شهيرة . وأن يشير الى انجازات تلك الفترة الاقتصادية ، والفكرية ، والثقافية ٠ بالاضافة الى تطوراتها السياسية . على انه يجب أن يكون قصـــيرا بالقدر الذى يسمح للدارس بالاطلاع باستفاضة على المؤلفات الاضافية ، وان يقوم

خاصة بتعمق ، حتى يكون على بينة بالموضوعات التى تثير الجدل حول القضايا التاريخية الشهيرة ، وأن يبحث فى بعض المصادر المعاصرة · ويوجد فى نهاية كل قسم من أقسام الكتاب الثلاثة عينة تخصصية اضافية مفيدة · ومعظمها مطبوعة من المراجع المعلق عليها بالحواشى ·

المقـــدمة

منذ مائة عام مضت كانت هناك نظرة شـــاملة الى تاريخ أوربا فى العصور الوسطى على انها « عصور ظلام » ٠ وكان هناك اعتقاد بأن الفرد فى غرب أوربا ظل يغط فى سبات عميق عند سقوط القسم الغـــربى من الامبراطورية سنة ٤٧٦ م ، الى أن استيقظ أخيرا ، مثل ريب فان وينكل Rip Van Winkle (١٤ ــ ١٧ م) ، عند انبلاج فجر النهضة الايطالية ٠ والواقع أن قادة الحركة الانسانية للنهضة الايطالية فى القرن الخامس عشر هم الذين ابتكروا هذا التعبير لأول مرة على الصورة الكئيبة عن أجدادهم الذين عاشوا فى العصور الوسطى . وتكرر هذا التعبير على يد المصلحين البروتستانت فى القرن السادس عشر الميلادى ، وكذلك على يد الفلاسفة الذين قادوا حركة الاستنارة الفلسفية فى فرنسا فى القرن الثامن عشر ٠ لقد تم ابتكار مصطلح « العصور الوسطى » للدلالة على فترة تاريخية طويلة لها جوانبها الروحية . والثقافية . وتفصل بين العصور القديمة بحضارتها الاغريقية والرومانية وبين عصر النهضة ، وبدت على أنها لم تكن جديرة باسم خاص بها . لأنها كانت فترة كان فنها بربريا « أو قوطيا » الف عام من الظلام ــ الف عام دون وجود حمام ٠

وفى أيامنا هذه ، فان وجهة النظر هذه صارت مرفوضة لضعف الثقة بها ، بالرغم من أنها مازالت قائمة بين أنصاف المتعلمين ٠ فلقد اثبتت اجيال عديدة من العاملين بالدراسات التاريخية المتخصصة بوضوح أن العصـــور الوسطى كانت بمثابة فترة من الزمان تميزت بالحيوية الهـــائلة والابداع المتخصص عن التفكير العميق ٠ ذلك لأن الفترة التاريخية التى ظهر فيها تومـــا الأكـــوينى Thomas Aquinas ودانتـــــــى Dante ونوتردام البـــــاريسى Notre Dame de Paris والمواثيـــــق والبرلمان ، والجامعة ، من الصعب أن توصف بأنها فترة « ظلام » أو « عدم تحضر » ٠ Chartres

ومع ذلك ، فمزالت الكتب الدراسية تردد دون توقف أن

الحياة فى أوربا العصور الوسطى وأمريكا الحديثة شاسع ، وأن بعد المناخ الفكرى فى العصور الوسطى عن المناخ الفكرى الحالى كان هائلا ـ ولقد تعلمت أعداد يصعب حصرها من الدارسين كيفية الكشف عن وجوه الخلاف بين النظام الاقطاعى ، والنظام الديمقراطى . والخلاف بين الفكر فى العصور الوسطى والفكر الحديث . وبين « عصر الايمان » ، وعصرنا الحالى : وهو عصر التكنولوجيا ، او الشك ، أو علم الضبط والتنظيم Cybernetics . تلك حقائق لاريب فيها الا عند القلة ، ويبدو أنه ليس من الضرورى أن نسخر من وجهة النظر القائلة بأن أعلام السياسة والثقافة فى أيامنا هذه لا يرقون الى مستوى القديس برنارد St. Bernard أو البابا جريجورى السابع Gregory VII على أن مكمن الخطر الخفى فى فهم أوربا فى العصور الوسطى لا يشكل فشلا فى التعرف على كل تناقضاته الواضحة بالنسبة للمجتمع الحديث . وانما الخطر فى أنه عندما نسهب عن قصد فى تلك الخصائص المتغايرة ، قد يفتونا الانتباه الى حقيقة دامغة وهى القائلة بأن العصور الوسطى تشكل طورا باكرا فى حضارتنا المعاصرة . فأحد الفوائد العظمى لدراسة التاريخ الوسيط هى اتاحتها لفرصة دراسة مراحل النشأة ، والتطور ، والنضوج الباكر لمجتمع غرب أوربا . وعندما نبحث فى تاريخ العصور الوسطى ، فاننا نمعن النظر فى أسسنا الثقافية . فلقد نجحت الحضارة الغربية ، بحلول القرنين الثانى عشر والثالث عشر فى احراز مستوى ثقافى يقارب ذلك المستوى الذى كان موجودا فى الحضارات العريقة الماضية ، ويضاف الى ذلك أن هذه الحضارة الغربية أتيحت لها امكانية ضخمة لاحراز تطور بعيد المدى . ولقد شاء القدر ، فى قرون تالية ، أن تتفوق هذه الحضارة بكثير على انجازات الماضى ، وأن تعمل على احداث تحولات عالمية سواء تجاه الخير أو الشر .

ظهرت الحضارة العربية فى العصور الوسطى الباكرة ، بيد أن جذورها تعود الى العصور القديمة . وعلى شاكلة الحضارتين العظيمتين فى بيزنطة والعالم الاسلامى . اللتان أثرتا فيها فى مجالات شتى ، فان أوربا فى العصور الوسطى كانت نتاجا لحضارة البحر المتوسط العظيمة التى سبقتها ـ وهذه الحضارة الغربية هى ابنة حضارتى اليونان والرومان ـ بيد أن الماضى الكلاسيكى لم يكن بأية حال المقوم الوحيد الذى عمل على تكوين أوربا .

فحضارة العصور الوسطى نشأت من امتزاج ثلاثى لتراثات ثقافية ، متباينة ومؤثرة : التراث الاغريقى ـ الرومانى ، واليهودى ـ المسيحى ، والجرمانى · ولقد تمت عملية الانصهار الثقـــافى ، والتى تمخض عنها تطور أوربا فى العصور الوسطى بالتدريج ، وعلى فترات متفاوتة ، ولكى نتتبع عملية هذا التحول ، فانه يتحتم علينا أن نبدأ قصتنا قبل انهيار السلطة الرومانية فى الغرب بوقت طويل · فيجب أولا أن نعود الى الامبراطورية الرومانية فى أوج قوتهـا ·

القسم الأول : روما : العظمة والتدهور

١ ــ الامبراطورية الرومانية فى أوج قوتها :

ـــ القرنين الأولين للميلاد ·

ـــ الأدب والفكر الرومانى ·

٢ ــ المسيحية : الخلفية ، الانتشار ، والانتصار :

ـــ الدين الرومـــــانى ·

ـــ الطوائف ذات الطقوس السرية ·

ـــ الأفلاطونية المحدثة ·

ـــ ظهور المسيحية ·

ـــ الكنيسة الباكرة ·

ـــ المسيحية والحضارة اليونانية ·

ـــ المسيحية والامبراطورية ·

٣ ــ الامبراطورية الرومانية المتأخرة :

ـــ القرن الثالث الميلادى ·

ـــ اصلاحات دقلديانوس ·

ـــ عهد قسطنطين (٣٠٦ ــ ٣٣٧ م) ·

ـــ الامبراطورية المسيحية ·

ـــ علماء لاهوت الكنيسة اللاتينية ·

٤ ــ تدهور روما والغزوات الجرمانية :

ـــ التدهور والسقوط ·

ـــ الشعوب الجرمانية ·

ـــ غزوات البرابرة ·

ـــ أوربا سنة ٥٠٠ م ·

١ ـ الامبراطورية الرومانية فى أوج قوتها :

القرنين الأولين للميلاد :

خـلال القرنين الأولين للميلاد منذ اعتلاء أغسطس Augustus العـــرش حتى وفـــاة ماركوس أورليـــوس Marcus Aurelius (حوالى ٣١ ق٠م ـ ١٨٠ م) ، اتسعت حدود الامبراطورية الرومانية شيئا فشيئا ، لتشمل منطقة شاسعة من نهر الفرات الى المحيط الأطلسى ٠ ومن المناطق الصحراوية بشمال أفريقيا الى نهر الدانوب والراين ، وتلال شيفوت Cheviet Hills بشمال بريطانيا ٠

ووقع عبء الدفاع عن الحدود المترامية الأطراف على جيش بلغ تعداده حوالى مابين ثلاثمائة ألف الى خمسمائة ألف مقاتل ، وقام الامبراطور بوضع المبادىء التنظيمية والتخطيطية ، وتتولى المهمات العسكرية قوات الرجـــالة Infantry Legions لفترات طويلة الأمد ، هذا بالاضافة الى القوات المساعدة الأجنبية التى كانت من الرجالة والخيالة خفيفى العدة ، والذين كانوا يحصلون على حق المواطنة الرومانية فى نهاية فترة الخدمة الطويلة . وكان الجيش يتمركز على طول حدود الامبراطورية باستثناء حرس قليل العدد ، ويتمتع بمزايا خاصة ، لتأمين ســـلامة الامبراطور ، وعرف هذا الحرس باسم الحرس البريتورى Praetorian Guard ٠ وتم ربط مدينة روما العاصمة بالأقاليم النائية بفضل شبكة المواصلات التى وضعها موضع التنفيذ نظام الطرق الرائع ٠ ولما كانت هذه الطرق معبدة باحجار متينة لذلك ظلت باقية بقاء روما نفسها ٠ وسهلت هذه الطرق تدفق التجارة بالاضافة الى تنقلات الجنود ، وظلت صالحة للاستعمال لعدة قرون بعـــد الســـلام الرومانى Roman Peace الذى حطمته الفوضى السياسية والاجتماعية وغزوات البرابرة ٠

ولم يكن شريان المواصلات الرئيسى ، الذى يخدم التجـــارة مبنيا من الأحجار ، وانما كان البحر المتوسط الذى أحاطته الأقاليم من جميع الجهات التابعة للامبراطورية ومن ثم أطلق عليه الرومان بحب واعتزاز بحــــرنا

Mare Nostrum اذ كانت الأساطيل الرومانية القوية تحرس البحر المتوسط ، وجعلته فى مأمن من القراصنة لأول مرة فى العصور القديمة . وبذلك تمكنت السفن المحملة بالبضائع من الابحار دون أن يعترض سبيلها أحد بين أرجاء الامبراطورية المتعددة • وفى ذلك الحين ، وهو الأمر الذى لم يحدث من قبل على الاطلاق ، كانت الحدود الشاسعة للامبراطورية خاضعة للارادة الحكومية الجيدة ، والتى عملت على حفظ النظام ، والمرابطة بفضل الطرق البرية والممرات المائية التى حظيت بالأمن والأمان •

وتحت مظلة السلام الرومانى انتشر الرخاء الاقتصـــــادى ، وكثرت المؤسسات الاجتماعية . وانتعش التراث الثقافى ، وانتشر فى كل مكان عبر الامبراطورية . ونظرا لأن الأقاليم البعيدة صارت تأخذ الطابع الرومانى بشكل مضطرد . لذلك تغيرتا معنى كلمتى « روما » و « رومانى » رويدا رويداً • فمنذ عهد الامبراطور أغسطس (٣١ ق م• ــ ١٤ م) ، لم يعد هذين التعبيرين يطلقان على العاصمة الرومانية وسكانها فحسب ، وانما امتدا ليشملا الجزء الأكبر من ايطاليا • وبمرور العقد تلو الآخر فى الســـــلام الرومانى امتدت المواطنة الرومانية تدريجيا أكثر فأكثر الى الأقاليم الريفية حتى وصل الأمر الى أن حصل كل ساكن حر فى الامبراطورية على حق المواطن الرومانى سنة ٢١٢ م • بل ويبدو أن الأباطرة أنفسهم فى ذلك الحين ، على غير المألوف ، كانوا يميلون الى الاقليمية ، فتراجـــــان Trajan وهـــــادريان Hadrian واللذان ربما كانا من أعظم أباطرة القـــــرن الثانى ، كانا من اهالى أسبانيا • وبمرور الوقت اكتسب تعبيرى « روما » و « رومانى » دلالة عالية • فالملك الاغريقى فى القسطنطينية ، والملك الفرنجى فى آخـــــن Aachen ، والملك السكسونى فى ألمانيا ، كلهم جميعـــا ، أشاروا الى أنفسهم بأنهم « أباطرة رومان » ، وذلك فى قرون تالية •

وكان ظهور المدن فى أنحاء الامبراطورية احدى النتائج الرائعة لعملية اضفاء الصبغة الرومانية • ففى ذلك الحين انتشرت دولة ــ المدينة ، وهى الظاهرة السياسية المميزة للعالم الاغريقى الرومانى ، وفى بلاد الغــــال Gaul ، وأسبانيا ، وعلى امتداد نهر الراين ، والدانوب ، وحتى فى بريطانيا البعيدة • واحتفظت المدينة بقدر طيب من الحكم الذاتى المحلى ، وسيطرت بشكل طبيعى على المناطق الريفية الواقعة فى نطاقها • وبمعنى

اخر ، كانت المدينة الوحدة الأساسية للادارة المحلية ، اذ ظلت حكومة الدولة الرومانية منسوبة للمدينة بصفة أساسية · على انه من ناحية التناقض الظاهرى ، بدت مدن الامبراطورية ، وبخاصة تلك التى فى الغرب على أن لها أهمية قليلة نسبيا كمراكز تجارية وصناعية · ولم تمارس روما أى ثورة صناعية ، وبالرغم من أن ازدهار الصناعات بالمدن كان على نطاق ضيق وبخاصة فى الشرق ، فان اقتصاد الامبراطورية ظل زراعيا بصفة أساسية فمعظم مدن الغرب وعلى وجه الخصوص روما نفسها ـ كانت تستهلك أكثر بكثير مما نتج · وعلى عكس مدن أوربا فى العصور الوسطى والحديثة ، فان المدن فى تلك الفترة لم تكن لديها اكتفاء ذاتيا من الناحية الاقتصادية ، وكانت تعيش عالة أو متطفلة على الاقتصاد الامبراطورى · اذ كانت هذه المدن مراكز ادارية وحربية فى المقام الأول · أما أهميتها التجارية فكانت فى المقام الثانى· وابان القرنين الأولين للميلاد كان اقتصاد الامبراطورية مزدهرا بالقدر الذى يسمح بالانفاق على تلك المدن ، بيد ان هذا الوضع لم يستمر بصفة دائمة · وذلك حتى تدهورت المدن ومعها كل النظام السياسى للعالم الاغريقى الرومانى·

وفى السنوات الأولى للامبراطورية ، كـــما فى السنوات الأخيرة من الجمهورية ، لعب العبيد دورا حاسما فى الاقتصاد ، وبصفة خاصة فى الزراعة · بيد أنه نظرا لأن حدود الامبراطورية لم تعد يضاف اليها أراضى جديدة رويدا رويدا · ولتناقص تدفق الأسرى فان المصدر الرئيسى للعبيد نضب معينه · وفى ذلك الحين اتجه كبار ملاك الأراضى الى تأجير أجزاء كبيرة من اقطاعاتهم الى مزارعين أحرار مقابل حصول هؤلاء المزارعين على جزء من المحصول وأطلق عليهم لفظ أقنان Coloni · وهم الذين كانوا يعملون فى أراضى سيد اقطاعى ، وتنتقل ملكيته من هذا السيد الى سيد اخر عندما تؤول ملكية الأرض اليه · ولم ينعم الاقنان ، كما حدث للجماهير الغفيرة ، التى ظلت تتدفق على المدن الأكبر ، سوى بأقل القليل من مظاهر الترف والرخاء الاقتصادى فى الفترة الباكرة للامبراطورية ـ وكان القرن الثانى للميلاد على المستويات القديمة عصرا للثراء المادى الملحوظ ، على أنه من السخف مقارنته بالوفرة الناجمة عن تقدم الأحوال الصناعية فى أيامنا هذه · واحتوى المجتمع الرومانى بصفة دائمة فى قاعه على أعداد لا حصر لها من البؤساء ، الذين يمثلون البنية الأساسية للمجتمع هم الذين كانوا من الفلاحين والمعدمين الذين عاشوا على الكفاف ·

وكان من الممكن أن تكون أحوال الطبقات الدنيا على ماهى عليه من سوء لولا سياسات الحكومة الرامية الى محبة الخير العام ، والاصلاح الاجتماعى . فبصفة خاصة رسخت وجهات النظر الرواقية Stoic attitudes عن الأخوة الانسانية ، والرحمة ، والمسئولية الاجتماعية ، والسياسية بين أباطرة القرن الثانى العظام . واعتبر كل من الامبراطور هادريان، والامبراطور ماركوس أورليوس سلطتهما على أنها أمانة ومسئولية صعبة وأن عليهما أن يحكمهما لصالح الشعب سواء كان الفرد غنيا أم فقيرا ، يتمتع بامتيازات أم كان منخفض الجناح . وازدانت الامبراطورية فى القرن الثانى بضميرها الحساس بما لا يقل عن حكمتها وقيادتها القوية فى المجال العسكرى والشئون الادارية .

الأدب والفكر الرومانى :

كان الأدب الرومانى الذى اعتمد على التراث الاغريقى العظيم ، بل وعلى ما استمده من المصادر الثقافية الرومانية نفسها ، تأثير قوى على الغرب فى العصور الوسطى والحديثة . فقليل من العلماء والشعراء كان يعرف اللغة اليونانية ، بيد أنهم جميعــــا كانوا يعرفون اللغة اللاتينية من الناحية العملية . وبالرغم من ان الترجمات اللاتينية للمؤلفات اليونانية الفلسفية والعلمية المهمة بدأت تتدفق تجاه الغرب فى العصور الوسطى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد ، فان غرب أوربا لم يشعر بالأثر الكامل للتراث اليونانى فى الآداب belles Lettres حتى قيـــام النهضة الايطالية ، ومن ثم كان تأثير الأدب الرومانى فى العصور الوسطى أعمق بكثير من تأثير الأدب اليونانى .

وكقاعدة فان الكتاب الرومان لم يهتموا بالنظرية العلمية أو بالفكر الفلسفى العميق بصفة خاصـــة ، ونتيجة لذلك كان ينقصهم الكثير عن الاغريق . بيد أنهم نجحوا فى جعل اللغة اللاتينية أداة أدبية رائعة لمثلهم العليا الأخلاقية والسياسية وللامحهم وقصائدهم العاطفية . وابان العقود الأخيرة للجمهورية الرومانية والتى تميزت بالاضطراب قدمت روما مجموعة من المؤلفين والشعراء أثارت الاعجـــاب . وكان شمشرون Cicero الخطيب السناتورى ، أعظمهم شهرة . فلقد أكسبه تمكنه الشديد من الأسلوب

اللاتينى فى خطبه وكتاباته ، مركزا فريدا فى مجال الأدب الرومانى بالرغم من أن حياته السياسية انتهت بكارثة وأن جهوده المضنية لانقاذ الجمهورية المتداعية فشلت فشلا ذريعا ٠

وبقيام حكومة امبراطورية قـــوية فى عهد الامبراطور أغسطس فى الأعوام التى تلت سنة ٣١ م دخلت الآداب اللاتينية طورا جديدا ٠ كما أن تحقيق الاستقرار السياسى بعد عقود من الاضطراب والوعد بالسلام الدائم . وسياسة الامبراطورية القـــائمة على أن التقدم فى العمل يفضى الى ظهور المواهب » والقيادة الملهمة للامبراطور أغسطس كلها اتحدت جميعا ، وتمخض عنها وجود موجة قوية من التفاؤل ، وحب الوطن والأصالة المبدعة ٠ فعصر أغسطس يشكل الذروة فى العبقرية الرومانية المبدعة ، متفوقا على التألق الأدبى ابان الفترة المضطربة الأخيرة من الجمهورية ٠ وفى عهد أغسطس استوعب الفنانون والشعراء الرومان التراكيب اللغوية الأساسية للغتين اليونانية والرومانية وسار فن المعمار الرومانى على النمط الاغريقى ، بيد انه فى الوقت نفسه كان تعبيرا عن الشخصية الرومانية ٠ وارتفعت المعابد الرومانية أكثر من المعابد اليونانية بكثير ونقلت شعورا كان أقل جلالا — واكثر دلالة على القوة ، واقل من الناحية الأفقية وأكثر دلالة على الناحية الرأســـية ٠

وظهرت فى قصائد الشعر العظيمة فى عصر أغسطس — وقصائد الشعر الغنائى المهذبة والخالية من العيب للشـــاعر هوراس Horace وأبيات الشعر الغزلى للشاعر العالمى أوفيد Ovid ، ونغمات فيرجيل Virgil الرائعة لأنماط الأفكار اليونانية الأصيلة ، وكذلك بالأساليب الرومانية على نحو مميز ٠ فأعظم قصيدة فى روما الاينيادة Aeneid للشاعر فرجيل ، قامت على نمط ملحمة الشـــاعر هومير Homer الذى ألف ملحمة الأودسى Odyssey وهى عن رحلة لشخصية مهمة ابان الحرب الطروادية Trojan War بيد أن اينيـــاس Aeneas بطل فيرجيل كان أيضا المؤسس الأسطورى لمدينة روما ، وأن القصيدة تصور من البداية الى النهاية العديد من النبوءات الوطنية فيما يتعلق بالدولة التى كان يتعين على اينياس اقامتها ٠ وفى الحقيقة وجد بعض القراء فى اينياس رمزا للامبراطور أغسطس نفسه ٠ وتحتوى الانيـــادة أيضا ، بشكل يثير أوربا فى العصور الوسطى

الدهشة ، على اتجاه قوى نحو الرحمة ، وحب الخير العام ، وهو الأمر الذى لا يوجد كلية عند الشاعر هومير ، بيد أنه كان واضحا فى سياسات أغسطس وخلفائه المستنيرين ، وبصفة خاصة أباطرة القرن الثانى الميلادى · وفوق كل هذا هناك شعور بالأمل فى أن الدولة الرومانية ، التى شيدها ايناس والتى قادها أغسطس العظيم وصناع السلام ، قد انجزت هدفهـا النهائى فى تحقيق السلام الدائم والعدل للعالم الذى عانى طويلا من القلق·

فالفترة التاريخية للثقـــافة ، من وفاة أغسطس الى وفاة ماركوس اوريليوس على نحو التقريب تعرف باسم العصر الفضى · وبالرغم من أن تلك الفترة كانت أقل شهرة من العصر الذهبى للامبراطور أغطسطس فانها شهدت انجازات أدبية وفكرية وفنية من الطراز الأول · ورأى بعض المراقبين من كتاب العصر الفضى ، من أمثال ســـنيكا الرواقى Stoic Seneca ولوكيـــــان الهجـــــاء Satirist lucian ، وبلوتارك مترجم السير biographer Pltutarch نوعا من تضاءل العبقرية الابداعية · ولقد أكدوا على التشابه المبتذل للفن الرومانى فى القرن الثانى للميلاد مع الأدب ، نتيجة لغياب الحرية الحقيقية ، وتماثل الثقافة ، وفتور الســـلام والطمأنينة · وتلك الأوهام هى بالضرورة نسبية ، اذ ان كثيرا من الشخصيات من أصحاب الشعور الرقيق عبر القرون نظروا الى كتاب العصر الفضى باعجاب هائل ، بيد أنه مهما فكر المرء فى أصالة وتفوق أدب العصر الفضى فانه ليس هناك شك فى أن الثقافة والمعرفة له انتشرتا بشكل مهم فى الداخل والخارج · اذ فاخرت المدن بالأقاليم الريفية البعيدة بالمعابد والحمامات المثيرة للاعجاب ، والمسارح وأقواس النصر التى اقيمت على النمط الرومانى · وانتشرت المكتبات والمدارس بوفرة فى كل أنحاء الامبراطورية ، وظهر بوضوح انتشار معرفة القراءة والكتابة فى نطاق المدينة ، وذلك بفضل وجود النقوش وشعارات الحملات التى كشف عنها علماء الآثار ، والحفريات المحدثون ، على مبانى مدينة بومبى Pompeii والتى دفنتهـــــا وحفظتها ثورة بركان فيزوفيـــوس Vesuvius المدمرة سنة ٧٩ م ·

واحتفظت الاسكندرية ، المدينة العظيمة فى الأزمنة الهيلينية بأهميتها الاقتصادية والفكرية طوال العهد الباكر من الامبراطورية ، حيث قدمت بعضا من ألمع علماء اللاهوت المسيحيين بالاضافة الى العديد من العلماء المشهورين

الذين طوروا وحققوا انجازات للعلوم الهيلينية الباكرة ، وفى الوقت نفسه عملوا على زيادة الشهرة الفكرية للامبراطورية فى القرن الثانى الميلادى الى حد كبير ، فعلى سبيل المثال تطور الفكر الفلكى الاغريقى والهيلينى الى نموذج رفيــع المستوى ، وشــامل للكون على يد بطليموس الاسكندرى Ptolemy of Alexandria (ت حــوالى ١٨٠ م) ، الذى كتب بالتفصيل عن أعمال من سبقوه فيما يتعلق بالنظام الكونى ، وقام بتفسيره بدقة بالنسبة للحركات الملحوظة للشمس ، والقمر ، والكواكب التى بين النجوم . وظل نظــام بطليموس The Ptolemaic System المحــاولة الناجحة والبعيدة المدى للبشرية من أجل تفسير حركات الاجرام السماوية حتى ظهور كوبيرنيكـــوس Copernicus فى القرن السادس عشر الميلادى . وكتب أيضا بطليموس أعظم كتب الجغرافيا شمولا فى العصور القديمة ، وأخرج جـــالين Galen (١٣١ ، ٢٠١ م) ، وهو عالم فى علوم الطب من برجـــاموم Pergamum الهيلينية سلسلة من المؤلفات الرائعة عن علم الاحياء ، والطب التى ظلت تهيمن على هذه الميادين العلمية أكثر من ألف عـام . كما أن كتاب التأملات Meditations لمؤلفه ماركوس أورليوس ، آخر أباطرة القرن الثانى العظام هو أحد تعبيرات العصور الى حد بعيد . ففى الأدب ، والفن والعلوم والفلسفة أنتج العصر الفضى اندماجا معنويا للتراث اليونانى والرومانى . فالميراث التراثى الوافر لليونان ، وروما ، والشرق القديم تم اجماله ودمجه من أجل الفائدة الكبرى لحضارة المستقبل .

ومن بين انجازات هذا العهد ، وربما أعظمهـــا بالتأكيد الشىء المميز للرومان ـ عملية تطوير القانون الامبراطورى ، اذ تم اعادة صياغة القانون القديم المعروف بالألواح الاثنى عشر Twelve Tables (الصادر حوالى ٤٥٠ ق.م.) بالتدريج مع شىء من التفصيل ، بشكل يجعلها ملائمة للطبيعة البشرية على يد رجال القضـــاء فى أواخر عصر الجمهورية ، وفى عصر الامبراطورية الرومانية الباكرة ، وعلى يد المشرعين العظام للقرنين الثانى والثالث للميلاد ، هذا بالاضافة الى تدخل الأباطرة المثقفين أنفسهم . وعندما صار الرومان على معرفة بالشعب أكثر فأكثر ، وأن لكل شعب مجموعته القانونية ، وعاداته الخاصة حرروا أنفسهم رويدا رويدا من كون القوانين خاصة بهم . وجاهدوا من أجل احلال مجموعة من المبـــادىء الأســاسية استمدوها من قوانين كل الشعوب محلها .

ولقد حول « قانون الشعوب » Jus Gentium مجموعة القانون الرومانى على مهل الى نظام قانونى مناسب لامبراطورية مترامية الأطراف ، ومتغايرة العناصر البشرية • وتأثر هذا التحول بالمفهوم اليونانى عن « قانون الطبيعـــة » Jus Naturale الذى لعب دورا بارزا فى تاريخ الفكر الغربى • على أن قانون الطبيعة كان أكثر مثالية عن قانون الشعوب • اذ أن الأول كان مبنيا على الاعتقاد بوجود نظام عالمى مقدس يوجد به معـــايير خاصة للسلوك الانسانى الذى يتحتم على كل الناس اتباعه بغض النظر عن عاداتهم الفردية وتقاليدهم • تلك المعايير كانت مبنية على رفعة شأن العدالة السياسية والاجتماعية • وصلحت فى صياغة قانون الامبراطورية ، وجعله ملائما للطبيعة البشرية ، وأمدته بأساس فلسفى قوى • وهكذا ، فالقانون الرومانى هو نتاج للعبقرية السياسية العملية اللاتينية التى تأثرت بالفكر اليونانى التأملى ، وهى التى قدمت جوهر مفهوم العدل فى عصر أغسطس • ولقد أصبح القانون الرومانى جزءا أساسيا فى التراث الغربى بعد أن تم اعادة تنسيقه بفضل الجهود المضنية فى عصر جوستنيان امبراطور القـرن السادس الميلادى ، بل أساس العديد من النظم القانون حتى يومنا هذا فى أوربا ، وفى الأراضى التى كانت فى يوم ما احدى مستعمراتها •

٢ ـ المسيحية : الخلفية ، الانتشار ، والانتصار :

الدين الرومـــانى :

ان الدين الرومانى موضوع معقد بشكل كبير لأن الرومان لم يقتصروا على الاعتراف بكثير من الآلهة فحسب ، وانما بالعديد من الطوائف الدينية المستقلة ايضا • فعلى سبيل المثال نظام المدنية ـ الدولة اليونانية ، وكانت لمدينة روما آلهتها المحلية الرسمية فالاله جوبيتر Jupiter (كبـــير آلهـــة الرومان) ، وجـونو Juno (ملكة السماء فى أساطير الرومان) ، ومنيرفا Minerva (الهـــة الحكمـــة عند الرومان) ومـــــارس Mars (اله الحرب) ، وآلهة اخرى عديدة ، أصبحـــوا بحلول عصر الجمهورية المتاخرة متماثلين مع الآلهة المماثلة للديانة الأولمبية اليونانية (آلهة الدين اليونانى الأولمبى نسبة الى جبل أولمبوس فى تساليا ، فى الجزء الشرقى من اليونان، وكان الاغريق يعتبرونه مثوى الآلهة) • فجوبيتر هو زيوس Zeus اليونانى ، وميتيرفا هى اثينا Athena اليونانية ، وهلم جرا • وبالاضافة الى تلك الآلهة الرومانية الرسمية ، كان هناك عدد لا حصر له من الآلهة المحلية لعدد كبير من المدن ومناطق الامبراطورية ، وفى روما نفسها ، كما فى كل أنحاء الامبراطورية كان هناك أعداد لا حصر لها من الفرق الدينية غير الرسمية التى حظيت بتسامح طبيعى من قبل الدولة الرومانية • ولم تكن اى من تلك الفرق الدينية الوثنية قاصرة على اعضائها الذين ينتمون اليها ، كما لم تدع احداها احتكار صحة العقيدة • وكان فى امكان الفرد العادى أن يعلن انضمامه الى العديد منها دون أن يتعرض لأى خطر •

وبظهور تعبير المواطن الأول Principate تم اضافة عنصر مهـم جديد الى دين الدولة : هو عبادة الامبراطور أغسطس ، فالامبراطور أغسطس ومن قبله يوليوس قيصر Julius Caesar قد تم تبجيل كل منهما عن طريق التعظيم حتى العبادة وتأليه روح Genius كل منـــهما (روح العائلة) ، وكل من أغسطس وأســلافه ، مع وجـود استثناءات قـام مجلس الشيوخ الرومانى بتعظيمهم بعد مماتهم •

وفى تلك الأقاليم التى ألهت الملك بناء على تعبير « المواطن الأول » ظلت

النظرة على أنه اله طوال حياته قائمة • وأصبح من التقاليد المتعارف عليها بالنسبة للرومان ولسكان الأقاليم على حد سواء هو المشاركة بذكر الامبراطور بالاضافة الى الآلهة العظام لمدينة روما عند ممارسة الشعائر الدينية • وفى الواقع كانت تلك الشعائر الدينية أكثر منها دينية • وتلك الطقوس كانت مفيدة الى أبعد حد فى تشجيع الولاء للدولة بين مختلف الشعوب • وطبقا للمواقف الدينية فى ذلك الحين عارضت القلة اضافة حفنة من الآلهة الجديدة الى ذلك الحشد المقدس الذى عبدوه من قبل • ومن وجهة نظر اليهود والنصارى من بعدهم ، كانت تلك الطقوس مسألة مختلفة تمام الاختلاف ، لأن اله اليهود الحريص لا يسمح بعبادة سواه • بيد أن روما اعتبرت اليهود شعبا مستقلا ، وفى العادة أعفتهم من المشاركة فى الفرق الدينية الرسمية • ومن ناحية أخرى ، عانى النصارى معاناة قاتلة من جراء رفضهم عبادة الأباطرة واله روما • ومن جهة نظر الرومان كان هذا العناد والتصلب يحمل صفة عدم الايمان بتلك الآلهة ، وكذلك الخيانة • لذلك ليس من قبيل المصادفة أن كانت تعاليم النصارى وحدها من دون كل الديانات بالامبراطورية موضعا للاضطهاد على يد الرومان •

الطوائف ذات الطقوس السرية :

شهدت القرون التى تلت عهد الامبراطور أغسطس تغيرا بطيئا ، لكنه كان جوهريا بالنسبة للمواقف الدينية الرومانية ، فبعد تبجيل الآلهة التقليدية المحلية ، والتى عبدتها الأسر والعشائر ، وسكان المدن ، عبد الرومان آلهة تسمو على الوجود المادى وفدت اليهم من الشرق الأوسط • فآلهة روما القديمة ، وبالمثل آلهة جبل أولمبوس Olympus اليونانى قامت بحماية الرفاهية الاجتماعية والسياسية للجماعات ، فى حين أن الآلهة الجديدة كان اهتمامها قليلا بتلك الأمور ، غير أنها قدمت بدلا من ذلك كله أمل الفرد فى الصلاح ، والخلاص ، والحياة الأبدية • وبتقدم العصر الامبراطورى الرومانى تغير ولاء الشعب للدولة ببطء ، ولكن بطريقة يصعب تغييرها من عبادة جوبيتر ، وميناروفا الى عبادة ايزيس Isis المصرى ، ومتراس Mithras الفارسى ، والأم الفريجية العظيمة The phrygian Great Mother ، واله الشمس السورية ، والآلهة الأخرى الأجنبية

التى قدمت العزاء والسعادة الأبدية لشعب لم ير أن العالم يكفيهم ـ حتى عالم السلام الرومانى ٠

وهذه الزيادة السريعة والقوية لهذا المذهب الصوفى أو الباطنى كانت فى الواقع استمرارا وامتدادا لنزعة كانت بادية للعيان منذ أمد بعيد بين اليونانيين الهيليين ٠ ونفس القوى التى شجعت عدم ترسيخ العالم الهيلينى وعملت على طمسه كانت منهمكة فى كل أنحاء الامبراطورية الرومانية ـ العالمية ، بالعمل على زيادة حكم الفرد تدريجيا بين الطبقات الفقيرة ، التى عانت من الحرمان وفقدان الأمل ٠ كما أن التحول من الاله المحلى الى الاله المخلص ، ومن هذا العالم الى العالم التالى ، أصبح يشكل تحولا عميقـا فى الحالة النفسية ، التى أدت الى التبرأ من الفلسفة الانسانية التقليدية الاغريقية الرومانية ٠ وحيث أن سلام القرن الثانى الميلادى افسح المجال للفوضى السياسية والاجتماعية التى حدثت فى القرن الثالث الميلادى ، لذلك فان الآمال الكبرى للفلسفة الانسانية ـ حلم عالم يسوده الفكر الانسانى ، وجمهورية مثالية ، وحياة الرفاهية ، كانت كلها تبدو كالأوهام القاسية ، عندما اكتسبت الحركة تجاه الديانات ذات الطقوس السرية قوة دفع هائلة ٠

الأفلاطونية المحدثة :

تم القضاء على الجماعات الدينية الوثنية القديمة بفضـــل الزيادة السريعة والقوية للايمان بالغيب الذى صاحب الفوضى السياسية والاجتماعية فى القرن الثالث الميلادى ٠ وظهر الاتجاه نحو النظرة المتسامية بوضوح وبصفة خاصة فى الحركة القيادية الفلسفية للقرن الثـــالث ، وهى حركة الأفلاطونية المحدثة ٠ واستطاع أفلاطون ، وهو أحد المفكرين العباقرة وصاحب الذكاء الخارق ، أن يبسط هذه العقيدة وهى أن الله واحد أبدى ، لا تدركه الأبصار ، وليس كمثله شىء ، ولا نراه سوى عن طريق الرؤيا الناجمة عن التعمق الصوفى ٠

وعلم أفلاطون أن الله خالق كل شىء ٠ فكل الكائنات المادية والروحية من صنعه كما يحدث للموجات الصغيرة فى حوض به ماء ٠ وكان المذهب العقلى اليونانى شيئا عديم الجدوى بالنسبة لهؤلاء الذين آمنوا مع أفلاطون أن الحقيقة الوحيدة الجديرة بالمعرفة تكمن خارج نطاق العقل البشرى ٠

وفى الامبراطورية الرومانية المتأخرة ، صار كل شىء أساسى فى الدين الوثنى مندمجا فى تركيبة الأفلاطونية المحدثة الروحية ، اذ علم دعاة الأفلاطونية المحدثة بأن آلهة الفرق الدينية الوثنية كلهم رموز لله الواحـــد الذى ليس كمثله شىء ، ومن ثم فان كل فرقة دينية وثنيـــة حظيت بشرعية وجودها ٠ وأصبحت الوثنية تؤمن باله واحد أكثر فأكثر فالاله زيوس ، والاله جوبيتر ، والاله متراس ، كانوا ببساطة مظاهر مختلفة لاله واحد متعال ٠ وفى هذا الجو بدأ الاختلاف بين الطوائف الدينية الوثنية التقليدية والديانات ذات الطقوس السرية يتضاءل تدريجيا ٠ وبحلول القرن الرابع حل الايمان بالغيب محل الفكر العقلانى والفلسفة الانسانية ٠

بشكل كلى تقريبا ، وكذلك الالهام المقدس والحنين الى الحياة الأبدية ٠ صاحبت الفلسفة الأفلاطونية المحدثة والديانة الوافدة من الشرق الأوسط ، زيادة سريعة واضحة لعلم التنجيم ، والسحر والشعوذة ، والعادات الغامضة الأخرى التى لم يكن لها وجود على الاطلاق فى المجتمع اليونانى الرومانى ، بيد أنها كانت مسيطرة على الفكر الشعبى بشكل لم يحدث من قبل ٠ وفى مثل هذه البيئة غير الطبيعية حققت المسيحية انتصاراتها الأخيرة ٠

ظهور المسيحية :

ميزت نزعتان أساسيتان التطور الدينى فى الامبراطورية الرومانية — نمو الحركة الناشئة نحو التصوف التى بحثناها من قبل ، وتداخل واندماج المعتقدات والعادات بين طائفة دينية وأخرى ، وهى عملية عرفت باسم التوفيق بين المعتقدات الدينية المتعـــارضة Syncretism وتم ادراك خاصية المسيحية باعتبارها استهدفت التوفيق بين المعتقدات الدينية المتعارضة بعـد الدراسة ، لأنه فى كثير من الشواهد كانت معتقداتها وطقوسها مشـــابهة لتلك التى كانت موجودة فى العديد من الديانات التى سبقتها ٠ ومن الواضح أن المسيحية نقلت عن اليهودية الكثير اذ كان المسيحيون الأول يهودا — بيد أن المسيحية سبقتها الطوائف الوثنية فى فارس ، ومصر ، وآسيا الصغرى ، وبلاد اليونان ، فى كثير من تفصيلات عديدة فيما يتعلق بالخلاص ٠ فكثير من التعاليم التى نادت بها المسيحية كانت موجودة قبل ظهور المسيحية ، مثل مفهوم الموت والبعث ، وتناول القربان المقدس ، والتعميد ، والخـــلاص

الشخصى ، والأخوة الانسانية تحت أبوة الله ، بالاسم الا القليل ومع ذلك فالمسيحية أكثر بكثير من أن تكون مجرد صورة جديدة للآراء القديمة ، كما انه يبدو أمرا مخادعا الى حد كبير اذا ما اعتقدنا أنها كانت مجرد احدى الديانات الشرقية ذات الأسرار · فقبل كل شىء ، تختلف المسيحية عن تلك الديانات فى اسلوبين أساسيين :

١ ـ فاله المسيحية هو اله اليهود الذى لا يخفى عليه شىء ، وهو فرد صمد فى وحدانيته وقدرته لشعب مختار ، وبظهور المسيحية شملت الوهيته لكل البشر ·

٢ ـ وعيسى عليه السلام Juses مؤسس المسيحية والمخلص كان شخصية تاريخية فذة ·

وعيسى (عليه السلام) معاصر للامبراطور أغسطس ، وورد ذكره فى تعليم اليهود النبوئية وكانت حياته وتعاليمه قليلة التأثر بالنفوذ اليونانى · وجاء عن عيسى (عليه السلام) فى الأناجيل (الأربعة القانونية) أنه مبشر مملوء بالمحبة بكل قوة ، وشخصية جذابة ، وله مقدرة ساحرة للألباب ، واستطاع بطريقة خارقة للعادة ابراء المرضى ، واحيـــاء الموتى وتسكين الرياح · وكان ينظر الى معجزاته على أنها تمت باذن الله · ودعوته الدينية موجهة الى الفقراء والمنبوذين · وفى السنوات العشر الأولى للمسيحية آمنت بدعوته تلك الطبقات عن طيب خاطر وبسهولة · وبشر عيسى (عليه السلام) بعقيدة المحبة ، والرحمة والتواضع ، وكما فعل أنبياء بنى اسرائيل ، فانه سخر من الشكليات الجوفاء فيما يتعلق بالأمور الدينية ، وركز على الوقار ، وسماحة النفس دون تحيز تجاه كل من الصديق والعدو وأكد على ضرورة تقوى الله · ويبدو أنه لم يعترض على كل مجموعة الطقوس والشعائر ، وانما اعترض فقط على الطقوس والشعائر التى تؤدى الى الاحساس بالمفاخرة والشعور بالرضى الذاتى ، وتبعد المرء عن حبه لاخوانه فى الانسانية · وعن طريق الاستقامة الأخلاقية · وكانت نتيجة نقده العنيد للعيوب الأخـــلاقية الموجودة فى نظام الكهانة اليهودية ، ويضاف اليها ادعاءاته العلنية بأنه يتكلم بوحى الهى ، جرت محاولة صلبه كانسان يدعو الى تخريب الشـعائر والطقوس اليهودية ·

ووفقا لما جاء فى الأناجيل الأربعة ، فان أعظم معجزة لعيسى (عليه السلام) هى قيامه من بين الأموات — وعودته الى الحياة بعد ثلاثة أيام من وفاته على الصليب · ويقال انه ظل على الأرض لفترة قصيرة بعد قيامه من بين الأموات مقدما العزاء والالهام الالهى الى حوارييه ، ثم صعد الى السماء على وعد بأنه سيعود فى مجد ليحاكم كل الأرواح ويضع نهاية للعالم· وتوقعت الأجيال الأولى من المسيحيين عودته بسرعة ولهذا السبب ولأسباب أخرى لم يتم التنظيم الرسمى للكنيسة فى بداية عهدها ·

وبالنسبة الى المسيحيين الأول ، فانهم لم يؤمنوا بالمبادىء الأخلاقية السامية للمسيح فحسب ، وانما عبدوا المسيح نفسه على أساس أنه تجسيد لله العلى القدير · وطبقا للأناجيل الأربعة عمل المسيح على اظهار الفرق بينه — « ابن الانسان » — وبين الله « الأب » — بيد أنه أيضا روى عنه أنه استخدم عبارة « أنا والأب واحد » · ويقال أنه أمر حوارييه بتعميد كل شخص (باسم الأب والابن والروح القدس) · ومن ثم صار المسيحيون مؤمنين بعقيدة اله مثلث الأقانيم حيث كان المسيح « الابن » أو الأقنوم الثانى « فى ثالوث أقدس » · ومع ذلك فالله واحد · وقدمت عقيدة الثالوث الأقدس الميزة الفريدة فى اله واحد ، أبدى ، جدير بكل تقديس من الناحية الفلسفية · والذى يمكن تمجيده وعبادته فى شخص عيسى (عليه السلام) الذى كان مفعما بالمحبة ، وجديرا بأن يحب ، والذى — كما قيل — انتهت حياته بطريقة مأساوية · واله المسيحين يسمو على الوجود المادى ، كما تدركه الحواس على حد سواء ·

الكنيسة الباكرة :

شهد الجيل المسيحى الأول بداية تطور التراث اليهودى المسيحى · وعملت الاتجاهات الأساسية العامة للثقافة اليونانية الرومانية على اثرائه · فالحواريون الذين لازموا المسيح لم يتاثروا بالحضارة الهيلينية على مثال سيدهم الذى لم يتاثر بها أيضا ، وحاول بعضهم أن تظل المسيحية فى نطاق الاطار اليهودى بكل دقة · بيد أن القديس بولس St. Paul الذى كان يهوديا هيلينيا ، ومن الذين آمنوا بالمسيحية فى أوائل عهدها ، شجع فى العمل على تطوير الكنيسة وفقا لرؤيته الشخصية فى الأخوة العالمية ، وجعلها

متحررة من التمسك الشديد بالتعاليم اليهودية والتمسك بعملية الختان التى كانت قيدا يعوق تحول غير اليهود الى المسيحية وجعل عملية الاهتداء المسيحى مفتوحة لكل الرجال فى كل مكان طالما آمنوا بأن عيسى اله ومخلص ٠ كما قام بولس أيضا بالانفتاح على رياح الفكر الهيلينى المفعم بالقوة والنشاط ٠ وتنقل القديس بولس فى كل مكان فى الامبراطورية مبشرا برسالة المسـيح كما فهمها ، ونجح فى ضم مؤمنين جدد ، واقامة المجتمعات المسيحية فى كثير من المدن ــ الكبرى والصغرى لعـالم البحـر المتوسط ٠ وقام المبشرون الآخرون ، ومن بينهم القديس بطرس St. Peter وكذلك زمـلاؤه من الرسل ، الذين كانوا من أتباع المسيح المباشرين ، قام كل هؤلاء بتكريس حياتهم كما فعل القديس بولس فى الانتقال والتبشير والتعليم المسيحى ، وكان ذلك على حساب السخرية والمضايقة فى الغالب ٠ وقد جرت العادة أن كل الرسل بما فيهم القديس بولس ماتوا جميعا كشهداء ٠ وان كانت جهودهم مكللة بالنجاح الى أبعد حد ، لأنه بانتهاء الجيل الرسولى صارت المسيحية قوة لها أهميتها بين الجماهير المعدمة فى ايطاليا ، والشرق ٠ وفى مدى قرن آخر انتشرت المسيحية فى كل أنحاء الجزء الأكبر من الامبراطورية ٠

ومنذ البداية ، شارك المسيحيون بانتظام فى وجبة طعام أطلقوا عليهـا القربان المقدس ، أو العشاء الالهى ، أو الربانى Eucharist or "Holy Communion" ونظروا الى هذه الوجبة على انهـا وسيلة أسـاسية للحصول على النعمة الالهية الناتجة عن امتلائهم بروح المسيح ٠ يضاف الى ذلك طقس مقدس آخر ، وهو التعميد ، الذى شكل مبدأ أساسيا فى الأخوة الكنسية وبالتعميد يغفر الله خطايا المسيحى ، وينال نعمة الروح المقدس ٠ ولا يسمح للمرء بالتعميد سوى مرة واحدة ، كما أن الأشخاص المعمدين فحسب هم الذين يعتبرون أنفسهم مسيحيين بالحقيقة ٠ وان كان التعميد يؤجل فى الغالب حتى سن الرشد فى الكنيسة الباكرة ٠ ومن ثم فان كثيرا من الأشخاص الذين لم يتم تعميدهم كانوا منضمين للمجتمعات المسيحية دون أن يكونوا مسيحيين بالمعنى الكامل للكلمة ٠

وعندما صارت المصادر المسيحية التاريخية أكثر وفرة فى القـرنين الثانى والثالث للميلاد ، بدأ تنظيم الكنيسة فى الظهور بوضوح عن ذى قبل وتكشف وثائق هذه الفترة عن فرق هام بين رجال الدين ، الذين أداروا

شئون الكنيسة ومنحوا الأسرار المقدسة وبين العلمانيين ، الذين لعبوا دورا اقل تأثيرا · وكان رجال الدين منقسمين الى طبقات ، كما أن الأساقفة كانوا الأكثر أهمية ، الذين خدموا كموجهين ورعاة للجماعات المسيحية بالمدن ، وكذلك القساوسة ، الذين تقدموا المسيحيين عند ممارسة الطقوس الدينية ومنحوا الأسرار المقدسة تحت اشراف الأساقفة · كما أن الأساقفة أنفسهم كانت لهم درجات مختلفة بالنسبة لرفعة المقام · وفوق الأساقفة العاديين ، يوجد المطارنة أو رؤساء الأساقفة ، الذين أقاموا فى مدن لها اهمية خاصة ومارسوا ادارة منطقة محيطة واسعة · وعلى قمة التسلسل الهرمى كان هناك أساقفة ثلاثة أو أربعة فى أعظم مدن الامبراطورية، وهى روما، والاسكندرية، وأنطاكية ، والقسطنطينية فيما بعد · وعرف هؤلاء الأساقفة باسم البطارقة وهم الذين مارسوا سيطرة روحية ، غالبا ماكانت نظرية أكثر منها عملية ، على مناطق شاسعة من عالم البحر المتوسط · وبمرور الوقت ، صار أسقف روما — البابا — ينظر اليه تدريجيا على أنه أعلى الأساقفة مقاما ، بيد ان المقام الفعلى لسلطة البابا حتى على الكنيسة الغربية كان أمرا يتطلب جهودا لعدة قرون ·

المسيحية والحضارة اليونانية :

ان المسيحية فى العصور الوسطى والحديثة هى نتاج التراث اليهودى واليونانى على حد سواء · على أن عملية الجمع بين هذين العالمين الفكريين لم تبدأ بين المسيحيين فحسب ، وانما بين اليهود أنفسهم ، وبصفة خاصة أولئك الذين هاجروا بأعداد كبيرة الى الاسكندرية · وفى الاسكندرية عمل العلماء اليهود ، وبصفة خاصة الفيلسوف المتبحر فى المسائل الدينية ، الذى عاش فى أوائل القرن الخامس فيلو (محب) اليهودى Philo Judaeus على التوفيق بين الأسفار اليهودية والفلسفة الاغريقية ، بعد أن نقل بكثرة عن أرسطو ، والرواقيين Stoics وبصفة خاصة عن أفلاطون ، وموضحا بالتفصيل تفسيرا رمزيا للعهد القديم Old Testament الذى كان له أثره على الفكر المسيحى بشكل واضح عبر القرون ·

وسيرا على منوال العديد من مبادرات فيلو المثمرة ، ناضل علماء اللاهوت المسيحيون من أجل اقامة الدليل على أن دينهم ليس مجرد أسطورة يروق للمرأ الايمان بها بالعقل والقلب — وانما على أنه دين قادر على اثبات

وجوده وقدراته فى وسط أعلى الدوائر الفكرية · فالمسيح المخلص ، على سبيل المثال ، كاله بالحقيقة وانسان بالحقيقة ، يشكل اتجاها فريدا للعالمين المادى والروحى · وفى المصطلحات اليونانية لم يكن المسيح ليس سوى النزاع الذى كان قائما بشأن الايمان بأن الانسان يتكون من جسد وروح وهو المذهب المتأصل فى فلسفة أفلاطون ، لأن المسيح يتكون من العنصرين المادى والروحى فى وقت واحد · واختلفت المسيحية عن معظم ديانات الشرق الأوسط ذات الأسرار المقدسة ، وبصفة خاصة تلك القادمة من بلاد الفرس ، فى رفضها أن تطرح العالم المادى جانبا · على أن المادة لا يمكن أن تكون مصدر شر فى حد ذاتها ، ولذلك اعتقد المسيحيون أن تلك المادة هى من صنع الله ، أن جسد الانسان لا يمكن أن يفسد كله ، لأن المسيح نفسه كان بشرا بكل الأحاسيس البشرية · ومن ثم فان المسيحية لم تكن فى نزاع مباشر مع الفلسفة الانســـانية اليونانية بنفس القـــدر الذى كانت عليه ديانة مثيرا Mithra mism المعروفة بمعاداتها للفلسفة الانسانية بشكل جوهرى ، هذا برغم المفهوم المسيحى عن الخطيئة وانحراف الانسان عن طريق الفضيلة نتيجة لعصـــيان آدم فانها كانت بعيدة عن وجهة نظر اليونان التقليدية فيما يتعلق بالفلسفة الانسانية ·

ان اندماج الجسد بالروح والذى يمثل أمرا أساسيا بالنسبة للمسيحية الأرثوذكسية لم يسلم من وجود الاعتراضات بين المسيحيين الأول · وما أن بدأ توقع المجىء الثـانى للمسيح Second Coming دون مرور وقت طويل ، يتضاءل تدريجيا حتى بدأ المسيحيين فى تفحص دينهم بأسلوب فلسفى أكثر من ذى قبل ، وأثاروا مشاكل عويصة فيما يتعلق بطبيعة المسيح والثالوث الأقدس· وظهرت اختلافات فى الآراء ، بعضها كان متعارضا مع رأى الأغلبية الى الحد الذى أدى الى ادانتها باعتبارها طوائف مسيحية لا تدين بعقيدة الأغلبية · وعلى أن الايمان المسيحى أصبح أكثر تحديدا ، وأكثر تفصيلا ، وذلك نتيجة لاثارة الجدل وما تلاه من الحلول الأرثوذكسية التى تم الاتفاق عليها · وحاولت بعض الطوائف المسيحية التى لا تدين بمذهب الدولة أن توضح طبيعة المسيح والثالوث الأقدس بالاصرار على أن المسيح لم يكن بشرا بالحقيقة ـ وأنه مجرد صورة الهية كاملة ـ وأنه مجرد صورة الهية مثالية ـ أو أن المسيح لم يكن له طبيعة الهية كاملة ـ وأنه لم يكن عضوا كاملا فى الألوهية المثلثة الأقانيم · ولقد بنى الأريوسيون فى القرن الرابع الافتراضى

الأخير وهم الذين سنذكرهم فى الفصل التالى · ويقع الافتراض الأرثوذكسى فى منتصف الطريق بين وجهتى النظر السابقتين : وهو أن المسيح انسان كامل واله كامل ، وأنه عضو مشترك فى الثالوث الأقدس منذ الأزل والى الأبد ، وأنه تجسد فى شكل بشر فى فترة من الزمان ، ومشى على الأرض ، وعلم ، وتعذب ، ومات على أنه الانسان عيسى · وظل باقيا هذا الاتجاه ، وظل المسيح الجسر بين العالمين ·

لعب الدعاة المسيحيون والذين دافعوا عن الأرثوذكسية ضد هجمات الوثنية من الخارج ، وهجمات الطوائف المسيحية التى لا تدين بمذهب الدولة من الداخل ، دورا حاسما فى صياغة وتطوير التعاليم المسيحية ، لتكون على مستوى المشاكل التى تحدث حتى عهد الجيل الرسولى · ومن الأهمية البالغة أن الغالبية العظمى من المدافعين عن المسيحية الأرثوذكسية عملوا وفقـا للاطار التراثى للفلسفة اليونانية وكان هذا الأمر حقيقيا بوضوح بالنسبة لأورجـــين Origen (ت ٢٥٤ م) ذلك اللاهوتى الاسكندرى العظيم الذى وضع نظاما فلسفيا للمسيحية مترابطا وشاملا وفقا للقواعد الأفلاطونية· وكان أوريجين أحد المفكرين الكبار فى عصره ، وكان ينظر اليه على أنه أحد أصحاب العقليات الراجحة فى ظل تاريخ الكنيسة الى حد بعيد · على أن نظام أوريجين الدينى لم يحرز انتصارا سريعا على الفكر الوثنى العـالمى ـ كما أن العديد من استنتاجاته عارضها المسيحيون الأرثوذكس فيما بعد ـ غير أنه وكذلك أعوانه فى اللاهوتيين نجحوا فى جعل المسحية ذات هدف ومعنى ، ولها جاذبية عقلية عند الرجال الذين كانوا متأثرين بالتراث الفلسفى الرومانى · وكما قال المدافعون عن المسيحية ، فان أعظم فلاسفة اليونان قد اهتدى الى الحق بالهام من اله المسيحيين ·

المسيحية والامبراطورية :

وفى الوقت الذى تأثر فيه النظام اللاهوتى المسيحى بالحضارة الهيلينية، كان الفكر الوثنى يتجه نحو الايمان بالعالم الآخر بشكل متزايد · ويجب ألا ننسى أفلاطون ، فهو أعظم الوثنيين المعاصرين لأوريجين ، وصاحب مدرسة أفلاطون الفلسفية · وفى الحقيقة كان الاثنان زملاء فى الدراسة لفترة من الوقت · كما أن نمو النظرة الفلسفية المتعالية فى كل أنحاء العالم القـديم

أوجدت جو عمل على تأييد دين يحقق الاخلاص مثل الديانة المسيحية - وأصبحت وجهة نظر المسيحية أمرا مرغوبا فيه مع مرور الوقت أكثر فأكثر ، لأنها حظيت بالاعجاب فى عصر كان تواقا الى تعاليم عميقة ومعزية لتحقيق الخلاص الشخصى من الخطيئة • ومع ذلك فقد تدعم انتصار المسيحية ، على أية حال لأنها واجهت ديانات أخرى تحقق الخلاص ، مثل ديانة مثيرا ، وعبادة ايزيس ، وكذلك التراث اليونانى ـ الرومانى للوثنية فى مظهرها الجديد الذى آمن بالحياة الأخرى ، وفقا للفلسفة الأفلاطونية الجديدة • وفى مواجهة هذه الديانات المنافسة استطاعت المسيحية أن تقدم شخصية عيسى الشهيرة فى شكل يبعث على الاعجاب ، وكذلك التفكير العميق المتزايد للاهوتية وسلطان الله اللانهائى ، ورسالته القائمة على الرحمة وعـــالمية الخلاص ، وهى الأمور التى حفظتها ، وعبرت عنها الكتب القانونية ـ وهما كتابى العهد القديم والعهد الجديد • والقليل من المجموعات المسيحية هى التى لم تتأثر بجاذبية المسيحية • وشكل الفقراء ، والمستضعفون . والمعدمون معظم الذين اهتدوا الى المسيحية فى أيامها الباكرة ، واليهم وجه المســيح معظم رسالته • ولقد استمال اللاهوت المتأثر بالحضارة اليونانية المفكرين ، كما فتنت الأسرار الدينية للتعاليم المسيحية أصحاب الرأى والذين لديهم ميل الى الاعتقاد ، وجذبت الروعة المتزايدة والمنطقية للنظام الكهنوتى السلمى المشتغلين فى الشئون التجارية والمهنية والعامة • لأن معظم النظام الادارى لا يقل عن النظام اللاهوتى فى الكنيسة فى تعلم الكثير عن العالم اليونانى ـ الرومـــانى •

وقبل انهيار الامبراطورية الرومانية فى الغرب ، استوعبت المسيحية ونقلت الى أهدافها الدينية الكثير من التراث الرومانى فى النظام الســياسى والقانونى ، وعملت على نقل التقاليد الادارية والعرف القانونى الرومانى الى عالمى العصور الوسطى والحديثة • وتطابق القانون الكنسى مع القانون المدنى والرومانى • وأفسحت القيادة العلمانية الطريق أمام القيادة الروحية للبابا الرومانى ، الذى استغل لقب الكاهن الأعظم pontifex maximus وهو اللقب الذى كان مستعملا فى العهد الجمهورى ثم الامبراطورى ، وظل البابا محتفظا بكثير من الاحتفـــالات الرسمية فى الامبراطورية الرومانية المتأخرة ، ولما كانت سلطات حكام الأقاليم والموظفين الرسميين آخذة فى الاختفاء رويدا رويدا ، فان تقاليدهم وعاداتهم انتقلت فى بعد روحى جديد

على يد المطارنة والأساقفة ٠ وفى الواقع ، صارت الأبرشية الوحدة التقليدية لسلطة الأسقف والتى كانت فى الأصل منطقة ادارية رومانية ٠ وعلاوة على ذلك فانها كانت أبعد من ذلك ، لأن الكنيسة استمالت شعبها بشكل لم يحدث من قبل فى روما ، حيث أنها أعطت الجماهير المطحونة احساسا بالمشاركة والشمول فشلت الامبراطورية فى تقديمه ٠

ومنذ البداية كان المسيحيون بالامبراطورية شعبا مستقلا ، مقتنعون بأنهم وحدهم يمتلكون الحقيقة ٠ وأن الحقيقة سوف تنتصر وتسود فى يوم ما ، وكانوا تواقين الى كسب مؤمنين جدد الى ايمانهم ، ومتصلبين فى رفضهم كل الديانات الأخرى ، ومستعدين للتعلم من العالم الوثنى ٠ بيد انهم كانوا غير مستبعدين بصفة دائمة الى الاستسلام الى ذلك العالم الوثنى٠ كما أن جديتهم التامة فى تحقيق هدفهم ، وتماسكهم ، الذى ظهر من غير ريب الى أعدائهم على أنه تعصب ، كما أن ايمان المسيحيين بالقضاء والقدر ، ورفضهم عبادة آلهة الدولة كانت أدلة على غضبتهم على معاصريهم الوثنيين الى أبعد حد ٠ ولذلك كان المسيحيون فى أغلب الأحوال أهدافا لأثارة الشك ، والكراهية والاضطهاد ٠ وانتهج الأباطرة أنفسهم تجاه المسيحيين سياسة اتسمت بالتناقض الى حد ما ٠ فحركات الاضطهاد العنيفة كتلك التى حدثت فى عهدى نيرون Neru وماركس أورليوس ، تعاقبتها فترات طويلة من التراخى ٠ وعلى العموم ازدادت الكنيسة قوة ونموا بفضل دماء شهدائها ، ولم تكن الاضطهادات قاسية الى حد الضراوة أو طويلة المدى الى حد الاقتراب من ابادة الجماعة المسيحية ٠ وربما علم الأباطرة الوثنيون أعضاء محاكم التفتيش المسيحية فى القرن السادس عشر فيما يتعلق بعمليات التصفية الجسدية التى مارسوها ضد الأقليات الدينية المثيرة للازعاج فى أسبانيا ٠

على أن معظم الأباطرة ، اذا ماقاموا باضطهاد المسيحيين فانهم كانوا يفعلونه على مضض ٠ فالامبراطور تراجان امبراطور القرن الثانى الميلادى العظيم أصدر أمرا الى أحد حكام الأقاليم بألا يجد فى طلب المسيحيين أو يلتفت الى الاتهامات المجهولة ٠ وذلك الاجراء الذى لاحظه تراجان ، كان متناقضا مع روح العصر ٠ وكان عقاب المسيحى فى عهد تراجان قاصرا على من وجه اليه الاتهام ، ثم عوقب ، وأدين باصراره على رفض عبادة الهة الامبراطورية ٠ وللمرء أن يعجب بالمسيحى الذى واجه الموت على ألا يعبد

ألهة مزيفين • غير أن للمرء أن يشعر بالتعاطف أيضا مع امبراطور كتراجان الذى تردد فى تطبيق السياسة الدينية التقليدية بشأن التسامح مع شعب أظهر تصميمه على تخـريب الـولاء للامبراطورية عن طريق نشـاطاتهم اللارومانية والتى كانت واضحة تماما للعيان •

على أن أشد اضطهاد قامت به الامبراطورية - والأخير - حـدث فى بداية القرن الرابع الميلادى فى عهـد الامبراطور دقلديانوس - ومنذ ذلك التاريخ كانت المسيحية اقوى من أن تهتز ، كما أن فشل حركة الاضطهاد التى مارسها دقلديانوس لابد وأنها برهنت على أن الامبراطورية ليس أمامها خيار سوى أن تكيف نفسها مع الكنيسة • وبعد حدوث حركة الاضطهاد الأخيرة هذه ، أخذ قسطنطين ، أول امبراطور مسيحى على عاتقه تنفيذ سياسة دينية متغايرة ومفعمة بالحركة • ومنذ ذلك الحين فصاعدا ، اعترفت الامبراطورية بالمسيحية بدلا من محاربتها ، وبنهاية القرن الرابع الميلادى تم اجبار غالبية سكان الامبراطورية على اعتناق المسيحية •

٣ ـ الامبراطورية الرومانية المتأخرة :

القرن الثالث الميلادى :

ان القرن الثالث الميـــلادى المتميز بالاضطراب ، وهو عصر أوريجين وأفلاطون ، اتى بتغيرات مفجعة للامبراطورية الرومانية · فعصر أباطرة القرن الثانى العظام (٩٦ ــ ١٨٠ م) أعقبه مائة عام من الاضطراب حلت خلالها الفوضى الســـياسية والاجتماعية محل الحكم العسكرى المطلق · فالجيش فى ذلك الحين ، الذى كان مدركا لقوته ، قام بتعيين وعزل الأباطرة · وحـــاربت احدى الفرق العســـكرية غيرها من أجل الســيطرة على اللقب الامبراطورى ــ وأصبح فى امكان المرء أن يكون قائدا فى يوم ما ، وامبراطورا فى اليوم الذى يليه ، وفى تعداد الموتى فى اليوم الثالث · فما لا يقل عن تسعة عشر امبراطورا حكموا خـــلال النصف قرن الذى اتصف بالكوارث المفجعة . فيما بين ٢٣٥ و ٢٨٥ م ، هذا اذا أغفلنا ذكر المغتصبين للعرش الذين لا عدد أو حصر لهم ، وكذلك الذين زعموا بأحقيتهم للعرش ، حيث ساهم فى حدوث مؤامراتهم ومكائدهم انصراف قادة الجيش الى ايجاد حالة من الخلل والاضطرابات · ففى فترة الخمسين عام هذه مات كل الأباطرة ميتة غير طبيعية باستثناء واحد فحسب ، وكانت النهاية لهؤلاء الأباطرة اما عن طريق الاغتيال ، أو الموت فى المعركة · وهكذا أفسح العصر الفضى الطريق الى عصر وصفه أحد المراقبين بعصر « الحديد والصدأ » ·

ونتج عن حالة الفوضى والاضطراب فى القرن الثالث أن تم التخلى عن « مبدأ التبنى » الذى كان قد تم استغلاله على أروع حالة فى الفترة السابقة على ذلك القرن · فلقد اعتاد أباطرة القرن الثانى اختيار خلفائهم من بين الشباب الذين تميزوا بالموهبة والاخلاص فى شئون السياسة بالامبراطورية ، بيد أنه فى القرن الثالث الميلادى ، كانت الخلافة على عرش الامبراطورية فى غالب الأحوال تتحدد وفقا لأهواء الفرق العسكرية · وربما كان أنجح أباطرة تلك الفترة الامبراطور سبتميوس ساويرس Septimius Severus (١٩٣ ــ ٢١١ م) ، الذى حافظ على سلطته عن طريق تقوية الجيش واشباع رغباته بشكل أقرب الى التدليل ، كما فتح باب الترقى لأعلى مناصب الجيش

لكل الطبقات ، وفتح باب التطوع فى الجندية على مصراعيه . وفى ذلك الحين كان العمل فى الجيش السبيل المنطقى الى الوظائف المدنية العليا ، وبدأت البيروقراطية تلعب دورا متزايدا وفقـا لوجهة النظر العسكرية . وأصبحت المثل العليا القديمة للجمهورية والمواطن الأول Principate غير ذات معنى رويدا رويدا عند الطبقة الحاكمة الجديدة ، وهم الذين كانوا من قبل من حثالة المجتمع ، وارتفعوا على طريق أعمالهم الناجحة فى الجيش حتى وصلوا الى أعلا المراكز ذات المسئولية السياسية العليا . وكان هؤلاء الرجال الجدد العاملون فى ادارة الدولة من الرجال الأقوياء والمهرة فى غالب الأحوال ، بيد أنهم لم يكونوا من النوع الذى يمكن أن نتوقع منهم التعلق بالتراث السياسى الرومانى القديم . وعمل الامبراطور سبتميوس ساويرس على تحسين عملية تحصيل الضرائب للامبراطورية بهـدف زيادة موارد خزانته ، والتمكن من استرضاء القوات . وانتعشت أحوال الجند المالية على حساب السكان المدنيين المطحونين بشكل متزايد ، وذلك لأن الامبراطورية أخذت فى التحول تجاه الحكم العسكرى المستبد بشكل مطرد . ومن أقوال سبتميوس المأثورة لأبنـائه والتى عبرت عن صفة مميزة لعهده وأيامه : « أجزلوا العطاء للجند ولا تقيموا وزنا لباقى البشر » .

غير أن اضطرابات روما فى القرن الثالث لا يمكن أن تنسب كلية الى مشكلة الخلافة على عرش الامبراطورية . فمنذ أوائل عهـد الامبراطور ماركوس أورليوس ، تعرضت الامبراطورية الى هجوم وباء مدمر لمدة طويلة قاربت جيل ، كما تعرضت للاغارات الشديدة للبرابرة الجرمان الذين تدفقوا عبر الحدود الشمالية والشرقية حتى وصلوا الى ايطاليا نفسها . وكان على ماركوس أورليوس ، الامبراطور الفيلسوف ، أن يقضى الجزء الأكبر من عهده فى قيادة الحملات العسكرية ضد الغزاة ، ولم يتمكن من طردهم خـارج الامبراطورية الا بعد جهد ضخم . وفى خلال القرن الثالث الميلادى استأنف الجرمان الهجوم بضراوة متوغلين فى حدود الامبراطورية مرة بعد أخرى ، ومجبرين مدن الامبراطورية على اقامة أسوار وقائية ومهددين ، لفترة من الوقت ، بغمر الدولة بطوفان البرابرة . وصاحب الهجمات الجرمانية الهجوم الفارسى المكثف من الشرق على يد الامبراطورية الفارسية التى أعيد تكوينها فى عهد الأسرة الســاسانية التى قادها ملوك مقتدرون ، ومتفـانون فى اخلاصهم لدولتهم .

ومع ذلك كانت مشاكل روما الحقيقية داخلية · فخلال القـــرن الثالث الميلادى ، صاحب الانحلال السياسى انهيار اجتماعى واقتصادى · فالمتطلبات المالية المتزايدة بشكل مستمر للبيروقراطية التى انتشرت بشكل مفاجىء وكذلك أطماع الجيش المالية التى لا نهاية لها ، كل ذلك ألقى عبئا على سكان المدن والأقاليم على حد سواء ، لا يمكن تحمله · وبدأ المزارعون فى هجر حقولهم هربا من جامعى الضرائب الموجودين فى كل مكان . ونقص عدد سكان المدن من الطبقة الوسطى ، كما فسدت الأخلاق · فالمدينة التى كانت تحكم نفسها ، والتى كانت فى الواقع أساسا للنظام الامبراطورى ، وللحضارة اليونانية الرومانية ذاتها بدأت تعانى من صعوبات مالية خطيرة ، اذ ان كل مدينة بعد الأخرى لجأت الى الامبراطور طلبا للمساعدة المالية ، بعد أن تدهور نظام الحكم الذاتى للمدن · وظهرت هذه المشاكل نتيجـــة للطبيعـــة الطفيلية لكـــثير من المـــدن الرومـــانية ، وزيادة الضرائب فى الامبراطورية ، وكذلك نتيجة للركود الاقتصـــادى الذى ظل يخـــيم على الامبراطورية رويدا رويدا ، قبيل وفاة الامبراطور ماركوس أورليوس بفترة طويلة ، وتخلت روما عن خطتها القائمة على الاستيلاء على أراضى الغير ، حتى يتسنى لها انتهاج سياسة دفاعية قائمة على تماسك الامبراطورية · ولما توقف تدفق الغنائم من الأراضى المفتوحة ، صارت الامبراطورية كلهـــا تعتمد على مصادرها الذاتية ، ومجبرة على أن تكفى نفسها بنفسها اقتصاديا وبدأ الأمر عاديا لفترة من الوقت ، بيد أن النفقات الادارية والعسكرية تزايدت دون نمو فى الاقتصاد والصناعة · ولذلك بدأ الاقتصاد الامبراطورى يشعر بالمعاناة ، كما صار الجيش عبئا ثقيلا غير منتج ، بعد أن كان مصدرا للثروات من الأراضى المفتوحة ·

وبحلول القرن الثالث ، ان لم يكن قبله ، أخذ الاقتصاد الرومانى فى الانكماش ، فالأوبئة والمجاعات ، والشعور باليأس نتج عنهم جميعا انخفاض تدريجى فى عدد السكان · وفى الوقت نفسه عندما كانت النفقات والضرائب الامبراطورية فى ازدياد كانت القاعدة الأساسية لتحصـــيل الضريبة فى انكماش · فحل الكساد واليأس محل الرخاء الاقتصادى ، وصاحب فرار المزارعين من حقولهم هروب الطبقات الوسطى من مدنها بعد أن أرهقتها الضرائب الفـــادحة · وكانت الامبراطورية فى ذلك الحين تعج بالمتسولين وقطاع الطرق ، أما هؤلاء الذين ظلوا فى أعمالهم فقد أثقلت الضرائب

المتزايدة كاهلهم تماما · وتحمل القسم الشرقى من الامبراطورية النصيب الاكبر من المعـــاناة · ولما كانت الصناعة متمركزة بشكل دائم فى القسم الشرقى ، لذلك تدفق المال رويدا رويدا تجاه الشرق فى المناطق الانتاجية فى سوريا وآسيا الصغرى ، وما بعدهما لدفع ثمن السلع الترفية ، التى كان بعضها يرد من خـارج الامبراطورية تماما ـ من بلاد فارس ، والهند ، والصين · وباختصار عانت الامبراطورية بصفة عامة ، والقسم الغربى منها بصفة خاصة الكثير من العجز فى الميزان التجارى الذى نتج عنه نقص دائم فى رصيد روما من المعادن ·

وأجبرت الأحوال المالية الباعثة على اليأس المتزايد الأباطرة على القيام بتجارب بهدف تخفيض قيمة العملة ، وتزييف المعادن الثمينة فى عملاتهم بخلطها مع المعادن الأقل جودة · وأوجدت هذه السياسة علاجا مؤقتا فقط · بيد أنه على المدى الطويل نتج عنها ارتفاع كبير وسريع فى الأسعار ناشىء عن التضخم المالى الذى قوض أركان الاقتصاد الى أبعد مدى · ففى الفترة مابين عامى ٢٥٦ ـ ٢٨٠ م ارتفعت تكاليف المعيشة بنسبة ألف فى المائة ·

ووصلت الفوضى السياسية والاجتماعية ذروتها خلال الستينات من القرن الثالث الميلادى · ففى خلال هذه الفترة كان الاقتصاد الرومانى فى حالة انهيار من الناحية الواقعية ، فجيوش البرابرة كانت فى حالة اهتياج شديد عبر الحدود · كما أن بلاد الغال Gaul ، وبريطانيا فى الغرب ومنطقة كبيرة فى الشرق خرجت كلها من تحت سيطرة السلطة الامبراطورية واتبعت مسلكا مستقلا · وتناقص عدد السكان بمعدل سريع ، كما كانت مدن لا حصر لها فى حالة من الاضمحلال الشديد · وبدا توقف روما عن كل أنواع النشاط أمرا وشيكا · ومع ذلك ، فعند القرن الثالث ، أنقذ الامبراطورية سلسلة من الأباطرة الذين اتصفوا بالشدة ، والقوة ، والتفانى فى العمل ، وبخاصة أولئك الذين اعتلوا السلطة فى أواخر القرن الثالث الميـــلادى · وظلت الامبراطورية باقية فى الغرب لمدة قرنين آخرين ، وفى الشرق لمدة زادت على الألف عام· بيد أن آلام القرن الثالث المبرحة تركت اثما يتعذر محوه أو ازالته فى الامبراطورية التى أجريت بها محاولات لاصلاح شئونها · كما أن البناء الجديد للامبراطورية الذى أعاد النظام بعد حالة الاضطراب الكامل كان مختلفا اختلافا جذريا عن حكومة المواطن الأول : اذ انه كان نظاما أوتوقراطيا صريحا ، ومن أشد الأنواع تطرفا ·

اصلاحات دقلديانوس :

وحتى فى أوج حالةالفوضى السياسية والاجتماعية كان هناك أباطرة ناضلوا بجهود مضنية من اجل الدفاع عن الدولة الرومانية ، وبعد سنة ٢٦٨م نجح جماعة من القادة الذين تولوا منصب الامبراطور ، والمقتدرون المتصلبون فى سلوكهم ، والذى جاءوا من أقـــاليم الدانوب ، فى أن يغيروا مجرى الأحداث ، وأن يستردوا الحدود ، وأن يقضوا على جيوش الغزاة من البرابرة الجرمان والفرس ، وأن يستعيدوا الأقاليم التى انفصلت عن الامبراطورية فى بلاد الغال والشرق • وفى الوقت نفسه اتخذوا الاجراءات الكفيلة بايقاف التدهور والانهيار الاجتماعى والاقتصادى الذى جعل الامبراطورية فى حالة من الضعف والوهن : انتشرت تلك السياسات وأثمرتَ فى عهدى دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م) وقسطنطين (٣٠٦ ـ ٣٣٧ م) ، اللذان يعود اليهما الفضل ـ والمسئولية ـ فى اعادة بناء الامبراطورية وفقا لأفكار اخضاع الفرد وحقوقه كاملا لمصلحة الدولة authonarian lines ولم يعـــد الامبراطور فى ذلك الحين مجرد « المواطن الأول » princeps بيـــد أنه صار السيد والاله dominus et deus ـ ومن المناسب القول أن هذا الحكم الاستبدادى الجديد الذى حل محل « المواطن الأول » يمكن أن نطلق عليه الســـيادة Dominate .

وفى عهد الامبراطور أغسطس كان من الضرورى لكى لا يتم جرح المشاعر تجاه النظام الجمهورى العمل على اخفاء سلطة الامبراطور • وفى عهد دقلديانوس كان اللقب الامبراطورى قــد مــرت عليه فترة طويلة من الاستهانة به ، واساءة استعماله لذلك كان من الضرورى العمل على اعلاء شأن هذا اللقب • فقام دقلديانوس ومن خلفه من الأباطرة بالعمل على تنظيم هذا المنصب بكل الوسائل الممكن تخيلها أو تصورها • وأصبح الامبراطور شخصية عالية المقام ، ومنعزلة ، وليس من الممكن الاجتماع به أو التحدث اليه ، ومرتديا الثيابَ الفخمة ، وواضعا تاجا أو اكليلا من القماش مرصعا بالجواهر على رأسه • وتم ادخال نظام محكم من الطقوس فى البـــلاط الامبراطورى ، وتم اقتباس معظم هذا النظام من بلاد الفرس ، والذى اشتمل على اعادة السجود فى حضرة الامبراطور •

كانت اعظم أعمال دقلديانوس الفورية ، هى وضعه نهاية للتـــاريخ

المضطرب « لأباطرة الثكنات العسكرية » القصيرى الأجل والمغتصبين للعرش من رجال الجيش · ولكى يعمل على ترسيخ الخلافة على عرش الامبراطورية والمشاركة فى أعباء الادارة المتزايدة للامبراطورية ، أصدر دقلديانوس مرسوما بضرورة وجود اثنين من الأباطرة من ذلك الحين فصاعدا ، أحدهما فى الشرق ، والآخر فى الغرب ، على أن يعملا معا بتناسق من أجل رفاهية الامبراطورية والدفاع عنها · وحمل كل من الامبراطورين لقب أغسطس ، كما اختار كل منهما زميلا أصغر سنا ، ويحمل لقب قيصر ليشـــاركه فى الحكم وأخيرا يخلفه فى المنصب · وفى ذلك الحين تم تقسيم الامبراطورية الى اربعة أقسام ، يشرف على كل قسم منها اما أغسطس أو قيصر · ولما كان دقلديانوس على وعى تام بالأهمية المتزايدة للقسم الشرقى من الامبراطورية من القسم الربى منها ، لذلك اتخذ عاصمته فى الشرق ولم تطأ قدميه مدينة روما حتى نهاية عهده / ولذلك اذا ماحاول شخص ما اغتصـــاب عرش الامبراطورية ، من باب الافتراض فانه سوف يواجه مقاومة عنيدة من أربع شخصيات منتشرة فى أنحاء الامبراطورية بدلا من شخصية واحدة · وعلاوة على ذلك أصبحت فرص تغير السلطات العســـكرية ضعيفة بعد أن فصل دقلديانوس بين السلطتين المدنية والعسكرية بشكل دقيق · وزاد الجيش زيادة كبيرة وبخاصة بعد اشراك قوات البرابرة فى ذلك الحين ـ والذين أخذوا على عاتقهم عبء حماية الحدود ـ بيد أن الجيش أعيد تنظيمه بطريقة يستطيع الامبراطور ـ أو الامبراطوران الســـيطرة عليه بشـــكل اكثر فعالية عن ذى قبـــل ·

ان الفكرة الأساسية لطريقة حكم الامبراطور فى هذا العهد الجديد ، هى أن تحكم الدولة الشعب وأن تتولى أموره دون تحميله أية سلطة أو مسئولية · فمجلس الشيوخ الذى مارس مهمة تقديم المشورة للامبراطور ، كان فى ذلك الحين مجلسا صوريا · اذ كان الامبراطور يحكم بواسطة جهاز بيروقراطى مطيع ومتزايد الانتشار ، ويصدر المرسوم تلو المرسوم لينظم ويرتب ، ويخضع الدولة لنسق موحد وصارم · كما أمكن التغلب على العجز المالى بفرض ضريبة جديدة على الأراضى الزراعية تجمع عينا ، كما أن الهروب الواسع الانتشـــار من الأنشطة البشرية التى تؤمن وجود السلع والخدمات توقف تماما بالزام المزارعين والحرفيين ورجال الأعمال بالبقاء فى أعمالهم · وعلى وجه السرعة نشأ نظام الطبقة الحرفية المغلقة بشكل

واسع المدى ، اذ فرض القانون أن يحترف الأبناء حرف الآباء ، وأن يتحملوا الأعباء الضريبية التى كانوا يتحملونها · وأصبح المزارعون ملزمين أو مجبرين على الارتباط بالأرض ونفس الشيء بالنسبة لسكان المدن الذين يمارسون حرفا بها · أما عمال المناجم والمحاجر فكان يتم وسمهم بالنار لاحداث علامة توضح حرفتهم · وعن طريق هذه الوسائل القاسية ، تم تجنب الانهيـــار الاقتصادى بصفة مؤقتة ، بيد أن ذلك كان على حساب الشلل الاجتماعى الناتج من الخوف وفقدان الأمل · كما أن المدن التى كانت فيما مضى تتمتع بالحكم الذاتى ، صارت فى ذلك الحين ترزح تحت القبضة الحديدية للحكومة الامبراطورية والالتزامات تجاه الامبراطورية كانت تتضـــاءل بسرعة بين الطبقات الوسطى التى كانت مثقلة بالضرائب والذين كانوا فيما مضى يدعمون الدولة بالأموال بأشد الحماس · وعلى مايبدو كان العلاج بالنسبة لكثير من المدن أشد وطأة من آلام الداء ·

ان مهمة دقلديانوس كانت انقـــاذ الامبراطورية مهما كان الثمن ، وربما كان من المناسب أن اجراءات اخضاع الفرد وحقوقه اخضاعا كاملا لصلحة الدولة دون وضع الحرية الشخصية لأفراد الشعب فى الاعتبار هى وحدها السبيل الوحيدة فى مثل هذه الحالة · ولكل مشكلة اقترح دقلديانوس حلا لها ـ وفى غالب الأحوال كان حلا استبداديا وثقيل الوطأ وبرغم ذلك كان حلا · وقد أدى نظام الاصلاح الكامل للعملية الى تأخير التضخم المالى ، بيد أنه لم يوقفه تماما ، ونتيجة لذلك أصدر دقلديانوس مرسوما بتثبيت معظم السلع بقوة القانون · وبالنسبة لتزايد قوة المسيحية ، رد دقلديانوس ، بفتح صفحة من الاضطهاد بقسوة لم يسبق لها مثيل · غير أنه ثبت فى النهاية أن تحكم الدولة فى الأسعار ، وكذلك ممارسة عملية الاضطهاد لم تحققـــا أهدافهما ، بيد أن الحقيقة المجردة هى أنهما كانتا محاولتين أثبتتا الى أى مدى يمكن أن يصل اليه الامبراطور فى جهوده لحفظ ـ بالقوة ـ وحدة الدولة واستقرارها ·

ان تقسيم الامبراطورية بين أوغسطسين والقيصرين المختارين نجح فقط على نحو مرضى طالما كان دقلديانوس نفسه فى السلطة · وما أن بعدت سيطرة دقلديانوس القوية حتى عاد الصراع على السلطة الذى أعاد من جديد الحرب الأهلية · فكل فرد يريد أن يكون أغسطس ، كما لم يقتنع أحد بأن

يكون قيصرا . ويضاف الى ذلك ، أن مبدأ اختيار القياصرة ، الذى كان قد أحياه دقلديانوس والذى لم يكن له عقب ، تحداه أبناء خلفائه . وامتد عهد الفوضى والاضطراب الكامل من نهاية حكم دقلديانوس ٣٠٥ م حتى انتصار قنسطنطين على منافسيه سنة ٣١٢ م فى موقعة جسر ميلفيان Milvian Bridge قرب روما .

عهد قسطنطين (٣٠٦ ـ ٣٣٧ م) :

ان انتصار قنسطنطين فى جسر ميلفيان حدد بداية عودة الاستقرار السياسى ، واكمال اصلاحات دقلديانوس الاقتصادية والسياسية . كما أن التشريفات الخاصة بالامبراطور تطورت الى حد بعيد ، ونما مبدأ خضوع الفرد وحقوقه خضوعا كاملا لمصلحة الدولة مع عدم الأخذ فى الاعتبار بالحرية الفردية authoritarianism واستمر الأخذ بنظام الطبقات الحرفية والاجتماعية المغلقة بحكم الوراثة ، ومع ذلك ففى نواحى معينة اتخذت سياسة قنسطنطين اتجاهات جديدة تهدف الى احداث تغيرات متطرفة فى الأفكار والعادات السائدة وفى الأحوال والمؤسسات القائمة Radical new directions . فبدلا من الأخذ بمبدأ دقلديانوس بشأن التبنى والذى اخفق ، أوجد قنسطنطين حكما وراثيا فى أسرته ـ ولفترة من الوقت جعل قنسطنطين زميلا مشاركا فى السلطة الامبراطورية . بيد انه هزم الامبراطور المشارك Co-emperor . ومنذ ذلك الحين فصاعدا ظل يحكم بمفرده . ومع ذلك فان المشاركة فى الحكم للامبراطور الشرقى أو الغربى أصبح شائعا بعد وفاة قنسطنطين ، كما أن قنسطنطين نفسه ساهم فى تقسيم الامبراطورية وذلك بتشييده القسطنطينية . تلك العاصمة الشرقية الرائعة مكان بيزنطة المدينة اليونانية القديمة .

وكانت القسطنطينية روما ثانية ، اذ كان لها مجلس شيوخها ، وكنائسها الفخمة وقصورها ، ومبانيها العامة وبطريركها المسيحى ، وحتى طبقاتها الدنيا التى عاشت على صدقات الخبز العينية التى كانت تقدمها الدولة ، كما كان بها وسائل التسلية بوجود سباق لعربات الخيل فى ميدان سباق الخيل الضخم . ومن أجل تجميل قنسطنطين لمدينته الجديدة قام بنقل الكنوز الفنية من العالم اليونانى ـ الرومانى اليها بالقوة ، كما بدد موارده الضخمة على تشييدها . والقسطنطينية التى شيدها قنسطنطين سنة ٣٣٠ م ،

ظلت عاصمة الامبراطورية الشرقية لمدة تزيد على الألف عام ، منيعة بأسوارها القوية ، يحميها البحر من ثلاث جهات ، ومجددة نفسها على الدوام بفضل سيطرتها على التجارة الغنية المتدفقة بين البحر الأسود والبحر المتوسط . والواقع أن بنـــاء الامبراطورية مـــدة طويلة مدين الى موقع عاصمتهـا الاستراتيجى الممتاز .

وكذلك فان الشيء الأهم جدا من بناء القسطنطينية كان تحول قنسطنطين الى المسيحية ومصاحبة ذلك قلبه السياسة الامبراطورية من أجل مساعدة الكنيسة وعلى الرغم من أن قنسطنطين أرجأ تعميده حتى اللحظات التى وافته فيها المنية ، فانه كان قد تعهد برعاية المسيحية منذ انتصاره سنة ٣١٢ م . ومنذ ذلك الحين فصاعدا أصدر قنسطنطين سلسلة متصلة من المراسيم الموالية للمسيحيين مؤكدا على التسامح الكامل ، وأجاز قانون حق الارث بالوصية لصالح الكنيسة ، حيث تكدست الأموال بشكل ضخم عبر القرون المتتـــابعة كما وافق على مجموعة مختلفة من المزايا الأخرى . وكانت المسيحية احدى الديانات الرسمية فى الدولة (بيد أنها لم تكن الديانة الرسمية) للدولة بعد ، وان كان ذلك لم يتحقق الا قبل نهاية القرن الرابع الميلادى .

وظهرت تفسيرات عديدة عن مسألة ايمان قنسطنطين بالمسيحية . فلقد تم وصف قنسطنطين على أنه كان رجلا سياسيا لا دينيا ، مدبرا للأمور على ضوء استغلاله حيوية ونشاط وفعالية الكنيسة لصالح الدولة المتداعية . ويمكن القول أنه لم يكن هناك رجال غير متدينين فى القرن الرابع الميلادى .

الامبراطورية المسيحية :

ان اصــــلاحات دقلديانوس حققت فترة ارجاء انهيار الامبراطورية الرومانية ، كما أن ماتلا هذه الاصلاحات من تحول قنسطنطين تجاه المسيحية جعل من الممكن للكنيسة أن تنمو بسرعة تحت الحماية الودية للامبراطورية . والسنوات التى بين انتصار قنسطنطين عند جسر ميلفيان Milvian Bridge ســـــنة ٣١٢ م . والســـقوط النهائى للقســـم الغربى من الامبراطورية سنة ٤٧٦ م كانت سنوات مهمة جدا فى تطور المسيحية . فمن ناحية شهد القرن الرابع تحولا جماعيا تجاه المسيحية . وربما كان عشرة فى المائة من سكان القسم الغربى من الامبراطورية مسيحيين سنة ٣١٢ م ـ وفى القسم

الغربى ربما كان العدد يزيد على هذه النسبة كثيرا ــ بينما فى نهاية القرن الرابع كان المسيحيين يمثلون غالبية السكان · بيد أنه فى غالب الأحوال أثار انتصار المسيحية خلافا داخليا ، وشهد القــرن الرابع صراعا عنيفا بين الأرثوذكســية Orthodoxy والهـــرطقة Heresy · وهنــا ، أيضا لعب الأباطرة المسيحيون دورا حاسما ، وبفضل دعمهم القوى تم قمع أقوى هرطقات القرن الرابع ، وهى الأريوسية Arianism أخيرا فى داخل حدود الامبراطورية ·

ويؤكد الأريوسيون على أن عقيــدة التوحيد المسيحية قد أصـــابتها الشوائب نتيجة للايمان بعقيدة الثالوث الأقدس · وكان جوابهم على هذه المسألة التى اثارت التعارض فى الآراء هو أن الايمان بالله الآب على أنه هو الله الواحد بكل صدق ، وأن المسيح الابن ليس الها · ونظر المؤمنون بعقيدة الثالوث الأقدس الى ايمان الأوريوسيين على أنه مخرب لأحد أركان معتقداتهم ــ والقائلة بالمساواة والمشاركة فى الألوهية بالنسبة للآب والابن والروح القدس ــ وحاول قنسطنطين أن يعالج الخلاف الأوريوسى ــ الثالوثى بالدعوة الى عقد مجمع للأساقفة المسيحيين فى نيقية سنة ٣٢٥ م · وكان حضور الامبراطور بنفسه عاملا حاسما فى نيقية ، اذ أفضت ميوله تجــاه المؤمنين بالثالوث الأقدس الى الاقرار الاجماعى تقريبا بالعقيدة المغـــايرة للأريوسية والتى أعلنت مساواة الأقانيم الثلاثة للثالوث الأقدس وأن المسيح عيسى « من نفس جوهر الآب » ·

ومع ذلك لم يكن قنسطنطين رجلا لاهوتيا · وفى السنوات التــالية تذبذب قنسطنطين ، فأحيانا يتحيز للأوريوسيين ، وأخرى يدينهم · وكان نفس التباين هو السمة المميزة لسياسة الامبراطورية طوال الجزء الأكبر من القـــرن الرابع الميـــلادى · وأخــيرا بدد الامبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٨ ــ ٣٩٥ م) الأرثوذكسى العنيد نفوذ الأوريوسيين بادانتهم ونفيهم خارج أراضى الامبراطورية · وفى عهد ثيودوسيوس الأول وخلفائه من بعده صارت المسيحية هى الديانة الرسمية الوحيدة للامبراطورية · وفى ذلك الحين صارت الوثنية ديانة محظورة ومضطهدة ، واختفت على وجه السرعة كقوة منظمة · ·

وفى ذلك الحين سادت المسيحية الأرثوذكسية الدولة ، بيد أن انتصارها ،

الذى تحقق بفضل القوة السياسية ، لم يكن انتصـــارا كاملا وذلك لسبب واحد ، هو أن التحول الجماعى للمسيحية فى القرن الرابع اتخذ شـــكلا سطحيا ، بل أنه كان من الناحية الاسمية فحسب ، فالايمان بالمسيحية كان السبيل لتجنب القهر والاضطهاد ، كما أن المؤمنين الجدد بالمسيحية كانوا على الجملة جماعة بعيدة جدا عن مجتمعات القديسين والشهداء الباكرة • وحيث أن كثيرا من المسيحيين الغيورين والساخطين على العضوية الآمنة العادية ، والرتيبة للكنيسة بدأوا فى اللجوء الى الصحراء كنساك ، أو عاشوا فى مجتمعات ديرية •

ويضـاف الى ذلك أن البرنامج الامبراطورى بشـــأن فرض المذهب الأرثوذكسى أثبت صعوبة تنفيذه الى حد بعيد • اذ ظلت الهرطقات القديمة باقية برغم تلاشيها التدريجى • وظهرت وتزايدت أخرى جديدة بشكل نشيط وقوى فى القرن الخامس الميلادى • وظلت باقية من ذلك الحين فصاعدا بل ان الأريوسية ظلت موجودة ، ليس بين المواطنين بالامبراطورية ولكن بين البرابرة والجرمان • لأنه خلال النصف الثانى من القرن الرابع ، فى الوقت الذى كانت فيه الأريوسية ماتزال قوية فى الامبراطورية ، قد تحول عدد كبير من البرابرة الى المسيحية على المذهب الأريوسى ، ولم تكن لسياسات ثيود سيوس الأول أى تأثير عليهم البتة • وطبقا لذلك ، عندما أقام البرابرة ممالكم بشكل نهائى على أنقاض القسم الغربى من الامبراطورية ، فان الكثير من رعايا الرومان القدامى انفصلوا عن أصولهم القديمة ليس فقط من الناحية اللغوية أو العادات ، وانما من ناحية شقة الخلافات الدينية العميقة أيضا •

وأخيرا ضحت الكنيسة بالكثير من استقلالها الذى كانت تتمتع به قبل اعتراف الدولة بها ، مقابل قبولها تأييد الدولة لها ضد الوثنية والهرطقة • فالمسيحيون على عهد قنسطنطين صاروا تحت سيطرة ونفوذ الامبراطور ، الأمر الذى دفعهم الى تمجيده الى أبعد مدى وحيث أن قسطنطين لم يكن فى استطاعته ادعاء القداسة ، لذلك رفعه المؤرخون المسيحيون المعاصرون من أمثال يوسيبيوس Euse bius الى منزلة شبه مقدسة تقريبا • فكان قسطنطين الحوارى الثالث عشر بالنسبة للمؤرخ يوسيبيوس والمعاصرين لذلك الامبراطور ، وأنه كان يحكم بتفويض من الله ، وأنه فوق الكنيسة وتم توضيح مركز قنسطنطين القوى فى الشئون الكنيسية بطريقة هيمنته على

مجمع نيقية ، أما تقلب الأريوسية بين صعود نجمهـــا وافوله فى عشرات السنوات التى تلت عهده فانه اعتمد على ميول خلفائه وهواهم · وفى الشرق نتج عن هذا التمجيد للسلطة الامبراطورية المبدأ القائل بالقيصرية البابوية Caesaropopism · وهذا يعنى أن الامبراطور ـ هو السيد الحقيقى لكل من الكنيسة والدولة ، وأنه قيصر وبابا · وظلت القيصرية البابوية مكرة مسيطرة فى السياسة والدين للامبراطورية الشرقية أو البيزنطية على امتداد تاريخها الطويل · ومالت كل من الكنيسة والدولة الى الاندماج تحت السلطة المقدسة للامبراطور · وفى الحقيقة ، فان اعتنـــاق السلطة الامبراطوريةـ للمسيحية والاقرار دينيا بأنها سلطة مقدسة ، كانتا القوتين الفعالتين فى اكتساب ولاء وطاعة جماهير الشعب المسيحى لتلك السلطة · ان الولاء الدينى للامبراطور المسيحى زود الدولة الرومانية الشرقية بعنصر أســاسى للبقاء عبر القرون المتتالية · وعلى العكس من ذلك ، فان العداء الواسع الانتشار تجاه السلطة الامبراطورية الأرثوذكسية فى الأقاليم التى كانت تحت سيطرة الجماعات التى اعتنقت الهرطقة ، نتج عنه تحول أدى الى ضـــياع العديد من الأقاليم الامبراطورية البعيدة بصفة نهائية ·

ان القيصرية البابوية فى الغرب كانت أقل تأثيرا بكثير ، لأنه منذ بداية القرن الخامس كانت الامبراطورية بالغرب تتداعى بشكل واضح وجلى · وبدأ رجال الكنيسة بالغرب يدركون أن الحضارة المسيحية لم تعد مرتبطة بمصير روما بصفة نهائية · وبدأت الكنيسة الغربية تفرض استقلالها عن الدولة رويدا رويدا ، وكان نتيجة ذلك أن الكنيسة والدولة فى غرب أوربا فى العصور الوسطى لم تندمجا على الاطلاق بل ظلتا فى حـــالة من التوتر على الدوام ·

علماء لاهوت الكنيسة اللاتينية :

فى أوخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس ، وفى الوقت الذى كانت فيه عملية التنصير بالدولة الرومانية تتزايد بدرجة كبيرة جدا ، بل ربما قبل أن تفقد الامبراطورية الغربية كل حيويتها ، وقبل التطور الواسع المدى لاندماج الثقافتين اليهودية ـ والمسيحية واليونانية الرومانية الى ذروته بفضل جهود القديسين المتبحـــرين فى المعـــرفة وأصحـــاب المواهب الضخمة : أمبروز Ambrose ، وجـــيروم Jerome ، وأوغســـطين Augustine

هؤلاء الرجال يمكن اعتبارهم بدون تحيز « علماء لاهوت الكنيسة اللاتينية ، لأن كتاباتهم المتعددة المجالات ، والتى بلغت حد الوفرة سيطرت على الفكر فى العصور الوسطى • فكل من الثلاثة درس الفكر الثقافى للتراث اليونانى ـ الرومانى دراسة مستقلة ، وكل منهم كرس عمله وحياته لخدمة المسيحية ، وكل منهم كان ذات مرة رجل فكر ورجل أعمال •

كان أمبروز (حوالى ٣٤٠ ـ ٣٩٧ م) ، أسقفا لمدينة ميلان Milan العظيمة ، التى حلت محل روما كعاصمة للامبراطورية الغربية فى أواخر القرن الرابع الميلادى • وكان مشهورا بفصاحته وبراعته الادارية ، وبقوته فى الدفاع عن المعتقد الثالوثى الأرثوذكسى ضد الأريوسية ، وبالمقـــدرة والبراعة التى تمكن بها من تطويع التراث الأدبى لكل من شيشرون Cicero وفـــيرجيل Virgil وفلسفة أفلاطون لأهدافه المسيحية • وقبل كل شىء كان أمبروز أول رجل كنيسة فرض استقلال وتفوق الكنيسة على الدولة فى الشئون الدينية برغم معارضة امبراطور مسيحى عظيم • فعندما ذبح الامبراطور المقتدر ثيودوسيوس الأول الثائرون من سكان مدينة سالونيكا Thessalaica بوحشية قام أمبروز بمنعه من دخول كنيسة ميلان ، الى أن أعلن هذا الامبراطور ندمه رسميا وبشكل علنى • وكان موقف أمبروز الجرىء ، واستسلام ثيودوسيوس المذل نكسة مذهلة لمبدأ القيصرية البابوية ، وبمثابة مقدمة مثيرة لصراع طويل بين الكنيسة والدولة فى الغرب المسيحى •

وكان جيروم (حوالى ٣٤٠ ـ ٤٢٠ م) عالما مبدعا ، ولا يعرف الكلل ، ومصلحا محبا للبحث ، به مسحة من الحدة فى الشخصية • اذ قال ذات مرة لأحد معارضيه « سيدى الفاضل ، ان لديك الرغبة فى الكذب ، بيد أنه ليس لديك المقدرة على الكذب » • ولما كان من عادته التجول فى كل مكان عبر حدود الامبراطورية ، فانه شـــيد ديرا فى مدينة بيت لحـــم Bethelehem حيث جعل الرهبان التابعين له يقومون بنسخ المخطوطات ، وبذلك أوجد عادة حافظت على التراث اللاتينى فى العالم والمعرفة على امتداد العصور الوسطى ونقله للأدب الوثنى حماسه الدينى ، وحكى عن رؤيا فى منامه حيث طرده عيسى (عليه السلام) من الفردوس قائلا له ، « انك من اتباع شيشرون ، ولست بمسيحى » • بيد أنه عمل فى النهاية على التوفيق بين الثقافة الوثنية والايمان المسيحى باستخدام الأولى لصالح الأخيرة • وأعظم مآثره فى الفكر

المسيحى كان فى ميدان الترجمة المتعلقة بالكتاب المقدس والتفسيرات التى قدمها ـ وقبل كل شىء ترجمته التذكارية المهمة والعالمية للكتاب المقدس من العبرية واليونانية الى اللاتينية · ولقد استخدم الرومان الكاثوليك ترجمة جيروم ، للكتاب المقدس منذ ذلك الحين · وكانت هذه الترجمة هى الأساس لعدد لا حصر له من الترجمات الى اللغات الحديثة · (ويستخدم المتحدثون باللغة الانجليزية ترجمة دويواى Douay التى نقلها عن ترجمة جيروم) · ان انجاز جيروم كان انجازا مهما جدا للحضارة الغربية ·

وكان أوغسطين (٣٥٤ ـ ٤٣٠ م) اكثر علماء اللاهوت اللاتينى تبحرا فى المعرفة وهو الذى قضى الأربعين عاما الأخيرة من حياته أسقفا لمدينة هيبو Hippo فى شمال أفريقيا · وعلى شاكلة جيروم كان أوغسطين قد أصابه الانزعاج بسبب أخطار الثقافة الوثنية على الروح المسيحية ، وأخيرا توصل الى الكثير كما فعل جيروم ، من أن المعرفة اليونانية الرومانية يمكن أن يستفاد منها بالقدر المناسب لشرح الايمان المسيحى ، على الرغم من انه لا يصح دراستها من أجل المعرفة بها فحسب · لقد كان أوغسطين أول من وضع الخطوط الأساسية لعلم اللاهوت فى العصور الوسطى · وكذلك كان أكثر توفيقا من معاصريه فى دمج التعاليم المسيحية بالفكر اليونانى وبصفة خاصة فلسفة أفلاطون ، واتباع أفلاطون الجدد Neo platonists ويقال ان أوغسطين قام بتعميد أفلاطون · وكأحد المؤمنين بفكر أفلاطون ، أكد أوغسطين على أهمية المثل العليا على الأشياء المادية ، بيد أنه بدلا من تحديد مكان هذه المثل العليا فى السماء ، فانه جعلها فى القدرة الالهية · وأن الفكر البشرى لديه المقدرة على أن يكون متقبلا لتأثير المثل العليا بفضل النعمة الالهية « الالهام الالهى » فحسب ·

وكأسقف كان أوغسطين مشغولا باهتماماته بأبرشيته ورعايته لرعيته · ولا ترجع مآثره فى الفكر الوثنى الى تجربة هادئة لنظام لاهوتى مثـــالى فحسب ، وانما الى ردود لفعل عنده بشأن قضايا الساعة التى فرضت نفسها · وكان فكره مزيجا من عمق التفكير والبداهة ، ومن المثالية والانسانية وتحكى اعترافـــاته His Confessions رحلته الروحية عبر الطوائف الوثنية والهرطقية الى المسيحية الأرثوذكسية · متضمنا فى هذا الكتاب العظيم الأمن فى أن يهتدى الضالون ، كما كان هو أحدهم فى يوم ما ، بنعمة الله الى الايمان بأن المسيح حق وصدق ·

وكتب أوغسطين بوضوح ضد مذاهب الهراطقة المتعددة والتى هددت المسيحية الأرثوذكسية على أيامه وكتب باقتناع عن طبيعة الثالوث الأقدس ، ومشكلة الشر الذى أوجده الله فى العالم ، وعن الطبيعة الخاصة لرجال الكهنوت المسيحيين ، وعن طبيعة حرية الارادة والقضاء والقدر . وأصدر كتابه الرائع ، مدينة الله The City of God للرد على الوثنيين الذين نسبوا عمليات السلب والنهب التى تعرضت لها مدينة روما على يد البرابرة سنة ٤١٠ م الى التخلى عن عبادة الآلهة القدامى . وأجاب أوغسطين بوضع نظرية مسيحية فى التاريخ وهى التى فسرت التطور الانسانى وفقا لقواعد العلاقات الأخلاقية لا طبقا للعلاقات السياسية أو الاقتصادية . وباعتباره الفيلسوف المسيحى الأول فى التاريخ ، فقد نقل بغزارة عن عمق الرؤية التاريخية لليهود القدامى . وكما قال الأنبياء فى الأزمنة الماضية ، أكـــد أوغسطين على أن الممالك والامبراطوريات تقوى وتسقط وفقا لحكمة أو غاية الهية ، وأن هذه الغاية أو الحكمة الالهية تستظل فوق القدرة البشرية الى الأبد . ورفض أوغسطين قبول العقيدة اليهودية القائلة بالخلاص القاصر على الســـلالات القبلية لأبناء اسرائيل الاثنى عشر ووضع مكانها النظرية القائلة بالخلاص الشخصى . فالوحدات الأساسية فى التاريخ ليست القبائل أو الامبراطوريات وانما الأرواح الخالدة المستقلة والقائمة بذاتها . وأعلن أوغسطين أن خلاص الأرواح لا يعتمد على قدر ومصير روما ، وانما على نعمة الله ، فالمسيح لم يكن يعتمد على قيصر . واذا ما نظرنا الى التاريخ من وجهة النظر الأخلاقية — من وجهة نظر الأرواح — فاننا لا نرى معارك حربية أو تنافس بين الدول وانما صراعا أساسيا أبعد من ذلك بكثير بين الخير والشر الذى احتدم عبر التاريخ ، والذى مازال حتى الآن يحتدم فى كل نفس . فالجنس البشرى ينقسم الى طبقتين ، هؤلاء الذين يعيشون فى نعمة الله ، وأولئك الذين لا يعيشون فى نعمة الله . فالأول ينتمون الى مايطلق عليه أوغسطين « مدينة الله » ، والآخرين ينتمون الى « مدينة الشيطان » . ويتعامل أتباع هاتين المدينتين بشكل متعذر فى هذا العالم ، بيد انهم سيفترقون عن بعضهم البعض عند الموت ، اما بالخلاص الأبدى ، أو بالادانة الأبدية . وأعتقد أوغسطين ، وفقا لوجهة النظر هذه المتسامية انه يتعين على المسيحى أن يدرس التاريخ ، وأن الله وحده هو الذى يعلم مدى تأثير تدهور رومـا على مدينة الله . ولربما كان التأثير نافعا ومفيدا ، ولربما كان لا علاقة له البتة بالموضوع .

ان أوغسطين أحد اثنين أو ثلاثة مفكرين مبدعين فى التاريخ المسيحى . فمسيحيته المتأثرة بالآراء الأفلاطونية أثرت على علم اللاهوت فى العصور الوسطى حتى القرن الثانى عشر تأثيرا كبيرا ، وظلت باقية التأثير فى الفكر المسيحى حتى أيامنا هذه الى حد بعيد . وصار تأكيده على النفوذ السرى الخاص بالمنصب الكهنوتى ، بل وظل المرتكز لعلم اللاهوت الكاثوليكى . وتأكيده على النعمة المقدسة والقضاء والقدر . وبالرغم من أنه ضعف الى حد كبير على يد الكنيسة فى العصور الوسطى ، فانه ظهر من جديد فى القرن السادس عشر ليسيطر على التعاليم البروتستانتية الباكرة . ونظريته عن المدينتين بالرغم من أنها كانت تعرض فى غالب الأحوال فى شكل مبسط الى حد سوء فهمها والاستهانة بقدرها ، فكان لها تأثير هائل على الفكر التاريخى والسياسى الغربى طوال الألف عام التالية .

وكان كل من أسبروز وجيروم ، وأوغسطين مؤلفين ومبدعين فى وقت واحد . وهم أعظم المفكرين فى الامبراطورية الغربية ، اذ عملوا على مستوى رفيع فى الفكر لم يصل اليه الغرب المسيحى مرة ثانية لمدة سبعة قرون . ان قوة التراث الكلاسيكى الذى يشكل أساس المسيحية فى العصور الوسطى وكذلك الحضارة الغربية كل منهما مدين الى حد كبير الى هؤلاء الرجال ، والى آخرين من أمثالهم ، الذين وجدوا أنه من الممكن أن يكونوا مسيحيين وشيشرويين .

٤ ــ تدهور روما والغزوات الجرمانية :

التدهور والسقوط :

ان كارثة تدهور وسقوط روما جعل المؤرخين يقفون أمامها كثيرا بصفة دائمة ، لأنه تمخض عنها ليس فقط انهيار دولة عالمية ثابتة الأركان ولهـا فاعليتها ، ولكن أيضا زوال الحضارة اليونانية الرومانية نفسها · والواقع ان الأسباب معقدة الى أبعد مدى الى حد لا يمكن ارجاعها الى سبب واحد بشكل مرضى ــ فالمسيحية ، والمرض ، والرق ، وانهاك التربة الزراعية ، أو أى سبب آخر من الأسباب الرئيسية التى قدمها الباحثون من حين الى آخر · ويجب على المرء أن يضع فى اعتباره أن الامبراطورية سقطت فى الغرب فقط · وظلت باقية فى الشرق ، وبالرغم من وجود الحضارة ــ الرومانية هناك أيضا ، فانها تغيرت بدرجة مثيرة للانتباه · وفى العادة وصفت حضارة الامبراطورية الشرقية لا على أنها « رومانية » أو حتى « يونانية رومانية » ، وانما « بيزنطية » ، كما أن التغير فى التسمية دل على تحول جذرى فى أساليب الحياة والمعاملات · وبمعنى آخر ، فان الثقافة اليونانية الرومانية تحولت فى كل من الشرق والغرب رويدا رويدا ، بيد أن تحولها فى الغرب صاحبه تمزق وتقطيع أوصال الدولة الرومانية ، فى حين حدث التحول فى الشرق برغم الاستمرارية السياسية المفهومة ضمنيا التى سار عليها الأباطرة فى شكل سلسلة غير مفروطة العقد ·

وفى الغـــرب ، فى ذلك الحين ظهرت أمامنـــا ظاهرتان منفصلتان ومختلفتان ــ الانهيار السياسى ، والتحول الثقافى وبلغ الانهيار ذروته بخلع آخر أباطرة القسم الغربى سنة ٤٧٦ م ، بيد أن الفترة الحقيقية للأزمة كانت فى القرن الثالث الذى عمته الفوضى الشاملة فى عدة جوانب من جوانب الحياة العامة · اذ ان تحسن الأحوال فى عهدى دقلديانوس وقنسطنطين كان جزئيا فحسب وبصفة مؤقتة ، واذا كان ضياع الأمة الذى صار وشـــيكا ، أمكن تأجيله ، فان الداء ظل دون علاج · ولم تساهم جماهير الشعب فى المدن والريف فى الحضارة الرومانية عن قصد على الاطلاق ، كما أدت الفوضى السياسية والاجتماعية فى القرن الثالث الى عدم التزام الطبقات الوسطى بالقيم الروحية أيضا · وانحسرت روح المبادرة والالتزام وسط

جو من الاضطراب الاقتصادى والسياسى بل وعمل الحكم المطلق فيما بعد على كبتها . فروما فى القرن الرابع كانت دولة بوليسية دكتاتورية سلبت رعاياها حريتهم الشخصية ، وأحكمت الرقابة عليهم بشـــبكة ضخمة من المخبرين ورجال الشرطة السرية . لذلك فان انهيار دولة كهذه لا يمكن أن ننظر اليه على أنه كان كارثة كاملة اذ لابد أنه كان يبدو للكثيرين على انه نعمـــة .

وكان الغرب على الدوام أكثر فقرا وأقل تمدنا عن الشرق ، كما أن اقتصاده الذى كان فى حالة تدهور شديد نتيجة لحالة الفوضى السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى عمت القرن الثالث ، كاد أن يصاب بالشلل التام تحت وطأة أعباء السلطة الحكومية الامبراطورية والدفاع عن الحدود التى تعرضت للهجمات العنيفة . ولربما كان التصدع الذى لم يكن هناك سبيل الى مقاومته فى الاقتصاد الغربى يكمن فى عجزه عن أن يكون عوضا عن تخلى الامبراطورية عن التوسع واستبداله باجراءات التطور الداخلى المكثف . ولم يكن هناك انتاج على نطاق واسع ، أو انتاج بالجملة ، لأن الغالبية العظمى من السكان كانوا على درجة شديدة من الفقر التى لا تسمح بوجود سوق لتجارة الجملة . ولقد كان الانتاج الصناعى متخلفا ، وذلك لأن الطرق الفنية لاحراز التقدم العملى Technology كانت تتقدم ببطء شديد . وظل الاقتصاد زراعيا بصفة أساسية ، ولم تتقدم أساليب الزراعة الا قليلا جدا عبر قرون الامبراطورية . فدرجة العناية بالتربة الزراعية الرومانية كانت بدائية وغير مثمرة ، اذ لم يكن يعرفون الطواحين الهوائية . كما أن الطواحين المائية كانت نادرة . ولم يمكن استخدام الحصان كحيوان لجر الأثقال لأن عدة الفرس عند الرومان كانت تتقاطع مع قصبة الفـرس الهوائية مما يعرضه الى الاختناق تحت وطأة حمل ثقيل . ونتيجة لذلك كانت الزراعة الرومانية مبنية على الثيران الأقل مقدرة عن سواعد العبيد والأقنان.

وجلب ا لانهاك الاقتصادى الشديد عاقبتين وخيمتين مزدوجتين هما : تدهور عدد السكان والفقر المتزايد ، وفى الوقت نفسه صار العجز فى القوة البشرية شديدا ، وأدت حالة الفقر المدقع الى اصابة الطبقـــات الوسطى بالشلل . فى الوقت الذى كانت تتزايد فيه نفقات الحكومة بشكل مستمر . وزاد عدد الجيش وكذلك العاملون فى الدواوين الحكومية باستمرار حتى زاد

ماتضمنته رواتب الدولة عن جداول الضرائب فى نهاية الأمر · وكان انخفاض وتدهور الحياة فى المدن احدى نتائج تلك العمليات السابقة · وبحلول القرن الخامس الميلادى ، أصبحت المدن التى كانت تعج بالنشاط فيما مضى خاوية على عروشها ، ومفرغة من ثرواتها وغالبية سكانها · كان هناك فقط الطبقة الغنية من أصحاب الأراضى الزراعية الذين نجحوا فى تحقيق أرباح فى هذا الجو الاقتصادى فى أواخر أيام الامبراطورية بالغرب ، فهؤلاء الرجال هجروا منازلهم بالمدن ، وانسحبوا من كل شئون الحياة بالمدن ، واستقروا فى أراضيهم الزراعية حيث جمعوا ، فى الغالب ، جماعات مسلحة كبيرة ، وتحدوا محصل الضرائب · وبعد أن هجرت الطبقة الأرستقراطية المدينة فى ذلك الحين ، فانها ظلت طبقة زراعية طوال الألف عام التالية · وهكذا نشأت طبقة النبلاء فى العصور الوسطى ·

ان تدهور المدينة كان اجـــراءا مدمرا للبنية الادارية للامبراطورية الغربية · والأكثر من ذلك ، أن هذا التدهور وضع نهاية لاتجاه الحياة بالمدن نحو الثقافة اليونانية الرومانية المتعلقة بالعصــــور القديمة · ولم تستطع حضارة أثينا ، والاسكندرية ، وروما البقاء فى مجالاتها · انه بتدهور مجتمع المدينة نجد الرباط الوثيق والحاسم بين الانهيار السياسى والتحول الثقافى · ومن الناحية الواقعية ، كانت الثقافة اليونانية الرومانية قد انتهت فى بعض نواحيها قبل أن تزول الامبراطورية الغربية بصفة نهائية ، اذ لم يكن عزل آخر امبراطور سنة ٤٧٦ م سوى مجرد صورة باهتة لصفحة تاريخية كانت قد طويت منذ أمد بعيد · ومنذ ذلك الحين كانت المدن فى حالة احتضار وتراجع كل من النظرية العقلانية ووجهة النظر الانسانية كلية أمام الفلسفة المتعالية والتأمل المبهم · وصار بالجيش بل والحكومة المدنية أعداد كبيرة من البرابره لأن الأباطرة المتسمين بالقهر الناشىء عن اليأس ، والذين واجهتهم مشكلة نقص القوى البشرية المتزايدة اتجهوا شيئا فشيئا الى الشعوب الجرمانية للدفاع عن الحدود ، وحفظ النظام فى دولتهم · وفى النهاية كثر عدد البرابرة فى الجيش وتم استئجار قبائل كاملة للدفاع عن الحدود · ووصل قـــادة الجرمان العسكريون الى أعلا مناصب السلطة فى الامبراطورية الغربية · والواقع أن بقاء الدولة صار يعتمد على نجاح المدافعين من الجرمان الذين تعوزهم الحماسة ضد الغزاة من الجرمان الذين كانوا تواقين للسلب والنهب ·

وبرغم تدهور الحياة فى المدن ، وتوقف حالة التحضر ، وانتشار التأمل

المبهم أو اللاعقلانى Mytsticism . والتخلف فى أواخر أيام الامبراطورية فى الغرب ، برغم كل ذلك لم تمت الثقافة اليونانية ـ الرومانية أبدا ، وانما ظلت باقية الى حد معين · وكما شاهدنا ، كان لتلك الأحوال تأثيرها على اباء الكنيسة اللاتينية ، وبواسطتهم على الفكر فى العصور الوسطى · وكانت هذه الأوضاع هى القاعدة الأساسية لحركات الاحياء الثقافى المتكررة ، كبرت أو قلت ، عبر القرون ـ فى عصر شارلمان ، فى العصور الوسطى العالية ، فى عصر النهضة (فيما بين القرون الرابع عشر حتى السابع عشر) ، وفى عهد ازدهار المفاهيم الكلاسيكية بشكل جديد فى الأدب والفن فى القرن الثامن عشر · واذا ماكانت الدولة الرومانية قد انتهت قبل انتهاء سلسلة الأباطرة الغربيين سنة ٤٧٦ م بزمن طويل من ناحية ، فانها ظلت باقية زمنا طويلا بعد ذلك من ناحية ثانية ـ فى شكل النظام الكنسى للكنيسة الرومانية الكاثوليكية وفى الامبراطورية الرومانية المقدسة فى العصور الوسطى · وظل القانون الرومانى ملهما للتشريع الغربى ، كما بقيت اللغة اللاتينية لغـــة المتعلمين فى أوربا لمدة تزيد عن الألف عام فى حين تطورت لهجات الطبقات الاجتماعية الدنيا الى اللغات الرمانسية الايطالية والفرنسية ، والاسبانية والبرتغالية ، ولغة أبناء رومانيا · وبأشكال لا حصر لهـــا انتقل التراث الكلاسيكى الوافر للعصور القديمة الى العصور الوسطى ، وظل الأوربيون ينهلون لعـدة قـرون من الفكر اليونانى ويعيشون وفى مخيلتهم ذكرى روما بصفة مستمرة ·

الشعوب الجرمانية :

/تدين حضـــارة العصور الوسطى بالكثير الى التراث اليـــونانى ـ الرومانى ، بيد أنها نقلت أيضا عن التقـــاليد الثقافية اليهودية والمسيحية والجرمانية /· ولاحظنا اندماج الثقافة اليونانية ـ الرومانية بالمسيحية فى الامبراطورية الرومانية ، بداية بالمسيحيين الأول الذين تصدوا للدفاع عن هذا الاندماج كتابة والذى بلغ ذروته فى كتابات أمبروز وجيروم ، واغسطين· /وبحلول القرن الخامس ، كان دمج التقاليد اليونانية ـ الرومانية والمسيحية قد اكتمل بشكل جوهرى ، بيد أن عملية التكامل عن طريق دمج الثقافة الجرمانية بهما لم تبدأ الا فى القرن الخامس / وحفظت الكنيسة التقاليد اليونانية الرومانية المسيحية طوال قرون العصور الوسطى التى عمتهـــا

الاضطرابات ،/فى الوقت الذى سيطرت فيه التقاليد الجرمانية على النظم السياسية والعسكرية للدول البرابرة التى شيدوها على أشلاء الامبراطورية فى الغرب؟ وصار الغزاة الجرمان مسيحيين من الناحية الاسمية على الأقل فى الحال، بيد أنه بقيت هناك ثغرة ثقافية واسعة بين الكنيسة بتراثهـا اليونانى - الرومانى - المسيحى ،/والممالك الجرمانية بثقافتها المتجهة نحو الحرب والبدائية/واستطاعت الكنيسة فى العصور الوسطى الباكرة أن تحفظ الثقافة القديمة فى قالب مبسط ومتواضع فقط ، لأنه بمرور الوقت أتى القادة الكنسيون والعلمانيون الأرستقراطيون من بين نفس البيئة الاجتماعية رويداً رويدا • ومع ذلك ظلت عملية تحضر وتنصير الشعوب الجرمانية هى المهمة الضخمة التى قامت بها الكنيسة فى العصور الوسطى الباكرة •/وفى النهاية تحقق وجـود المركب الواحـد الذى ضم التراث الكلاسيكى المسيحى - الجرمانى ،.وظهرت الى الوجود حضارة أوربية غربية جديدة •

ويبدو أن معظم القبائل التى غزت غرب أوربا جاءت فى الأصل من المنطقة الاسكندناوية ، موطن الوندال الذين خرجوا منها مؤخرا وهاجروا رويدا رويدا الى الشرق وجنوب شرق أوربا وبدأوا يهاجمون حدود نهـر الراين والدانوب • وأنه لأمر منطوى على المخاطرة اذا ماقمنا بوضع تعميم مطلق فيما يتعلق بثقافتهم ونظمهم ، لأن العادات تختلف من قبيلة الى أخرى اختـلافا كبيرا • فالفرنجـة Franks ، والأنجلـز Angles والسكسـون Saxons على سبيل المثال كانوا شعوبا زراعية وكانت حركاتهم بطيئة ، بيد أنهم اذا ما استقروا فى مكان كان من الصعب عليهم مغادرته • ولما كان تأثرهم بالحضارة الرومانية قليلا ، لذا فانهم أتوا الى الامبراطورية على وثنيتهم • ومن ناحية أخرى ، فان القـوط الغربيين Visigoths ، والقوط الشرقيين Ostrogoths ، والوندال كانوا فى أن واحد أكثر ميلا للترحال وعدم البقاء فى مكان واحد • وقبل أن تعبر الشعوب الثلاثة حدود الامبراطورية ، تأثرت الى حد ما بالثقافة الرومانية ، كما أنها اعتنقت المسيحية الأريوسية فى القرن الرابع الميلادى •

ويوجد وصف جيد لنظم الحياة الجرمانية الباكرة فى كتاب مختصر يحمل اسم الجرمان Germania كتبه المؤرخ الرومـانى تاكيتـوس Tacitus سنة ٩٨ م • على أن هذا الأثر الأدبى غير جدير بالاعتماد

عليه بصفة كلية ، لأنه أثر أدبى منطو على درس أخلاقى كتب بقصد نقــد « انحلال وتفسخ » الرومان وذلك بمقارنتهم بطريقة غير مستحبة بالبرابرة البسطاء ، والسذج مع وصفهم بالاستقامة الخلقية ٠ ومع ذلك ، فانه بشكل مصدرا نفيسا لمعرفة نظم ، وعادات الجرمان الباكرة ٠ ومما لاشك فيه ، فاننا نقبل وصف تاكيتوس للجرمان كرجال ضخام القامة ، شعرهم أشقر ضارب الى الحمرة ، وعيونهم زرقاء ، ويعيشون فى قرى متواضعة ، غير ان مديحه لفضائلهم ، وعفتهم فهو أمر ينطوى على المبالغة بكل مافى الكلمة من معنى ٠ وعلى الجملة فيبدو أنهم كانوا مدمنين للخمر ، أفاكين ، منغمسين فى الشهوات ، كما أن نقائصهم كانت لا تقل كثيرا عن نقائص الرومان ، وفى النهاية فانهم كانوا أكثر تخلفا وفظاظة ٠ أشار أحد الرجال الرومان فى القرن الخامس الميــلادى الى مستوياتهم فيما يتعلق بالصحة الشخصية قائلا « ما أسعد الأنف التى لا تستطيع أن تشم رائحة بربرى » ٠

وعلى الرغم من أن الجرمان استخدموا الأدوات والأسلحة الحديدية ، فان نظامهم الاجتماعى والاقتصادى كان فى كثير من النواحى حافلا بذكريات المرحلة الثقافية للعصر الحجرى الحديث ٠ وكانت رعاية المحاصيل الزراعية أو قطعان الماشية وكذلك شن الحروب أنشطتهم الرئيسية ٠ وكانت الوحدة يةالاجتماعية الأساسية فى العادة هى الجماعة الأسرية أو العشيرة التى قامت بحماية مصالح اعضائها عن طريق العداء الدموى ، فعندما يقتل رجل كانت عشيرته ملزمة بالثأر له بالمسلك العدائى الدموى ـ وذلك باعلان الحــرب على القاتل وعشيرته / وفى البيئة الأخلاقية المتسمة بشدة الانفعال والعنف فى القبيلة ، لم تكن عمليات القتل سوى شيئا عاديا للغاية ، ومن ثم فلكى تحفظ القبيلة بنيتها الاجتماعية من أن تتمزق اربا ، أصبحمن المألوف أن تقيم أن تقيم القبيلة نظام الدية Wergeld ، وهو عبارة عن مبلغ من المال يدفعه القاتل الى أسرة القتيل ترضية لهم لصرفهم عن الانتقــام والثأر ٠ وأصبحت بيانات الدية مفصلة تماما ، وكذلك تفاوتت المبالغ المالية التى يتعين على القاتل دفعها وفقا للمنزلة الاجتماعية للضحية ٠ كما كانت تحدد ديات صغيرة للاصابات القليلة مثل حالات اصابة الضحية بفقد ذراعه ، أو ساقه ، أو ابهام يده ، أو أحد أصابعه ٠ ومع ذلك ، لم يكن هناك ضمان بأن الشخص القاتل أو الذى قام بعملية البتر أو التشويه للضحية سوف يقوم بدفع الدية أو أن الضحية أو عشيرته على استعداد لقبولها ٠ وعلى

الرغم من وجود نظام الدية ، فان العداء الدموى استمر لفترة طويلة فى العصور الوسطى ٠

/ كانت الروابط الأسرية بين الجرمان الباكرين قوية ، بيد أنهم تعرضوا لمنافسة الوحدات الاجتماعية الأخرى ، والجماعات المسلحة Comitatus ولم تلعب القرابة دورا فى هذا النظام لوجود نوع ما من الجماعات المحاربة المنظمة التى كانت تدين بالولاء للرئيس أو الملك / وكانت الجماعات المسلحة نوعا من الأخوة العسكرية القائمة على الشرف والاخلاص ، والشجاعة ، والاحترام المتبادل بين القائد ورجاله ٠ وفى حالة وجود حرب ، فانه كان من المتوقع ان يبرز القائد رجاله فى الشجاعة والاقدام ، واذا ماقتل القائد ، كان رجاله ملزمين أدبيا بالقتال حتى الموت حتى لو كانت قضيتهم لا أمل فيها ٠ واستمرت التأثيرات البطولية للجماعات المسلحة موجودة على امتداد العصور الوسطى الباكرة كصفة مميزة لأيديولوجية شهامة المحارب الأوربى٠

وكانت الجماعة المسلحة Comitatus والعشيرة تشكل أجـزاء لوحدة أكبر ، وهى القبيلة ، التى ارتبط أعضاؤها معا بولائهم للملك أو باعترافهم بمجموعة من القوانين المتعارف عليها ٠ وكان القانون الجرمانى متسما بالاستبداد والسذاجة اذا ماقورن بالصرح القانونى الرومانى المهيب ٠ وكانت الاجراءات الشكلية مهمة بكل مافى الكلمة من معنى ، وتحدد الادانة فى جريمة أو البراءة منها فى غالب الأحوال ، بأن يطلب من المتهم بأن يمسك بقضيب من الحديد متوهج الحرارة أو أن يغمس يده فى مرجل به ماء فى درجة الغليان ٠ ومع ذلك فان الاطار القانونى العام للأوربيين الغربيين على امتداد العصور الوسطى كان جرمانيا أكثر من رومانى ــ ولم تظهر حركة احياء القانون الرومانى الا فى القرن الثانى عشر فى الغرب حيث بدأ تأثيره يظهر للمرة الثانية ، وفى الوقت نفسه فبرغم تخلف القانون الجرمانى ، فانه رسخ فى الأذهان فكرة فريدة ومثمرة فى الفكر الغربى : وهى أن القانون لم يكن نتاجا للمشيئة الملكية ، ولكنه كان ممثلا للعادات الشعبية المعنة فى القدم ٠ ولما كان الملك لا يستطيع تغيير القانون فالسلطة الملكية حينئذ ليست سلطة مطلقة ٠ وفى العصور الوسطى الباكرة اعتاد ملوك الجرمان تدوين عادات شعوبهم ، بيد أنهم نادرا ما ادعوا حق التشريع على مسئوليتهم ٠ وخارج نطاق هذه الخلفية ظهرت هناك فى العصور الوسطى العالية المبادىء الدستورية للحكومة تحت سيادة القانون ٠

وشهدت القرون التى سبقت الغزوات المتقدم ذكرها مباشرة تطور للأسر الملكية بشكل مستمر نسبيا بين كثير من القبائل الجرمانية · وربما استطاع محارب موهوب بمساعدة جماعة مسلحة Comitatus نوعا ما ، أن يبدأ عهد أسرة حاكمة ، بيد أنه قبل مرور عدة أجيال طالب الملوك بحقهم فى ارث العرش عن أجدادهم المقدسين · وعندما يموت أحد الملوك يختار مجلس القبيلة خليفته من بين أكفأ أعضاء اسرته · وربما يكون هذا الشخص أو لا يكون اكبر الأبناء ، لأن مجلس القبيلة له سلطة كبيرة فى حـــرية الاختيار عند الانتخاب · واستمرت عادة الانتخاب فى معظم الممالك الجرمانية لفترة طويلة فى العصور الوسطى · والنتيجة الرئيسية لذلك خلال غزوات القرن الخامس الميلادى أكدت على أن قبائل البرابرة كانت تحت قيادة ملوك أو شيوخ مهرة ومحاربين مقتدرين فى الوقت الذى حكم فيه الامبراطورية فى الغرب أباطرة ضعاف وسذج ·

" اعترف المؤرخون فى القرون السابقة بعلو قدر الحقيقة القائلة بأن بعض النظم الجرمانية يبدوا أنها كانت تحتوى على الأصول الأساسية للمبادىء الدستورية والسيادة الشعبية · ولذلك قيل أن الديموقراطية لها أصولها فى غابات ألبانيا " ومع ذلك يجب أن يكون واضحا أن التبجيل المعتاد « لقانون الشعوب » أو علو المكانة السياسية لمجلس القبيلة لم يكن قاصرا على الشعوب الجرمانية ، وانما كان شائعا بين الشعوب البدائية · والشىء المدهش عن تلك النظم ليس فى وجودها بين الجرمان البرابرة ، ولكن فى استمرارها وتطورها فى القرون التى تلتها ·

غزوات البرابرة :

ظلت الشعوب الجرمانية تشكل تهديدا للامبراطورية لفترة طويلة · واذا كانوا قد هزموا جيشا رومانيا فى عهد الامبراطور أغسطس ، وتوغلوا بعمق فى أراضى الامبراطورية فى عهـــد الامبراطور ماركوس أورليوس ، وكذلك مرة ثانية فى منتصف القرن الثالث بيد أنه حتى أواخر القرن الرابع الميلادى كان الرومان قد نجحوا بصفة دائمة فى طرد الغزاة من أراضيهم · ومع ذلك ، فبداية من سنة ٣٧٠ م واجهت الامبراطورية المنهكة ضغوطا من البرابرة متجددة بأعداد ضخمة لم يسبق لها مثيل · وتحت اغراء الثراء

النسبى بالامبراطورية ، والتربة الزراعية الجيدة ، ومناخ عالم البحر المتوسط المشمس ، اتجه البرابرة الى النظر تجاه الامبراطورية على أنها شىء لا يصح احداث خراب ودمار بها ، وانما لكى ينعموا ويستمتعوا به · وتحول حنينهم الدائم منذ القدم الى اراضى الشاسعة عبر حدود الامبراطورية الرومانية فجأة الى حاجة ملحة على يد قبيلة بدوية آسيوية شرسة ، والتى اندفعت مهاجمة تجاه الغرب وهم الذين عرفوا باسم الهن · Huns وهؤلاء الفرسان الذين تميزوا بالقسوة هزموا قبائل الجرمان واحدة بعد أخرى الى ان حولوهم الى أتباع لهم · وسقط القوط الشرقيون أمام قوة الهن وأصبحوا شعبا تابعا لهم · وحاولت القبيلة الكبرى الأخرى · وقوط الغربيون أن تتجنب مصير مماثل عن طريق المطالبة بسكان يلوذون به خلف الحدود الرومانية لنهـــر الدانوب فتعاطف الامبراطور الشرقى فالنز Valens ، الذى كان أريوسيا متحمسا مع القوط الغربيين الأريوسيين · وعلى ذلك عبرت القبيلة بكاملها حدود الامبراطورية بهدوء سنة ٣٧٦ م ·

وكانت هناك مشكلة فورية تقريبا · اذ قام موظفوا الدولة المرتشـــون بالاحتيال على القوط الغربيين واساءة معاملتهم ، مما جعل هؤلاء القبليين ، الذين تميزوا بحدة الطبع ، يقابلون الأذى بمثله بالاستمرار فى الثـــورة والتمرد · وأخيرا قاد الامبراطور فالنز المعركة بنفسه ضدهم ، بيد أن ضعف مقدرة الامبراطور من هذه الناحية أدت الى ضياع جيشه وحياته فى معركة أدريـــانوبل Adrianople سنة ٣٧٨ م · كانت أدريانوبل كارثة عسكرية كاملة لم يسبق لها مثيل · وعمل ثيودوسيوس الأول المقتدر ، خليفة فالنز على تهدئة القوط الغربيين ، بيد أنه لم يستطع طردهم من أراضى الامبراطورية · وعند موت ثيودوسيوس سنة ٣٩٥ م انقسمت الامبراطورية الرومانية بين ولديه اللذين لم يكونا على مستوى المسئولية ، وكما حدث ، فان القسمين الشرقى والغربى لم يتوحدا أبدا مرة ثانية · وفى ذلك الحين قاد قائد هوى من القوط الغربيين يدعى آلاريك Alaric حملة ثانية استهدفت السلب والنهب واحداث الدمار والخراب حتى أنها هددت روما نفسها · وفى سنة ٤٠٦ م استدعت الامبراطورية الغربية اليائسة معظم قواتها من حدود نهر الراين للتصدى لتقدم الوندال وغيرهم من القبائل الأخرى عبر نهر الراين الخالى من قوات الحراسة الى بلاد الغال Gaul · وباختصار انسحبت الفرق العسكرية الرومانية من بريطانيا البعيدة ، واجتاح الجزيرة التى تركت

بلا دفاع قبائل الأنجلز Angles والسكسون Saxons ، والجوت Jutes الجرمانية · وفى سنة ٤٠٨ م تم اعداد القائد الوحيد المقتدر على يد الامبراطور الضعيف هونوريوس Honorius الذى انسحب من روما دون ان يتصدى لهم أحد سنة ٤١٠ م وسمح لهم الاريك بسلب ونهب المدينة لمدة ثلاثة أيام ·

وكان لنهب روما أثرا مدمرا على معنويات السلطة الامبراطورية بيد أنه من المنظور التاريخى ، يبدو أنها كانت مجرد حادثة فى عملية تفسيخ وانحلال الامبراطورية الغربية · وفى الحال انسحب القوط الغربيون من مدينة روما ، وتركها لامبراطورها الضعيف ، واتجهوا شمالا الى جنوب بلاد الغال ، وأسبانيا ، حيث أقاموا مملكة ظلت قائمة حتى الفتوحات الاسلامية فى القرن الثامن عشر الميلادى · وفى الوقت نفسه باقامة ممالكها التى اقتطعتها من اراضى الامبراطورية بقوة السلاح · واجتاز الوندال بلاد الغال وأسبانيا وعبرا مضيق جبل طارق الى افريقيا · وفى سنة ٤٣٠ م ، وهى السنة نفسها التى مات فيها أغسطين ، استولوا على مدينة هيبو Hippo وقامت مملكة الوندال الجديدة فى شمال أفريقيا ، متمركزة فى مدينة قرطاجنة Carthage القديمة · وعلى الفور تقريبا بدأ الوندال الذهاب الى البحر القراصنة ، حيث خربوا تجارة البحر المتوسط ، وهاجموا المدن الساحلية الواحدة بعد الأخرى ونهب مابها — وبددت قرصنة الوندال السلام الدائم منذ القدم فى البحر المتوسط ، كما سددت ضربة لتجارة غرب أوربا الآخذة فى الضعف والتناقض مما جعلها تصاب بالشلل ·

وفى منتصف القرن الخامس الميلادى تحرك الهن Huns. تجــاه الغرب تحت قيادة قائدهم أتيلا Attila المتحجر القلب الشهير بلقب ، « سوط الله » Scoure of good ولما تعرضوا للهزيمة على يد جيش رومانى ومن القوط الغربيين فى بلاد الغال سنة ٤٥١ م · لذلك عادوا فى العام التالى ، واندفعوا بقوة تجاه روما تاركين خلفهم طريقا أصابه الخراب والدمار بشكل لا يمكن تصوره أو تخيله · وترك الامبراطور الغربى مدينة روما تحت رحمة أتيلا Attila بيد أن الأسقف الرومانى ، البابا ليو الأول Leo I سافر شمالا للتفاوض مع الهن على امل اقناعهم بالانسحاب . وعلى غير المتوقع نجح البابا فى مهمته · وربما لأن الأحوال الصحية لجيش

الهن قد تأثرت بشدة بسبب مناخ ايطاليا أو ربما لأن البابا ليو المهيب كان قادرا على ادخال الرهبة فى قلب « اتيلا » المؤمن بالخرافات ، هو السبب الذى جعل الهن ينسحبون من ايطاليا · وبعد ذلك بوقت قصير مات أتيلا ، وانهارت امبراطورية الهن ، واختفوا من صفحة التـــاريخ ، ولم يأسف أحــد عليهم ·

وفى السنوات الأخيرة للامبراطورية الغربية ، والتى لم يكن ــ نطاق سلطتها يمتد خارج ايطاليا الا نادرا ، فانها سقطت تحت سيطرة المغامرات العسكرية الشديدة الوقع · والتى تنتمى للأصول الجــــرمانية · واستمر الأباطرة يحكمون لفترة من الوقت بيد أن قادتهم الجرمان كانوا أصحاب السلطة من خلف العرش · وفى سنة ٤٧٦ م لم يجد القائد البربرى أدواكر Odovacar أى صعوبة فى انهاء المهزلة بصورة أبدية حيث عزل آخــر امبراطور ، وأرسل شارات ورموز السلطة الامبراطورية الى القسطنطينية · وفرض سيادته على ايطاليا بمصادرة أجزاء كبيرة من الأراضى الزراعية لصالح قواته الجرمانية · وبعد ذلك بسنوات قلائل تخلص القوط الشرقيون من سيطرة الهن ، واتجهوا صوب ايطاليا تحت قيادة ملكهم المقتدر ثيودوريك Theodoric ، وهزموا أدواكر ، وأقام دولة قوية لنفسه ·

حكم ثيودوريك ايطاليا من سنة ٤٩٣ حتى سنة ٥٢٦ م · وأكثر من أى ملك بربرى آخر ، أعجب ثيودوريك اعجــــابا شديدا واحترم الثقــافة الرومانية ، وعاش القوط الشرقيون الأروسيون والرومان الأرثوذكس ، وعملوا معا فى انسجام الى حد كبير فى عهد مملكته · كما أصلح قنوات المياه ، وشيد المبانى الجديدة التى أثارت الاعجاب والدهشة ، وحقق قدرا من الرفاهية الى شبه الجزيرة التى عانت الى فترة طويلة من الاضطرابات · وأدى تحسن الأحوال العامة فى المجتمع الى وجود نهضة فكرية قليلة ساهمت فى انتقال الثقافة اليونانية ــ الرومانية الى العصور الوسطى · اذ قام الفيلسوف بؤيثيـــــــــوس Boethius والذى كان من كبار الموظفين فى حكومة ثيودوريك ، بانتاج مؤلفات فى الفلسفة والترجـــمات التى خدمت كأصول أساسية فى المدارس الغربية للقرون الخمسة التالية · فكتابة سلوى الفلسفة Consolution of philosophy وهو خلاصة شيقة للأفلاطونية المحدثة والرواقية platonism and stiocism لقى رواجا هائلا

على امتداد العصور الوسطى • كما كان كاسيودور.. Cassiodorus سكرتيرا خاصا لثيودريك ، وعالما له منزلته المهمة • وقضى كاسيودورس آخر أيامه رئيسا لأحد الأديرة ، وجعل رهبانه يقومون بممارسة العمل النفيس الخاص بنسخ وحفظ المؤلفات الأدبية العظيمة للعصـــور القديمة المسيحية والوثنيـــة •

وابان سنوات حكم ثيودوريك الذى عاد بالفائدة على أيطاليا فى عهد القوط الشرقيين أقام ملك بربرى شهير . كلوفس Clovis (٤٨١ ـ ٥١١ م) مملكة فرنجية Frankish kingdom فى بلاد الغال • كان كلوفس أقل تأثرا بالحياة الرومانية عن ثيودريك ، وأقل تفتحا على الثقافة الرومانية ، واشد قسوة من ثيودريك ، بيد أن مملكته برهنت على أنها أكثر الدول التى أقامها البرابرة بقاء على الاطلاق • وكان الفرنجة مزارعين مهرة ، كما كانوا محاربين شجعان ، واستطاعوا اجراء اصلاحات جوهرية فى التربة الزراعية فى بلاد الغال • وبالاضافة الى ذلك كان نظام الحكم الفرنجى يحظى بالتأييد الحماسي للكنيسة الكاثوليكية • لأن كلوفس ، الذى لم يتأثر بالأريوسية ، تحول مباشرة من الوثنية الى المسيحية الكاثوليكية • وظل على بربريته الفظة حتى آخر أيامه ، ومع ذلك اعتبرته الكنيسة قنسطنطين آخر ، ومدافع عن الأرثوذكسية وسط بحر من الأريوسية • وبمرور مئات السنين ، تم تخفيف الاسم الملكى كلوفس الى لويس "Louis" والفرنجة Franks الى الفرنســـيين "French" • كما أن الصداقة بين مملكة الفرنجة والكنيسة تحولت الى أحد العناصر الأساسية المهمة والحاسمة فى السياسة الأوربية •

أوربا سنة ٥٠٠ م :

عندما بدأ القرن الســـادس كانت الامبراطورية الغربية مجرد ذكرى فحسب • وقامت مكانها مجموعة من الدول الوريثة المتبربرة ، والتى تولدت عنها الأمم الحديثة فى غرب أوربا فى بعض النواحى • وكان ثيودريك على رأس عهد متســامح نسبيا ويتجه نحو الثقافة ، عهد أريسى ـ قوطى شرقى فى ايطاليا • وكان كلوفس الأرثوذكسى ، وان كان بربريا ، يعمل على استكمال فتح بلاد الغال • ومملكة الوندال ، التى كانت تدين بالمذهب الأريوسى ، والتى

اشتهرت بالفساد المتزايد والتعصب ، أحكمت سيطرتها على سكان شـمال افريقيا الذين تميزوا بالعناد وعدم الاستكانة • واستطاع الفرنجة طـرد القوط الغربيين الأريوسيين من جنوب بلاد الغال ، بيد أن القوط الغربيين استطاعوا السيطرة على أسبانيا لمدة قرنين بعد ذلك التاريخ • أما الأنجلز ، والساكسون ، والجوت فكانوا يقومون باقامة مجموعة صغيرة من الممالك الوثنية التىاندمجت معبعضها البعضفى يوم ما تحت اسم "Angle land" أو England

وفى الوقت الذى كانت تعمل فيه الممالك الجرمانية على تدعيم وجودها فى الغرب الرومانى ، بدأت البابوية الرومانية القيام بدور مستقل ومهم فى المجتمع الأوربى • اذ أخذ لباباليو الأول (٤٤٠ ـ ٤٦١ م) على عاتقه مسألة الدفاع عن مدينة روما ضد الهن ، وبتلك الوسيلة حقق لنفسه القيادة المعنوية على الغرب • وأعلن البابا ليو ومن خلفه أن البابوية هى السلطة العليا فى الكنيسة ، وأصروا على تفوق الكنيسة على الدولة فى الأمور الروحية ، متبعين فى ذلك ما أعلنه القديس أمبروز • وباعلان البابوية مبادئها فى تفوق الكنيسة والاستقلال الكنسى ، تكون قد مارست تحد سافر للقيصرية البابوية البيزنطية • وفى القرن الخامس ظلت هذه المبادىء لا تزيد قليلا عن مجرد كلمات ، بيد أنها تمخضت عن وجود فجوة دائمة وتزداد اتساعا بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية • وأكثر من هذا شكلت المبادىء البابوية بداية مرحلة من الصراع الطويل فى العصور الوسطى بشأن الادعاءات القائمة على التنافس بين الكنيسة والدولة • ومع ذلك ظلت البابوية القوية فى العصور الوسطى العالية بعيدة لعدة قرون ، بيد أنها ظلت تعيش على الوقفة الاستقلالية الجريئة التى قام بها البابا ليو الأول • واذا كانت الامبراطورية الغربية قد انتهت ، فان روما الخالدة ظلت تطالب بالولاء العالمى •

الجدول الكرونولوجي للامبراطورية الرومانية المتأخرة :

ـــ ١٨٠ ـ ١٩٢ م : عهد كومودوس Commodus

ـــ ٩٦ ـ ١٨٠ : عصر اباطرة القرن الثانى العظام ٠

ـــ ١٩٣ ـ ٢١١ م : عهد سبتميوس ساويرس ٠

ـــ ٢٣٥ ـ ٢٨١ م : قمة الفوضى السـياسية « اباطرة التكتلات العسـكرية » ٠

ـــ ١٨٥ ـ ٢٥٤ م : أورجين Origen

ـــ ٢٠٥ ـ ٢٧٠ م : بلوتينوس Plotinus

ـــ ٢٨٤ ـ ٣٠٥ م : عهد دقلديانوس ٠

ـــ ٣٠٦ ـ ٣٣٧ م : عهد قنسطنطين ٠

ـــ ٣٢٥ م : مجمع نيقيـة ٠

ـــ ٣٣٠ م : بناء القسطنطينية ٠

ـــ ٣٥٤ ـ ٤٣٠ م : القديس أوغسطين من هيبو ٠

ـــ ٣٧٦ م : عبور القوط الغربيين لنهر الدانوب

ـــ ٣٧٨ م : موقعة أدريانوبل Adrianople

ـــ ٣٧٨ ـ ٣٩٥ م : عهد ثيودوسيوس الأول ٠

ـــ ٣٩٥ م : التقسيم النهائى للامبراطورية الشرقية والغربية ٠

ـــ ٤١٠ م : ألارك ينهب روما ٠

ـــ ٤٣٠ م : استيلاء الوندال على هيبو .

ـــ ٤٥١ ـ ٤٥٢ م : غزو الهن لغرب أوربا ٠

ـــ ٤٤٠ ـ ٤٦١ م : فترة وجود البابا ليو الأول على الكرسى البابوى

ـــ ٤٧٦ م: أدواكر يعزل آخر أباطرة الغرب ٠

ـــ ٤٩٦ ـ ٥٢٦ م : ثيودريك القوطى الشرقى يحكم ايطاليا ٠

ـــ ٤٨١ ـ ٥١١ م : كلوفس يحكم الفرنجة ويفتح بلاد الغال

قـــراءات مقترحة

The asterisk indicates a paperback edition :

General Histories of Rome :

Max Cary, A History of Rome (2nd-ed., St., Martin's Press). The best single-volume text. M. Rostovtzeff, Rome (* Oxford Galaxy). A reprint of vol. II of Rostovtzeff's History of the Ancient World first published in 1927, a scholarly masterpiece which stresses social history and perhaps overestimates class antagonisms.

Among the several other general accounts of Roman civilization are R.H. Barrow, The Romans (* Penguin).

Michael Grand, The World of Rome (* Mentor). 133 B.C. A.D. 217.

The Mystery Religions and Christianity :

T. Cumont, The Mysteries of Mithra (* Doves), and Oriental Religions in Roman Paganism (* Doves). Two fundamental studies by a great scholar, outdated in details but still useful.

R. Bultmann, Primitive Christianity in its Contemporary, Setting (* Meridan). Readable and authoritative.

Michael Gough, the Early Christians (Praegar). A good popular account with fine illustrations.

G.R. Goodenough, The Church in the Roman Empire (* Henry Holton). A brief, lucid survey. V. Latourette, History of christianity (Harper), One of scholar histories of the christian church H.O. Iaylor, The Emergence of christian culture in the West (* Harper). An ageless study by one of the masters of medieval intellectual history.

C.N. Cochrane, Christianity and classical Culture (* Oxford Golaxy). An intellectual tour de force, sympathetic to the rise of the mystical point of view.

The Later Empire and the Germanic Invasions :

J.B. Bury, History of the Later Roman Empire (* 2 vols., Dover). The standard account; full and authoritative, by one of the distinguished historians of this century.

I. Lot, The End of the Ancient World and the Beginnings of the Middle Ages (* Narper). A masterly study which places stress on the economic factors in the decline. A valuable introduction by Glanville Douney Summasizes recent scholarship on the problem of "decline and fall".

Mortimer Chambers (Ed.), the Fall of Rome (* Holt, Rinehart, and Winston). Well-chosen exerpts from historical writings dealing with the decline of Rome provide a compact, illuminating survey of historical opinion on the subject. Solomon katz, The Decline of Rome (* Cornell).

A brief, perceptive, well-written survey. Samuel Dill, Roman Society in the last century of the Westerm Empire (* Meridian). A brillant older work.

Edward Gibbon, the Trimph of Christendom in the Roman Empire (* Harper). Chapters XV-XX from Gibbon's masterpiece, the Decline and Fall of the Roman Empire. The entire work is available in a three-volume Modern Library edition.

Sources :

B. Davenport (Ed.), The Portable Roman Reader (* Viking). One of several good anthologies now available in paperback. There are numerous available editions of the works of Cicero, Caesar, Virgil, Horace, Plutarch, Tacitus, Suetonius, and other important Roman writers, many of them in paperback, which enable the student to experience Roman civilization first hand. For early christianity the New Testament is the ideal source-Modern paper-

back editions of the four Gospels and the Acts of the Apostles are readily available. St. Augustine's confessions has been published in several paperback editions. For the city of God, see vernon J. Bourke, (Ed.), St. Augustine's city of God, (Doubleday Image). An intelligent abrigement.

Gregory of Tours, History of the Tranks, tr. O.M. Dalton (Oxford). Provides on interesting account of clovis and the early Franks in Gaul.

القسم الثانى : العصور الوسطى الباكر :
بداية تكون الحضارة الغربية

٥ ــ **بقــاء بيزنطة :**

ــ بقاء الامبراطورية الرومانية الشرقية ٠

ــ الحكومة البيزنطية ٠

ــ المسيحية البيزنطية :

ــ الثقافة البيزنطية ٠

ــ عصر جوستنيان ٠

ــ الاتجاه نحو الشرق ٠

ــ المحنة والبقاء ٠

ــ التراث البيزنطى ٠

٦ ــ **الغــرب المتبربر :**

ــ « العصور المظلمة » ٠

ــ التغير الاقتصادى والاجتماعى ٠

ــ غرب أوربا سنة ٦٠٠ م ٠

ــ فاعلية العصور المظلمة ٠

ــ الديرية المسيحية الباكرة ٠

ــ الديرية البندكتية ٠

ــ البابا جريجورى الكبير (٥٩٠ ــ ٦٠٤ م) ٠

ــ اعتناق انجلترا للمسيحية ٠

ــ الكنيسة والحضارة الغربية ٠

ــ الجدول الكرونولوجى للقرنين السادس والسابع ٠

٧ ــ **ظهور الاسلام :**

ــ الاسلام ، وبيزنطة والعالم المسيحى الغربى ٠

ــ محمد (صلى الله عليه وسلم) (حوالى ٥٧١ ــ ٦٣٢ م) ٠

ــ الاســــــلام ٠

ــ الفتوحات الأولى (٦٣٢ ــ ٦٥٥ م) ٠

ــ الحرب الأهلية (٦٥٥ ــ ٦٦١) ٠

ـ الأمويون (٦٦١ ـ ٧٥٠ م) ٠
ـ العبـــاسيون (٧٥٠ ـ ١٢٥٨ م) ٠
ـ الثقافة الاسلامية ٠

٨ ـ أوربا الكارولنجية :
ـ أوربا الجديدة ٠
ـ تكنولوجيا الزراعة ٠
ـ النهضة السياسية الفرنجية ٠
ـ الاصلاح البندكتى ٠
ـ التحالف الفرنجى البابوى ٠
ـ شـــارلمان (٧٦٨ ـ ٨١٤ م) ٠
ـ امبراطورية شارلمان ٠
ـ الثيوقراطية الكارولنجية ٠

٩ ـ الغزوات الجديدة :
ـ النهضة المتوقفة ٠
ـ الكارولنجيون المتأخرون ٠
ـ غزوات العرب والهنغار ٠
ـ الفـــايكنج ٠
ـ الفايكنج فى العالم المسيحى الغربى ٠
ـ الفايكنج فى شمال الأطلسى وشرق أوربا ٠
ـ غروب شمس عصر الفايكنج ٠

١٠ ـ بقاء أوربا بعد زوال الحصار :
ـ رد فعل الغزوات ـ انجلترا ٠
ـ تجدد الهجوم الدانمركى ٠
ـ ردود فعل الغزوات ـ النظام الاقطاعى الفرنسى ٠
ـ ردود فعل الغزوات ـ ألمانيا ٠
ـ الامبراطورية الألمانية ٠
ـ أوربا قبيل العصور الوسطى العالية ٠

٥ - - بقـــاء بيزنطة :

بقاء الامبراطورية الرومانية الشرقية :

بحلول القرن السادس الميلادى كانت الامبراطورية قد تفتت الى مجموعة من الدويلات البربرية التى ورثتها ، وان كانت الامبراطورية ظلت تسيطر على حدود شاسعة ممتدة من البلقان الى آسيا الصغرى وسوريا ، وفلسطين ، ومصر · وكثير من نفس القوى التى أضعفت الغرب وعملت على اشاعة الفوضى ، أثرت على الشرق أيضا · وعلى الرغم من ذلك انهارت السلطة الامبراطورية فى الغرب ، وظلت باقية فى الشرق · ولكن لماذا حدث هذا ؟

وذلك لسبب واحد ، هو أن الشرق ظل دائما أكثر كثافة سكانية من الغرب · وأن حضارته كانت أكثرها قدما ، وأعمق جذورا ، كما أن مدنه كانت أكبر وأكثر عددا · كما ظل الشرق قلب الامبراطورية الاقتصـــادى والصناعى ، حتى فى أيام روما العظيمة · وعندما حلت الكارثة أثبت القسم الشرقى على أنه أكثر مرونة بكثير من القسم الغربى ·

وكانت آسيا الصغرى مخزنا كبيرا للقوى البشرية للامبراطورية الشرقية ومصدرا للدخل الحكومى · وظلت آسيا الصغرى لعدة قرون المصدر الرئيسى لامداد الجيش البيزنطى بالجند ، كما أنها كانت المصدر الأساسى للضرائب الحكومية · وابان القرن الخامس الذى تميز بالغارات العنيفة والمفاجئة ، وتمكن فيه البرابرة من غزو الأقاليم الغربية · كانت آسيا الصغرى الدرع الواقى للامبراطورية · وأمدت قواتها المخلصة القوية الأباطرة الشرقيين ببديل نفيس بدلا من سياسة الاعتماد الكامل على الجيوش الجرمانية المأجورة ، والتى أضرت بالمصالح الامبراطورية ·

وحمت القسطنطينية المنيعة آسيا الصغرى من الغـــارات الجرمانية الشرسة · فهذه المدينة العظيمة ، روما الجديدة ، كانت قلب الامبراطورية الشرقية · وطالما ظلت القسطنطينية بعيدة عن كل اعتداء خلف أسوارها العظيمة المتجهة نحو البر والبحر ، فالامبراطورية باقية · وفى القرون التالية اجتاح الأعداء الامبراطورية حتى وصلوا الى أبواب القسطنطينية الا انهم

ارتدوا على أعقابهم فى كمد وخيبة أمل ٠ وفى القرن السابع صمدت القسطنطينية للحصار الفارسى الكبير ، وفى القرن الثامن ، قاومت القسطنطينية كل غزوات المسلمين التى تميزت بالضراوة البالغة ٠

لذلك ليس هناك مايدعو للدهشة أن البرابرة الجرمان فضلوا الغرب غير الحصين ٠ وخلصت حكومة الرومان الشرقية نفسها ، أكثر من مرة ، من الضغوط الجرمانية بالاقتراح على البرابرة أن يتحركوا تجاه الغرب حيث يتوقعون حظا أفضل ، وفتوحات أسهل ٠ وليس هناك أدنى شك ، فى صحة هذا الافتراض ٠

تمتعت الامبراطورية الشرقية بميزة أكثر من الامبراطورية الغربية ابان القرن الخامس العصيب بفضل ادارتها الحكومية ٠ اذ تعاقب على حكمها جماعة من الأباطرة المقتدرين الذين احتفظوا بثرواتها ، وبخزانتها العامرة ، وعملوا على تقوية استحكامات القسطنطينية ، فى الوقت الذى كانت فيه الامبراطورية الغربية فى طريقها الى الانهيار ٠ وبلاشك ساعدت القيادة الممتازة للامبراطورية الشرقية على أن تنجو من الأخطار ، بيد أن أباطرتها ماكان لهم تحقيق القليل لولا موقع عاصمتهم الاستراتيجى الرائع ، وكذلك الموارد الاقتصادية والبشرية الثابتة للأراضى التى حكموها ٠ وهكذا كان لمهد الحضارات القديمة القوة على التصدى لطوفان البرابرة الذين غيروا الغرب الذى كان أقل قدما فى التحضر ٠

الحكومة البيزنطية :

تتألف حضارة الامبراطورية البيزنطية من ثلاثة عناصر : الحكومة الرومانية ، والديانة المسيحية ، والثقافة اليونانية الرومانية ــ فاخذت الامبراطورية الشرقية عن روما نظامها القانونى ، والبيروقراطى ، والمبادىء الادارية ٠ وفى الواقع كانت الحكومة البيزنطية نتاجا مباشرا لهيمنة القرنين الثالث والرابع للميلاد ٠ فالأوتوقراطية البيزنطية لها جذورها فى تمجيد دقلديانوس لشخص الامبراطور ، كما ظهرت القيصرية البابوية البيزنطية منذ عهد امبراطورية قنسطنطين المسيحية وثيودوسيوس الأول ــ واستمرت الضرائب مرهقة طوال القرنين الثالث والرابع للميلاد ، كما بقيت الحياة فى الامبراطورية البيزنطية مرهقة وغير آمنة ٠

كان أسلوب الحياة البيزنطية العامة دفاعيا ومحافظا على كل ماهو قديم • فالدولة بالرغم من أنها كانت مستبدة ـ فانه كان يتعين العمل على الابقاء عليها مهما كلف الأمر ، وكذلك النظام البيروقراطى المتزايد والمرتبط بالتقاليد كان يمقت بشدة كل ماهو جديد • ولم يحاول أحد المخاطرة فى معارضة السياسات الجريئة للأباطرة أصحاب المقدرة على الابداع ، بالرغم من أن الدولة عانت من عهود الفوضى السياسية والحكم الذى لم يحقق كل الأمانى • وكان النظام البيروقراطى فاسدا ومخربا برغم أنه قدم للامبراطورية ثباتا ورسوخا ملحوظا •

أما الجيش فكان أكثر فاعلية عن النظـــام البيروقراطى ـ واذا كان الجيش صغيرا نسبيا الا أنه كان قوة فعالة بدرجة عالية ، ومدبا تدريبا كاملا وتحت قيادة مقتدرة فى العادة • وفى كثير من الحروب كان بقاء الامبراطورية تحت رحمة القـــدر ، فالقـــادة البيزنطيون على مثـــال الموظفين الاداريين الذين تركزت السلطة فى أيديهم قليلا ماعرضوا أنفسهم للمخاطر اذ فضلوا الحذر على الجرأة ، والمكر على العنف الشرس • وكانت الحرب فنا وعلما بالنسبة للبيزنطيين • وعلى الرغم من أن أعداءهم كانوا يفوقونهم فى العدد ، فانهم نادرا ماكانوا يهزمون البيزنطيين أو يفوقونهم براعة فى اصطناع المناورات • ومع ذلك فغالبا ما اختارت الامبراطورية التصالح مع أعدائها بدفع الاتاوات لهم بدلا من المخاطر فى الدخول فى معارك ضدهم •

المسيحية البيزنطية :

ان المسيحية أوجدت الاحساس بالتفانى لرفعة الدولة على أوسع مدى ، وهو الأمر الحيوى لبقـــائها على مر الدهـــور • فالمسيحيون الأرثوذكس بالامبراطورية ، برغم أنهم قد غرقوا فى بحر الضرائب حتى آذانهم ، وتعرضوا لعذاب الحكومة المستبدة والمتحكمة فانهم ظلوا مرتبطين بالولاء بالامبراطور المقدس وبتحمس شديد • اذ لم يكن الامبراطور مجرد ملك علمانى ، وانما نائبـــا لله Viceroy of God وأن دولته هى مملكة المسيح ، وعندما شيد قنسطنطين روما الجديدة سنة ٣٣٠ م ، كرس هذه المدينة للثالوث الأقدس Holy Trinity ومريم العذراء المقدسة Blessed Virgin Mary .
واعتبرت الابراطورية البيزنطية نفسها على امتداد تاريخها الطويل تحت رعايتهم الخاصة • واذا ما انتهت الدولة انتهت بالتبعية كنيسة المسيح وفقا

لما اعتقده البيزنطيون ٠ وحاربت جيوشهم ليس لمجرد الدفاع عن الامبراطورية ولكن فى سبيل الله العلى القدير ، ولذلك كانت كل حرب ، حرب صليبية ٠ كما عملت العقيدة المسيحية على زيادة لهيب الحماسة الوطنية ، وازدادت هذه الحماسة بشكل كبير فى بيزنطة المسيحية عما كان عليه الحال فى روما الوثنيـــــة ٠

واستمر أباطرة بيزنطة فى المحافظة على مفهوم القيصرية البابوية التى بدأت منذ عهد قنسطنطين ٠ حيث عملت الكنيسة الشرقية فى تعاون تام مع الدولة ، وغالبا ما أخذ بطيرك القسطنطينية الأوامر من الامبراطور المقدس ، بل ان قرارات المجامع العامة تطلبت موافقة الامبراطور ٠ غير أنه بالرغم من سيطرة الامبراطور على الكنيسة فانها عملت على تعظيم وتبجيل سلطاته وحققت ولاء الأرثوذكس له ، وان كانت الكنيسة قد ضاعفت من مشاكله ومسئولياته أيضا ، اذ صارت المنازعات الدينية من الأمور التى تحظى باهتمامات السلطة الامبراطورية ، كما كانت الهرطقة تهديدا للدولة ٠

وكما حدث ، عملت الخلافات المذهبية على تفكك الكنيسة الشرقية فى القرنين الخامس والسادس ٠ على أن أشهر هرطقة فى تلك الفترة كان المذهب المعروف باسم المونوفيزيتية Monophysitism الذى ظهر فى مصر ، وانتشر فى سوريا وفلسطين ، وأوجد فى تلك الأقاليم شعورا من العداء المستحكم تجاه الأباطرة الأرثوذكس الذين تراوحت سياساتهم بين محاولات الاستمالة التى لم تثمر عن شىء ، وبين الاضطهاد ٠

واهتم المونوفيزيتيون بطبيعة المسيح قبل كل شىء ٠ وكان قد تقرر من قبل أن المسيح انسان كامل واله كامل ، بيد أن المشكلة ظلت باقية ، ماهى العلاقة بين انسانية المسيح وألوهيته ؟ هل كان المسيح شخصين فى الحقيقة ؟ أم كان شخصـــا واحدا بطبيعة واحدة حيث امتزجت الطبيعتان البشرية واللاهوتية ٠ ولكل من هاتين الوجهتين أتباع ومؤيدين بين المسيحيين فى القرنين الخامس والسادس ٠ وتمسك المذهب الأرثوذكس بوجهـــة النظر الوسط ـ وهى أن المســيح شخص واحـــد فى طبيعتين ـ بينما تمسك المونوفيزيقيون بشدة بالمذهب القائل بمسيح موحد بطبيعة واحدة ممتزجة ومال المونوفيزيتيون الى أن لاهوت المسيح فاق ناسوته ٠ وتم تفسير مذهبهم

على انه اتجاه نحو روحانية الشرق القديم ، الذى احتقر الطبيعة البشرية ، والكون المادى • وتلك المنازعات المتعلقة بالتعليل اللاهوتى لشخص المسيح ربما تبدو بعيدة خالية من المعنى بالنسبة لأسلوب التفكير فى القرن العشرين ، بيد أنها كانت مهمة الى حد كبير فى عهدهم ، وسببت مشاكل مستعصية للأباطرة الشرقيين • وكانت الوحدة الدينية أمرا أساسيا وجوهريا لبقـاء الامبراطورية ، لذلك عمل الأباطرة بحكم سيطرتهم على الكنيسة الشرقية ، على تحمل مسئولية تحقيق هذه الوحدة والابقاء عليها • فحاول العديد من الأباطرة استنباط مذهب يعمل على ارضاء جميع الأطراف ـ على سبيل المثال، أن للمسيح طبيعتين ومشيئة واحدة ـ بيد أنهم فى الحقيقة لم يتمكنـوا من ارضاء أحد •

أما الغرب ، الذى كان يأمل الأباطرة استرداده فى يوم ما ، كان أرثوذكسيا بثبات • ورفض قبول أى صيغة مذهبية يمكن أن يستشم منها مجرد اشارة طفيفة الى المونوفيزيتية • وفى سنة ٤٥١ م عقد مجمع كنسى فى خلقيدونية Chalcdon الذى كان تحت نفوذ البابا الرومانى الكبير ، ليـو الأول • وأعلن هذا المجمع بقوة وجهة نظر الأرثوذكس عن المسيح كشخص واحد فى طبيعتين • ونتيجة لذلك ، كون المونوفيزيتيون فى مصر كنيسة منفصلة لها هيئة كهنوتية منظمة فىمراتب متسلسلة Hierarchy والتى مازالت موجودة حتى يومنا هذا • وطوال السنين التى تلت ذلك التاريخ حاول الأباطرة استعادة المونوفيزيتيين ، تارة بمحاولات ايجاد حل وسط وأخرى بالاضطهاد • غير أن المونوفيزيتية ظلت نواة Nucleus معـادية للسلطة الامبراطورية ـ اذ صارت غاية عملت على تجميع وحشد الحركة الانفصـالية القومية • وعندما اجتـاحت الجيوش الاسـلامية اراضى الامبراطورية، ، فى القرن السابع الميلادى ، رحب بهم المونوفيزيتيون فى سوريا وفى مصر ، لأنهم فضلوا التسامح النسبى عند الحكام العرب على المسيحية الأرثوذكسية ذات الطابع القهرى الذى مارسه الأباطرة • ولم تتمكن الامبراطورية من تسوية هذه المسألة المذهبية بصفة نهائية الا بعد أن فقد . الى الأبد ، تلك الأقاليم الغنية والمملوءة بالمتاعب والمشكلات •

الثقافة البيزنطية :

أخذت الامبراطورية الشرقية المبادىء القانونية والحكومية ، وعلم اللاهوت

عن المسيحية الهللينية لامبراطورية القرن الرابع ، واخذت عن بلاد اليونان لغتهم وفلسفتهم والهامهم الأدبى • وطوال عهد البيزنطيين ، ظلوا يحافظون ويتمسكون بتراثهم اليونانى ، بيد أن حضارتهم الهللينية تطورت الى حد كبير وفقا للمسيحية والمؤثرات الشرقية ، وبصفة خاصة فى ميدان الفن ، حيث حققوا اندماجا رائعا للأنماط الهللينية والشرقية القريبة • فالمفاهيم التقليدية للعصور القديمة اليونانية والرومانية ـ كالمبانى الضخمة المستقيمة المتناسبة بشكل رائع ، والتماثيل الواقعية القوية ـ كلها تعرضت للتطوير العميق وفقا للتحول الدينى فى القرنين الثالث والرابع للميلاد • وطوال عهد الامبراطورية الرومانية فى القرن الرابع ، كان أسلوب الحياة الجديد المبنى على الايمان بالآخرة باعثا على ظهور قيم فنية جديدة عملت على عدم الاهتمام بالأمور الدنيوية والمادية والتركيز على الرموز الدينية والتمجيد الدينى بدلا منها • وكان القديس هو بطل العصر الجديد ، وركزت الصورة الفنية للبشر على قداستهم أكثر من خلوهم من العيوب الفسيولوجية • وكان الفن المسيحى الجديد يعبر عن الملابس الكثيفة ، والبنية النحيلة ، والوجه الوقور ، والهزيل، والعينين الغائرتين • وسواء صارت البراعات الفنية للرسم المتطورة وفقا للتراث اليونانى ـ الرومانى فى حكم المهمل أو الذى تم تجاهله ، فان الفنانين المسيحيين استخدموا عوضا عنه الألوان المتألقة والتى تفيض بالحيوية لنقل احساس بالبهاء الفائق المماثل لجمال الفردوس •

وكان هذا الفن الجديد ، بكل روعته الشرقية وعظمته الدينية من الناحية الكلاسيكية متناسبا مع الروح البيزنطية ، وظل يهيمن على الامبراطورية الشرقية بقية تاريخها • وزينت الكنائس ذات القباب الفخمة مدن الامبراطورية وتوهجت من الداخل بزخارف الفسيفساء الزاهية الألوان والمثبتة على خلفيات من الذهب • وجاهد الفنان البيزنطى ألا يصور الطبيعة وانما مافوقها ، وحتى يومنا هذا ، فالزائر الذى يخطو الى داخل احدى الكنائس البيزنطية العظيمة ـ أيا صوفيا Sancta Sophia فى القسطنطينية ، وسان مارك St. Mark فى فينيسا Venice ـ ينتابه شعور مفاجىء أنه خطا الى مابعد هذا العالم كلية ، الى عالم آخر • وباختصار ، كان الفن البيزنطى ناجحا فى تحقيق أهدافه بنفس القدر الذى حققه الفن المتنوع فى أثينا البيريكلسية Peridean Athens أو روما الأوغسطية •

عصر جوستنيان :

استعملنا فى الصفحات السابقة تعبيرى « بيزنطى » ، و « الشرقى الرومانى » بشكل متبادل تقريبا · وربما يكون هناك سؤال عن التوقيت الذى توقف فيه استعمال « الشرق الرومانى » وأصبح « البيزنطى » · وكما رأينا فمن المستحيل الاجابة على هذا السؤال ، طالما أن العناصر الأساسية للحضارة البيزنطية تطورت رويدا رويدا بعد انتهاء هيمنة القرن الرابع الميلادى · وبصفة عامة ، فان تحول الامبراطورية الشرقية الى « الصبغة البيزنطية » Byzantinization تمخض عنه تحول بطئ ، بيد أنه مستمر من وجهة النظر الغربية الى الشرقية ، ومن اللاتينية الى اليونانية ، والتراث التقليدى الى الشرقى ومع ذلك أصبح الفن شرقيا منذ البداية وان ظل محتفظا بالعناصر الكلاسيكية Classicism اليونانية الرومانية حتى النهاية· ولم ينس البيزنطيون أبدا تراثهم اليونانى الرومانى ، أو أن حاكمهم كان « امبراطورا رومانيا » · بيد أنه بمرور الوقت صاروا مشغولين الى حد كبير بصراعاتهم ضد الأعداء الشرقيين : الفرس ، والمسلمين ، والقبائل الآسيوية البدوية المتعددة ونسوا لغتهم اللاتينية · وكفوا عن الاهتمام الجاد بالبابا الرومانى ، أو بأقاليمهم التى فقدوها فى الغرب · وأداروا ظهورهم الى أوربا ، واتجهوا بوجوههم الى آسيا ·

كان الامبراطور جوستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) آخر أباطرة القسطنطينية الرومان فى نواحى كثيرة · وبالرغم من أن عهده يشير الى العصر الذهبى للفن البيزنطى ، وذروة القيصرية البابوية ، فانه كان يتحدث اللغة اللاتينية ، ويهيم بحلم اعادة بناء الامبراطورية الرومانية القديمة بكل عظمتها السالفة · على أن صياغته للقانون الرومانى واسترداده للغرب كانتا مهمتيه العظيمتين·

وعنـــدما اعتلى جوستنيان عرش الامبراطورية سنة ٥٢٧ م ، كانت الامبراطورية الشرقية أقوى مما كانت عليه منذ العديد من العقود · اذ نجا أسلافه من أسوأ الغارات الجرمانية وكدسوا مبالغ مالية ضخمة فى خزانة الامبراطورية · وبات ثيودوريك فى العام السابق على اعتلاء جوستنيان للعرش وهو الحاكم المقتدر للقوط الشرقيين فى ايطاليا ، كما أن العديد من الدويلات المتبربرة فى الغرب بدا عليها أنها فقدت حماسها الباكر ، وكان

جوستنيان رجلا شديد التمسك بمعتقداته ، وغاية فى النشاط ، وسامى الفكر، وتخلى عن الطابع البيزنطى المحافظ ، وانتهج سياسة قائمة على التصميم الشديد ، والجرأة . كانت انجازات عصره مثالا للروعة والاعجاب ــ ولو أن امبراطوريته أوشكت على الافلاس لشدة الانهاك .

تلقى جوستنيان العون الصادق ، والتشجيع فى تحقيق خططه من زوجته الجميلة الذكية ــ والمنحرفة السابقة ثيودورا ــ ومن مجموعة من المساعدين المشاهير وأصحاب المواهب ، فى ميـــادين القانون ، والادارة ، والمعمار والشئون الحربية . غير أن جوستنيان نفسه كان العبقرى الأول لعصره ، والمنفذ لسياسة الامبراطورية ، دون أن يعرف التعب أو الكلل اليه سبيلا ، انه « الامبراطور الذى لا ينام » . كان جوستنيان لاهوتيا مثقفا حاول بنشاط التشبث بالتوفيق بين الأرثونكسية والمونوفيزيتية . غير أن جهوده لم تكلل بالنجاح . وسدد ضربة قاضية للوثنية التى كانت تحتضر ، باغلاق المدارس الوثنية فى أثينا ، التى كانت تعمل منذ أيام أرسطو ، وأفلاطون (*) وكان جوستنيان مولعا بالمعمار وأنفق بسخاء على تجميل القسطنطينية . وتحت اشرافه قدم أعظم المهندسين الموهوبين أروع عمل فنى لعصره فى بيزنطة ــ كنيسة أيا صوفيا (الحكمة المقدسة) ، فى مدينة القسطنطينية ، وفى داخل هذا البناء الرائع ، ذهب وفير ، وفضة وعاج ، وفسيفساء لامعة ، واحجار كريمة ، وقبة ضخمة ، كانت معجزة فنية اذ بدت وكأنها معلقة فى الهواء (*) . وكان المظهر الكلى يفوق الوصف . ويقال أن جوستنيان تعجب عند افتتاح كنيسة أيا صوفيا قائلا : « المجد لله الذى جعلنى جديرا باتمام هذا العمل ايا سليمان لقد تفوقت عليك ! » .

كان جوستنيان ، ايضا احد الشخصيات العظيمة المبدعة فى تاريخ التشريع ، وأمر بأن المجموعة الضخمة من الآراء القانونية القديمة ، وكذلك التشريعات الامبراطورية للتراث الرومانى لابد أن تجمع فى مجموعة قانون مدنى محدد بوضوح ــ وهى مجموعة القانون المدنى Corpus Juris Civils ومن ذلك الحين فصاعدا ، هيمن هذا العمل الضخم ، والذى كان نتاج جهد جماعى غير عادى ، على العمل التشريعى البيزنطى . وأكثر من ذلك كانت هذه المجموعة القانونية الأداة التى عن طريقها تم احيـــاء القانون الرومانى فى القرن الثانى عشر فى غرب أوربا من أجل قيام التنظيم

للقانون الرومانى فى القرن الثانى عشر فى غرب أوربا من أجل قيام النظم

القانونية للدول الأوربية . وعلى يدى جوستنيان أصبح القانون الرومانى أكثر منطقيا وترتيبا عن ذى قبل ، بيد أنه اتخذ طابعا مميزا لعصره أيضا الذى ساعد فى يوم من الأيام على ظهور الفاشستية بين الأمم الغربية . وكان ملوك العصور الوسطى المتأخرة وأوربا فى العصور الحديثة بين الأمم الغربية . وكان ملوك العصور الوسطى المتأخرة وأوربا فى العصور الحديثة الباكرة قادرين على تحدى فكرة الحكومة القانونية الجرمانية فى العصور الوسطى بالتحول من العادة الجرمانية المبنية على القوانين الفجة الى المبادىء الأوتوقراطية لقوانين جوستنيان العظيمة ، وان كان ذلك بشىء من التحريف لأنه فى مجموعة القانون المدنى وهى الجهد الجامع للحكمة القانونية لروما القديمة التى زانها جوستنيان بايمانه بأن القانون هو نتاج ارادة الامبراطور .

ولما كان جوستنيان يهيم باعادة أمجاد روما القديمة لذلك اتجه بكل اهتماماته لاسترداد الغرب كاجراء حتمى . فأرسل الى شمال أفريقيا جيشا صغيرا الا أنه كان مدربا تدريبا جيدا ، تحت قيادة بليزاريوس Belisarius ، قائدة المقتدر ، وأخضع حكومة الوندال الفاسدة ؛ اخضاعا كاملا بعد معركتين سريعتين . وفى سنة ٥٣٤ م احتل بليزايوس قرطاجة Carthage عاصمة الوندال . وبعد ذلك بعامين قاد قواته الى ايطاليا على أمل تحقيق نصر سهل مماثل على مملكة القوط الشرقيين . بيد أن مقاومة القوط الشرقيين كشفت عن عناد غير متوقع . الا أنه بعد نضال مرير لمدة عشرين عاما (٥٣٥ - ٥٥٥ م) ، خضع القوط خضوعا كاملا وعادت ايطاليا الى أحضان الامبراطورية - ومن سخريات القدر ، أن الخراب الناتج عن تلك « الحرب القوطية » قضت على حضارة ايطاليا القديمة من الناحية الواقعية . ان شبه الجزيرة التى كانت قد ازدهرت على عهد ثيودوريك القوطى ، تحولت الى صحراء فى ذلك الحين . أما مدينة روما فقد انخفض عدد سكانها ، وتهدمت مبانيها بعد أن تلقتها الأيدى مرة أخرى ابان الصراع الطويل . وهكذا لم ينجح جوستنيان فى استرجاع الماضى كما كان يأمل ، وانما نجح فى تدميره فحسب .

حققت قوات جوستنيان بعض النجاح على القوط الغربيين فى أسبانيا ، واحتلال شريط من الأرض على امتداد شاطىء البحر المتوسط ، بيد انها كانت عاجزة عن ردع حكومة الفرنجة الغاصبة فى بلاد الغال . وفى النهاية

نجح فى السيطرة على معظم المناطق الواقعة على ساحل البحر المتوسط ، وان كلفه ذلك ثمنا باهظا • على ان الأراضى الزراعية التى غزتها قوات جوستنيان تعرضت للجدب والبوار الى الحد الذى عجزت فيه عن الوفاء بالضرائب المرهقة اللازمة لدعم الحرب الطويلة ، وخزانة الدولة التى تم استنزافها • وكان عيب جوستنيان الأكبر فى عدم قدرته على المواءمة بين الطموحات والموارد المالية ، لذلك ترك امبراطوريته المترامية الأطراف فى غاية الانهاك • واذا ماحاولنا استعادة أحداث استرداد الغرب والتأمل فيها نجد أنها كانت خطأ فادحا • ومع ذلك فانه لمن الحماقة أن ننقد جوستنيان لمحاولته استعادة وحدة البحر المتوسط ، واسترداده روما ، اذ باعتباره امبراطورا رومانيا ووارثا لتقاليد أوغسطس ، ودقلديانوس فانه كان ملزما بأن يقوم بالمحاولة •

الاتجاه نحو الشرق :

كانت السنوات الأخيرة لعصر جوستنيان توقع الكآبة فى النفس نتيجة للانهاك الاقتصادى المتزايد الذى عانت منه الامبراطورية ، والوباء الذى اشاع الخراب ، وتزايد التعصب المقيت بين الأرثوذكس والمونوفيزيقيين • وكانت العقود التى تلت موت جوستنيان ٥٦٥ م بمثابة تحول تدريجى فى السياسة الامبراطورية لأن الامبراطورية المترنحة تخلت عن الكثير من حدودها الغربية التى فتحتها ، واستجمعت ماتبقى لها من قوة بغية التصدى للأعداء الخطرين شمالا وشرقا • وافسحت اللغة اللاتينية الطريق للغة اليونانية كلغة للادارة الامبراطورية ، وعرف الأباطرة منذ ذلك الحين بلقب باسيليوس Basilius أكثر من قيصر Caesar أو أوغسطس Augustus كما تلاشى حكم اعادة قيام الامبراطورية الغربية شيئا فشيئا • وبعد موت جوستنيان بثلاث سنوات ، هاجمت قبيلة جرمانية بدائية ، وهم اللومبارديون Lombards ايطاليا ، وأحدثت خرابا بالأراضى الرومانية المعذبة • واستمر البيزنطيون يسيطرون على جنوب ايطاليا والقليل من المدن الساحلية تجاه الشمال ، بما فيها عاصمتهم رافنا Ravenna بيد أنه فى أماكن أخرى لم تتوقف هجمات اللومبارديين • وفى مدى عقود قلائل بعد موت جوستنيان ، نجح القوط الغربيون Visigoths فى تحطيم السلطة البيزنطية فى اسبانيا ، بينما ظل شمال أفريقيا فى أيدى البيزنطيين لمدة زادت عن قرن الى أن سقط أخيرا فى أيدى الفاتحين المسلمين حوالى سنة ٦٩ م •

وفى الوقت نفسه وجه خلفاء جوستنيان المحاصرون بالأعداء من كل الاتجاهات عملية اصلاح الأحوال المالية ، والتصدى للمشاكل الشرقية ٠ فبلاد الفرس ، التى كانت هادئة نسبيا فى عصر جوستنيان ، فوضت من جديد ضغوطها الخطيرة على الحـــدود الشرقية للامبراطورية ؛ كما بدأت القبائل السلافية تتدفق صوب البلقأن منذ القرن السابع الميلادى فصاعدا ٠ وقبيلة جديدة من البدو الآسيويين ، الآفار Avars الذين راقبوا باشتهاء ثراء بيزنطة النسبى ، الا أن دفعات مالية منتظمة وباهظة نجحت فى منعهم من التقدم ٠ على أن الانشغال بالشرق ، والتخلى التدريجى عن الغرب ، واختفاء اللغة اللاتينية من البلاط الامبراطورى ، وازدياد اتجـــاه الثقافة البيزنطية نحو الشرق ، والنظرة البيزنطية كل ذلك شكل بداية عهد جديد ٠

المحنة والبقاء :

ووصل التهـــديد من الشرق ذروته فى عهـــد الامبراطور هـــرقل Heraclius المحارب المقتدر (٦١٠ ـ ٦٤١ م) ، اذ حارب هرقل باستماتة لعدة سنوات ضد الجيوش الفارسية القوية التى عقدت العـــزم على تدمير الامبراطورية ، وفى وقت واحد (٦٢٦ م) صمدت القسطنطينية أمام حصار مزدوج وعنيف قام به كل من الفرس والآفار ٠ وفى النهاية تمكن هرقل من القضاء على الجيش الفارسى ، وأجبر الفرس على عقـد معاهدة سلام مهينة ٠ ولم يكد يتم القضـــاء على الفرس ، حتى اندفع المسلمون ، الذين تحمسوا لدين محمد (صلى الله عليه وسلم) (ت ٦٣٢ م) ، تجاه فلسطين وسوريا ومصر وبذلك فصلوا تلك الأقاليم الغنية عن حكم القسطنطينية بصفة نهـــائية ٠ ومات هرقل منهكا وحزينـــا ، وأصبحت الامبراطورية البيزنطية قاصرة على آسيا الصغرى ، والبلقان ، وعدد قليل من الحدود التى كان من الصعب الدفاع عنها ، وبعيدة فى الغرب ، والتى فقدتها الامبراطورية بعد ذلك بحوالى قرنين مـ ن الزمان ٠

ظلت بيزنطة باقية بفضل موارد آسيا الصغرى المالية التى لا غنى عنها ٠ واذا كانت القسطنطينية قد تعرضت للحصـــار الاسلامى العنيف (٧١٧ ـ ٧١٨ م) ، الا أنها احتفظت بصلابتها ٠ وفى الواقع تمكن البيزنطيون من استرداد توازنهم فى القرون التالية كما مدوا نفوذهم ٠ اذ نجحوا فى تحويل السلاف والروس الى المسيحية وضموهم الى الجماعة المؤمنة بالكنيسة

الشرقية • وحاربوا العرب حتى أجبروهم على التوقف عن مهاجمتهم ، وطردوا القبائل الرحل من البلقان • وعايشوا عصورا ذهبية جديدة فى الفن والمعرفة • والواقع ، انه فى الوقت الذى سقطت فيه القسطنطينية فى أيدى الأتراك سنة ١٤٥٣ م كانت الامبراطورية تجتاز حركة احياء عظيمة للحركة الانسانية ــ الكلاسيكية التى لها أثر مهم على الثقافة فى النهضة الايطـالية •

التراث البيزنطى :

ظلت القسطنطينية على امتداد العصور الوسطى الحصن الحصين بشرق أوربا ضد المسلمين • اذ لم يحم سورها المنيع الامبراطورية الرومانية فحسب ، وانما حمى غرب أوربا من الهجمات المصحوبة بالخراب والدمار التى قام بها الغزاة الآسيويون أيضا • على أن الغرب مدين للشرق الأوربى باكثر بكثير من جنوده وأسواره • اذ خدمت الامبراطورية الشرقية غرب أوربا والعالم الغربى كحارس أمين للثقافة الكلاسيكية • فعلى سبيل المثال ، كانت كتابات الفلاسفة اليونانيين ، باستثناء القليل منها غير معروفة فى غرب أوربا فى العصور الوسطى الباكرة ، بيد انها كانت محفوظة وتدرس فى القسطنطينية • حيث قام البيزنطيون باعادة ترتيب التراث الرومانى القانونى العظيم وجعله ثابتا بشكل دائم الى ماشاء الله • وأثر الفـن البيزنطى على أعمال الرسامين فى العصور الوسطى وعصر النهضة • ونجحت البعثات التبشيرية البيزنطية فى تنصير وتحضير السلاف ، ووضعت الأسس السياسية واللاهوتية لروسيا القيصرية • والواقع أنه عندما سقطت السطنطينية سنة ١٤٥٣ م ، أصبحت موسكو Moscow روما الثالثة ، اذ استعمل حكامها الزى البيزنطى كقياصرة ، وهيمنوا على كل من الدولة الكنيسة كما فعل أسلافهم البيزنطيين • ويبدو أن حكام روسيا الحاليين ، بسيطرتهم على الدولة ونمط الايديولوجية الشـــيوعية ، فانهم ينفذون التقليد البيزنطى فيما يتعلق بالقيصرية البابوية فى صورة علمانية •

ومع ذلك فان للانجـــازات البيزنطية حدود ، اذ ظلت بيزنطة دولة خاضعة لحكومة الفرد المطلقة حتى النهاية ، كما أن عبقريتها الخلاقة توقفت عن النمو والتطور نتيجة للابقاء على ماهو قائم ، ومقاومة التجديد أو التغيير بشدة • واقتصرت حركتها الابداعية على ميدان الفن والهرطقة الى حد كبير •

وكانت معظم تاريخها الطويل مجتمعا واقعا تحت سيطرة السلطة الحكومية ، والغالبية العظمى من نشاطها كان مكرسا لخدمة بقائها لذلك كان نصيب التأمل والتفكير الاجتماعى ، أو السياسى ، أو لجراء التجارب التكنولوجية أو الاجتهادات الفلسفية الجريئة ، قليلا جدا • وأدت بيزنطة خدمة جليلة جدا فى حفظ الفكر والآداب اليونانية ــ الرومانية القديمة ، بيد أنها أضافت القليل من عندها الى ذلك التراث الرائع • وربما كان ميراث بيزنطة من التراث الكلاسيكى القديم كاملا ، وربما كان البيزنطيون فى حالة من الرهبة أمام روعة انجازات أجدادهم الى حد أنهم كانوا غير قادرين نفسيا فى أن يتفوقوا عليها أو يطوقوها اتجاهات جديدة • ووفقـــا لهذا المفهوم كان البيزنطيون أسرى لماضيهم • وظلت رفعة الثقافة فى القسطنطينية على تناقض شديد مع جهل وبربرة العصور الوسطى الباكرة فى الغرب ، الا أن الغرب ، على الرغم من بربريته له أسبقية الانطلاقة الجديدة التى لا تبارى • وتعود فترة الانحطاط الفكرى ، وعودة الحيـــاة شبه المغلقة تدريجيا فى القسطنطينية الى تحررها من الاشراف الكامل فى الماضى بصفة أساسية • على أن الروح اليونانية ــ الرومانية للعصور القديمة عملت على احياء واثراء العالم المسيحى الغربى دون أى عائق •

٦ الغرب المتبربر :

« العصور المظلمة » :

فيما بين سنة ٥٠٠ م ، ٧٠٠ م ، كانت الثقافة الرومانية فى الغرب فى حالة شديدة من الفساد ، كما أن الحضارة الجديدة لغرب أوربا كانت فى مرحلة البداية ٠ على ان أبرز الخصـــائص المميزة لأوربا فى القرنين السادس والسابع للميلاد كانت ، الجهل والهمجية ، والحيـــاة السياسية والاجتماعية القريبة الى الفوضى بسبب ضعف السلطة الحكومية ٠ وفى كثير من النواحى ، كانت أوربا فى العصور الوسطى الباكرة « مجتمعا ناميا » وفقا لوصفنا فى أيامنا هذه ٠

ويمكن ادراك المستوى الفكرى لتلك الفترة ادراكا كاملا بالنظر بايجاز الى العلماء الذين تولوا أعمال القيادة ٠ فالأسقف جريجورى من مدينة تور Gregory Of Tours (ت ٥٩٤ م) ، الذى كتب عن تاريخ الفرنجة History Of The Franks يعتبر أفضل مصادرنا عن تاريخ كلوفس Clovis وخلفائه ، وان كان قد كتب بلغة لاتينية بربرية غير ملتزمة بالقواعد النحوية ، وملأ تاريخه بالمعجزات المفرطة فى الخيال والمخالفة للعقل ٠ وكتابة يعبر عن عالم القسوة البدائية والقوة الغاشمة الملبدة تماما بغيوم السحر والخيال الخرافى ٠

وكذلك البابا جريجورى الكبير (ت ٦٠٦ م) الذى وضع جنبا الى جنب فى المكانة مع أمبروز ، وجيروم ، وأوغسطين كأحد علماء الكنيسة اللاتينية الأربعة ٠ وبالرغم من أن كتاباتهم كانت تتسم بالحكمة العملية العميقة ، وبعد النظر السيكولوجى ، فانها كان لها تأثير شعبى وفاقت لاهوت أوغسطين فى البساطة والايضاح ٠ فالمواضيع اللاهوتية التى تمسك بهـا أوغسطين ألقى عليها جريجورى بعض الظلال نتيجة لتركيزه على مواضيع أخرى مثل الملائكة والشـــياطين ، والآثار المقدسة الخاصـــة بالقديسين والشهداء ٠

وكان الأسقف أيزيدور من ســـيفيل Isidore Of Seville

(ت ٦٣٦ م) مشهورا على أنه أعظم مفكرى عصره . وكانت الأتيمولوجيا Etymologies أعظم مؤلفاته التى قصد منها أن تكون موسوعة لكل المعرفة ، بيد أن قيمتها ضعفت الى حد كبير نتيجة للعجز الملحوظ فى القدرات على النقد عند ايزيدور . وقام بحصر كل معلومة بسيطة استطاع أن يجدها ، سواء أكانت حقيقية أم غير حقيقية ، ولها قيمة علمية كبرى أم تافهة فعلى سبيل المثال كتب عن موضوع المخلوقات الخيالية مايلى :

« ان جماعة السينوفال Cynocephali يدعون بهذا الاسم لأن لهم رؤوس كلاب ، وما يخرجونه من أصوات نباح يدل على أنهم حيوانات أكثر من كونهم بشر . وهم من مواليد الهند . كما ان السيكلوبوص Cycloposes جاءوا من الهند أيضا ، وعرفوا بهذا الاسم لأن لكل عين واحدة فى وجهه ... والبلاميون Blemmyes الذين ولدوا فى ليبيا Lybia ، فيعتقد أن أبدانهم ليس لها رؤوس ، وأن أفواههم وعيونهم فى صدورهم ، والبعض الآخر ولد دون رقبة ، وأعينهم فى أكتافهم ... ويقال أن البانوتيين panotii من سايثيا Sythia لهم آذان طويلة جدا لدرجة أنها تغطى أجسادهم ... ويقال أن سلالة السكيوبيود Sciopedes يعيشون فى أثيوبيا . ولكل فرد منهم ساق واحدة ، ولهم سرعة فائقة فى الحركة ، وفى فصل الصيف يستلقون على ظهورهم فى العراء ويستظلون بأقدامهم الطويلة ، وأخيرا يقرر أيزيدور فى انطلاقة مفاجئة من الشك أن :

« ويقال ان هناك سلالات بشرية مخيفة بشكل قابل للتصديق ، غير أنها ليست موجودة ، انها مجرد عملية تخيلات » .

على أن بحث أيزيدور بشأن الأرقام فهو مفيد علميا . فرقم اثنان وعشرون رقم سرى لأن « الله عمل فى البداية اثنين وعشرين عملا » . ولذلك فهناك اثنان وعشرون سدسا Sextarii فى البوشل Bushel وعشرون حرفا أبجديا فى اللغة العبرية ، واثنان وعشرون جيلا منذ آدم حتى يعقوب ، — ومن المحتمل أن الملاحظة الحاسمة — وجود اثنين وعشرون سفرا فى العهد القديم — منذ الأستر Esther .

وانصافا لأيزيدور، فانه يجب التأكيد على أن الفقرات السابقة لا توضح مناقبه وبالاضافة الى ذلك ، فان معظم ماكتبه أيزيدور من كلام مقبول وغير مقبول ، فكله منقول من التراث القديم · غير أنه قام بتجميع وتصنيف هذه المادة العلمية وفقا لطابع السذاجة الذى كان طابعا مميزا لعصره · وتكمن أهمية أيزيدور فى أنه كان بسيطا ، وتعوزه المقدرة على النقد ، بيد أنه كان أفضل ما أنتجه عصره ·

التغير الاقتصادى والاجتماعى :

ومما يثير الاهتمام أن قادة الفكر الثـــلاثة فى العصر المظلم كانوا أساقفة ، والثلاثة كانوا من مدن : ـ تور ، وروما ، وسيرفيل · كما أن مدن الغرب كانت فى طريقها للتدهور منذ بداية القرن الثالث ، وعند بداية سنة ٦٠٠ م كانت أثرا بعد عين · أما فى شمال الألب فان المجالس المحلية الحكومية التى تمتعت بالحكم الذاتى ، والتى كانت قائمة فى العصور القديمة اختفت دون أن تترك أثرا · ومع ذلك ، نجحت كثير من المدن فى البقاء على شكل مراكز ادارية كنسية · وظلت هذه المدن مراكز رئيسية مهمة للأساقفة ومكانا أساسيا للكنائس الأسقفية · وفى غالب الأحوال احتوت تلك الكاتدرائيات على رفات وآثار القديسين المهمين ، وبتلك الوسيلة صارت مراكزا للزيارات المقدسة · فعلى سبيل المثال احتوت مدينة تور Tours رفات القديس مارتين St. Martin ذلك العامل الشهير الذى وردت معجزاته فى كتاب تاريخ الفرنجة للأسقف جريجورى والتى تركز عليها مرارا لدرجة جعلت المرء يشك فى أن هذا الأسقف الصالح انما كان يستهدف الدعاية للمدينة كمكان تجارى يرتاده الناس بفضل وجود رفات القديسين به·

وعلى الرغم من بقاء العديد من المدن كمراكز أسقفية ، فانها لعبت مجرد دور خارجى فى ثقافة واقتصاد الدويلات البربرية · وكانت المؤسسات التقليدية لذلك العصر هى ، الدير ، والقرية الريفية ، والمزرعة الكبيرة أو الفيلا التى يملكها بعض أفراد الطبقة الاستقراطية الثرية من الرومان أو الجرمان ، والتى كانت تنقسم الى قطع من الأراضى الزراعية الصغيرة يعمل بها الفلاحون المستأجرون الذين كانوا أشباه أحرار · ونشأت تجارة الترف الدولية ذات النطاق المحدود ، غير أنها تميزت فى القرنين السادس والسابع بخاصية

الاقتصاد الاقليمي بشكل عام • وأنتجت المجتمعات الزراعية الصغيرة معظم احتياجاتها ، واقتربت من حد الاكتفاء الذاتى من الناحية الاقتصادية •

وباستثناء بريطانيا وشمال شرق بلاد الغال ، مال المزارعون الجرمان الأحرار الى مستوى الأقنان الشبيه بالرق • بيد أن مكانة المحارب البربرى فى قومه هى التى حددت نمط الحياة الأرستقراطية ، واختفت المفـــاهيم الاجتماعية فى حياة المزرعة الرومانية الكبيرة رويدا رويدا • واندمجت المقومات الأساسية للشخصية الرومانية والبربرية معا عن طريق التزاوج وتكونت طبقة اجتماعية واحدة ، عنيدة ، خشنة الطباع ، مولعة بالحرب ، جرمانية أكثر من كونها رومانية •

أثبت الملوك البرابرة ، باستثناء ثيودوريك عدم مقدرتهم كلية على العمل وفقا للتراث الرومانى الادارى الذى ورثوه • اذ انهار نظام الضرائب الرومانى كلية تقريبا ، وانتقل امتياز سك العملة الى الاشراف الخاص ، وتدهورت سلطة وثروة الحكومة وفقا لذلك ، ليس بسبب كون الملوك كرماء ، ولكن لأنهم كانوا جهلة • فكان ينقصـــهم أبسط المفـــاهيم عن مسئولية الحكومة ، واعتبروا ممتلكاتهم اقطاعات خاصة يمكن لهم استغلالها أو التصرف فيها وفقا لأهوائهم • وحددوا منحا عشوائية من الأرض والسلطة السياسية لكل من الكنيسة وعلية القوم ، واعتبروا مابقى بعد ذلك ممتلكاتهم الخاصة ، وبذلك عملوا على دمج أسوأ ملامح الحكم الفوضوى والاستبدادى• ووفقا لما ذكره مؤرخ فرنسى حديث « لم يحدث فى تاريخنا أن كان مفهوم الدولة معروفا بالقدر الكامل الذى نعرف به كسوف الشمس »(*) •

ومما لاشك فيه أن غرب أوربا كان تحت سيطرة حكومة أكثر قوة فى عهد الهيمنة الرومانية ، فى حين أنه فى فترة سيطرة الدويلات البربرية كان تحت حكومة دون المستوى السابق بشكل جذرى • ولم يفعل الملوك الجرمان شيئا على الاطلاق من أجل انعاش الاقتصاد العام أو العمل على معالجة مسألة الفقر المدقع • وناضلت الكنيسة بشجاعة لملء الفراغ وذلك بتوزيع الصدقات وابراز محاسن فضيلة الرضا وقبول الأمور والأحوال السائدة دون شكوى أو تذمر ، الا أن الكنيسة نفسها لم تكن مؤهلة بالقدرات التى

* Robert Latouche, The Birth of Western Economy, tr. E.M. Wilkinson (London, 1961), p. 129.

تسمح لها بالتغلب على المشكلات والصعاب التى أثارتها حالة الاضطراب الكامل فى الغرب الذى تحت يد البرابرة • اذ اقتصر التنظيم الكنسى على المدن المندرسة ، والأديرة المسورة الى حد كبير • ومع ذلك قام أبناء الأبرشيات الريفية بالعمل على الوفاء باحتياجات سكان الريف رويدا رويدا • والواقع أن الأبرشية بالريف لم تصبح احدى الملامح المميزة للكنيسة الغربية قبل القرن الثامن الميلادى • اذ قبل هذا التاريخ كان المزارع محظوظا اذا ماوقعت عينه على قس ولو لمرة واحدة فى السنة • واذا كانت الملكية والكنيسة هما أكبر ملاك للأراضى الزراعية فى الممالك البربرية ، الا أنهما كانتا تمثلان أصحاب الأراضى المستغلين ، والمولعين بجمع الأموال أكثر من كونهما مصادران للعدالة والنعمة الالهية • وهكذا كان سكان الريف تحت رحمة الظروف السياسية والروحية كما كانت الحياة الريفية قاسية ، وملیئة بالشائعات ، وغير ممتعة •

غرب أوربا سنة ٦٠٠ م :

سبق لنا أن ألقينا نظرة عامة على أوربا سنة ٥٠٠ م غداة انهيـــار الامبراطورية الغربية • وفى ذلك الحين سيطرت حكومة ثيودوريك القوطية الشرقية على ايطاليا ، وحكم الوندال شمال أفريقيا ، وهيمن القوط الغربيون على أســبانيا ، ونجح كلوفس وفرنجيته فى فتح بلاد الغـــال ، وبدأ الأنجلو ساكسون Anglo-Saxons فى استيطان بريطانيا • وبعد ذلك الحين بقرن من الزمان ، قضت جيوش جوستنيان على دولتين من تلك الدول ، اذ صار شمال أفريقيا بيزنطيا بعد أن كان ونداليا ، كما انهارت مملكة القوط الشرقيين فى ايطاليا •

وبحلول سنة ٦٠٠ م كانت قبائل الأنجلو ــ ساكسون قد احتلت معظم بريطانيا واستعبدوا كثيرا من سكانها الأصليين الكلت ، وأجبروا الباقين على الاتجـــاه الى الجبـــال الغربية لاقليم ويلـــز • وكانت بريطانيا الأنجلو سكسونية فى ذلك الحين مجموعة صغيرة من الممالك الوثنية ، المستقلة ، والمكونة من خليط غير متجانس من السكان حيث كانت مرحلة اعتناقهم للمسيحية مازالت فى بدايتها •

وتجاه الجنوب سيطر الفرنجة على بلاد الغال على عهد أسرة كلوفس

القاسية وغير المقتدرة ـ الأسرة الميروفنجية ، والتى عرفت باسم ميروفتش Merovech الجد الأعلى لكلوفس . واتبعت الأسرة الميروفنجية «الفرنجية» العادة الجرمانية فى تقسيم المملكة بين أبناء الحاكم المتوفى . وفى العادة كان الأبناء ينشغلون فى حرب أهلية مريرة ، الى أن يسيطر ملك واحد على دولة الفرنجة . وبعد وفاته ، يتم تقسيم المملكة بين ابنائه ، وتتكرر المسرحية الهزلية المريرة . وكانت الأسرة الميروفنجية تميل الى السلب والنهب ، ويسيطر عليها الجهل ، والتعصب ، والايمان بالخزعبلات ، كما أن الكنيسة الميروفنجية صارت غير منظمة وسادها الفساد .

وعاق الفساد أعمال الكنيسة والدولة فى أسبانيا الخاضعة للقوط الغربيين . فالملكية التى اعتنقت الكاثوليكية بدلا من الأريوسية سنة ٥٨٩ م ، كانت قادرة أخيرا على استعادة شاطىء البحر المتوسط الذى كان تابعا لها من بنزينطة (حوالى ٦٢٤ م) ، غير أن الملوك القوط الغربيين سمحوا أن تنتقل سلطتهم من أيديهم شيئا فشيئا الى طبقة الارستقراطية من ملاك الأراضى والذين اتسموا بالجشع والعدوان . وطريقة الحكم هذه البالية والعتيقة جعلت الدولة فريسة سهلة للمسلمين الفاتحية فى أوائل القرن الثامن الميلادى .

وكانت ايطاليا قد تدهورت منذ القرن الذى عاش فيه ثيودريك . اذ أن حروب جوستنيان القوطية المرعبة تلاها غزو اللومباردين Lombards البدائيين . وبحلول سنة ٦٠٠ م كانت شبه الجزيرة ، التى هلك معظم سكانها ، موزعة بين البيزنطيين فى مدينة رافينا Ravena والجنوب ، واللورمباديين فى الشمال . أما البابوية التى كانت تحت سلطة بيزنطة من الناحية الاسمية ، فقد سيطرت على الأراضى المحيطة بمدينة روما ، وحاولت المحافظة على استقلالها الهش باثارة اللومبارديين ضد الدولة البيزنطية .

فاعلية العصور المظلمة :

تلك كانت أحوال غــرب أوربا سنة ٦٠٠ م . ومن النظرة الأولى لا يستطيع المرء الا أن يجد سوى القليل من الأمل فى مثل هذه الكآبة والظلام السائد . ومع ذلك كان هذا هو المجتمع الذى تمخضت عنه الحضـــارة الغربية . وكانت هذه فترة التكوين ـ عصر بداية التطور الحضارى التى بدت

فيها الاتجاهات البسيطة من الناحية الظاهرية فى يوم ما تزداد ملامحها فى التقاليد القوية التى اثرت تاثيرا شديدا على مجرى التاريخ الأوربى • وحتى فى سنة ٦٠٠ م كانت هناك ومضات من الضوء وسط الظلام • اذ ظلت الثقافة الكلاسيكية باقية ، الا أنها كانت فى شكل مبتذل ، وفى متناول الجمهور • ولم يكن أيزيدور من سيفيل مثل اوجستين ، بيد أنه كان أكثر بكثير من مجرد متبربر • وبالرغم من أن الكنيسة تلطخت بالجهل والفساد فى بيئتها ، فانها ظلت محتفظة ببعض مقدرتها على الالهام ، والتنوير الروحى ، والتهذيب •

وفى أقصى الشمال ، انضمت أيرلنده الى المسيحية على يد القديس بـــتريك St. Patrick فى القرن الخامس الميلادى ، وبحلول سنة ٦٠٠ م كشفت أيرلنده عن ثقافة مسيحية كلتية خلاقة بشكل مدهش • وبرع العلماء الايرلنديون فى معرفة الأدب اليونانى واللاتينى فى وقت كانت فيه اللغة اليونانية غير معروفة فى أى مكان فى الغرب ، وأنتج الفنـــانون الايرلنديون مخطوطات وفيرة مزخرفة بالذهب والفضة والألوان الزاهية بشكل رائع فى نمط كلتى Celtic متسم بخطوط منحنية • ولما كانت الكنيسة الايرلندية فى معزل عن الكنيسة الأوربية لوجود ممالك الأنجلو ـ سكسون الوثنية لذلك كانت لها عاداتها المميزة التى اكتسبتها تدريجيا - اذ أقامت نظامها حول الدير أكثر من الأبرشية ، كما كان رؤساء الأديرة هم القادة أكثر من الأساقفة • وكان الرهبان الايرلنديون مشهورين بثقافتهم العالية والصراحة المتزمتة فى حياتهم ، ومجالهم الواسع المدى فيما يتعلق بأنشطتهم التبشيرية • كما نجحوا فى تنصير أجزاء كبيرة من ســـكتلاند Scotland وفقا لفهمهم الخاص للمسيحية • وبحلول سنة ٦٠٠ م كانوا يمارسون الأنشطة التبشيرية فى القارة الأوربية نفسها •

الديرية المسيحية الباكر :

كانت الديرية أعظم قوة فعالة وأهم مؤسسة اجتماعية فى العصور الوسطى الباكرة على أن الدافع تجاه الحيـــاة الديرية ليس وقفـــا على المسيحية ، وانما وجد فى أكثر من ديانة وبالتحـــديد فى ديانتين فحسب وهما البـــوذية Buddhism ، واليهـــودية Judaism فعلى سبيل المثال فان جماعة الابيسين Essenes الذين ربما قامت طائفتهم بكتابة

لفيفات الدرج الخـــاصة بالبحـر الميت Dead Sea Scorrlls؛
أقاموا نوعا من النظام الديرى اليهودى ٠

كانت هناك على الدوام شخصيات متدينة تواقة الى الانسحاب من العالم المملوء بالآثام وتكريس حياتها للارتباط بالله بصفة دائمة ، بيد أن هذا الدافع كان قويا بشكل بارز بين المسيحيين ٠ اذ أصبحت الديرية أكمل أسلوب للحياة المسيحية ـ والتجسيد الكامل لكلمات المسيح : « وكل من ترك بيوتا أو اخوة أو أخوات أو ابا أو امرأة أو أولادا او حقـــولا من أجل اسمى يأخذ مائة ضعف ويرث الحياة الأبدية » (انجيل متى : ١٩ : ٢٩)٠

ان الدافع للانقطاع للعبادة والنكران الزهدى للذات ألفته المسيحية لأول مرة فى أواخر القرن الثالث الميلادى عندما خلا القديس المصرى أنطون الى نفسه بالصحراء ليعيش حياة متقشفة لناسك ورع ٠ وعندما ذاع خبر ورعه ، تجمعت حوله جماعة من النساك الراغبين فى اغتراف نفحة من نفحات قداسته ٠ ثم نظم لهم القديس أنطون Antony مجتمعـــا من النساك الذين عاشوا معا ، بيد أنهم لم يتعاملوا مع بعضهم البعض على شاكلة سكان الشقق فى مدينة أمريكية كبيرة ٠ وفى الحال ظهرت مجتمعات من النساك مشابهة فى كل أنحاء مصر ، وامتدت الى الأقاليم الأخرى من الامبراطورية وكثر عدد النساك القديسين فى القرنين الرابع والخامس ٠ ولقد حقق أحدهم ، القديس سيمون العمودى St. Simeon Stylites العزلة الضرورية بأن عاش على قمة عمود طوله ستون قدما لمدة ثلاثين عاما ، مثيرا بذلك دهشة ومحاكاة واسعتى الانتشار ٠

وفى الوقت نفسه ظهر نمط عملى للحياة الديرية مبنى على حيـــاة يسودها التعاون والمشاركة ٠ وهذه المجتمعات الديرية الباكرة التى بدأت فى أوائل القرن الرابع بمصر وانتشرت بسرعة فى كل انحاء الامبراطورية ، جذبت العديد من المسيحيين المتحمسين الذين وجدوا تحديا غير كاف من جهة الكنيسة بعد الامبراطور قنسطنطين عندما ظهر بها اتجـــاه متزايد بالاحساس بالرضى ٠ على أن شخصية الفرد التقى الذى عاش فى الصحراء ، وكذلك القديسين الذين عاشوا فوق الأعمدة أفسحوا المجال الى قيام حياة ديرية أكثر تنظيما، الا أن المجتمعات الدينية الباكرة ظلت مفتقرة الى التنظيم،

واستمرت فى تمسكها بضرورة ممارسة العادات المتسمة بالتقشف ، مثل الصيام القاسى ، وارتداء القمصان الوبرية ، والثياب المصنوعة من القيطان، وهى كلها أمور ابتدعها النساك ٠

الديرية البندكية :

غير القــديس بندكت من مدينة نورزيا St. Benedict of Nursia (حوالى ٤٨٠ ـ ٥٤٤ م) طريقة الحياة الديرية الغربية ، وذلك بصبغ قداستها المتوهجة بالفطرة السليمة والمبادىء الواقعية فى التنظيم ٠ وفى سن الشباب هجر بندكت مدينة روما الفاسدة ومارس حياة النساك فى كهف بالقرب من بقايا القصر الريفى للامبراطور نيرون Nero ٠ وبمرور الوقت ذاع خبر طهارته وورعه وتجمع حوله المريدون والأتباع ٠ وكما ثبت فى النهاية ، لم يكن بندكت مجرد ناسك عادى ، اذ كان رجلا يتمتع ببصيرة سيكولوجية قوية ـ ومقدرة على التنظيم رائعة ، اذ تعلم على مهل من تجاربه الديرية المتعددة منذ شبابه كيف تكون الحياة الديرية على أحسن وجه ٠ ونظرا لنشأة بندكت فى أسرة رومانية أرستقراطية لذلك أضاف الى عمله النزعة العملية ومعنى النظام ، والانضباط وهى أمور رومانية تقليدية - وأسس بندكت عددا من الأديرة التى جذبت اليها ليس فقط القديسين الذين تميزوا ببعد النظر ، ولكن أيضا الأشخاص العاديين ، بل وحتى أبناء الأسر الرومانية الثرية ٠ وأخيرا شـــيد بندكت دير مونت كاسينو Monte Cassino فى أعلى جبل فى منتصف الطريق بين روما ونابلى ٠ ومنذ ذلك الحين ، ولعدة قرون كان دير مونت كاسينو أحد المراكز الدينية الرئيسية للحياة الدينية فى غرب أوربا ٠ وفى مونت كاسينو ، شيد بندكت ديرا نموذجيا يحكمه دستور شامل ، عملى ، قائم على المودة والرحمة ٠ ومـات القديس بندكت فى غمرة حروب جوستنيان القوطية ، غير أن نظامه الديرى ظل باقيا يلهم غرب أوربا ٠

ووصف البابا جريجورى الكبير نظام القديس بندكت الديرى على أن « حكمته واضحة للعيان » ٠ فهذا النظام الديرى يشترط حيـــاة منتظمة باحكام ، ونشطة ، ولكنها ليست الى حد التقشف الشديد ٠ وكان الرهبان البندكتيون يرتدون ملابس محتشمة ، ويتناولون قدرا كافيا من الطعام ٠ ومن النادر أن يتركوا ليفعلوا مايحلوا لهم ٠ كانت حياة هؤلاء الرهبـان

مكرسة لله ولتحقيق القداسة الشخصية ، ومع ذلك كانت أيضا حياة فى مقدور أى مسيحى نذر حياته لله ، ويمكن وصفها بأنها كانت أكثر جاذبية ، اذا ماقورنت بالتعامل القاسى المتزايد خارج عالم هؤلاء الرهبان • وكان اليوم الديرى مملوءا بالأنشطة المرتبة بكل عناية : صلاة جماعية ، وقراءة تعبدية ، وعمل فى فلاحة الأرض ، والعمل الخاص بشئون المعيشة ، ونسخ المخطوطات ، الخ ، وفقا لاحتياجات الدير ومقدرة الراهب • والتزم الراهب بالعفة ، والفقر ، والطاعة • ويجب أن يكون الراهب عزبا ، وأن يتخلص من كل مايملك ، كما يجب عليه أن يطيع رئيس ديره • ويقوم الرهبان بانتخاب رئيس الدير مدى الحياة ، على أن يكون رئيسا لا منازع له ، بيد أنه كان عليه أن يستشير الرهبان فى كل قراراته • وكان رئيس الدير مسئولا مسئولية كاملة أمام الله ، ولديه تعليمات أن يعالج الأمور وفقا للنظام الديرى وبكل دقة • وتم تحذير رئيس الدير من أن يغضب أو (يثقل على رهبانه أو أن يكون سببا فى « مجرد الهمس » • وهنا تبدو مكانة الحكمة التى أشار اليها البابا جريجورى ، والتى كانت بلاشك العامل الأساسى فى نجاح نظام بندكت الديرى •

وفى مدى قرنين بعد موت بندكت كان نظامه الديرى قد انتشر فى كل أنحاء العالم المسيحى الغربى • على أن النتيجة لم تكن قيام تنظيم ديرى هرمى ، وانما مجموعة من الأديرة المستقلة والقائمة بذاتها ، ولها نظامها الديرى وحياتها الخاصة ولا تخضع لغيرها من الناحية الادارية • وتصور بندكت أديرته على أنها أماكن لها قداستها الروحية والتى يجد بها الأتقياء مكان يقيمون به بعيدا عن المجتمع البشرى • غير أن مجتمع البرابرة الغربى الأمى ، والذى كان يعانى من حالة اضطراب كاملة ، كان فى أمس الحاجة الى نظم وتعاليم بندكت • ولم يكن فى استطاعته السماح لهم بالتنازل عن الأمور الدنيوية • على أنه قد ثبت فى النهاية أن البندكتيين كان لهم تأثير ضخم على العالم الذى اعتزلوه ؛ اذ خرجت مدارسهم الغالبية العظمى من المتعلمين الأوربيين فى العصور الوسطى الباكرة • ومارسوا مهمة الجسر الثقافى ، ونسخ وحفظ المؤلفات اللاتينية المتعلقة بالعصور القديمة • وكانوا على رأس تغلغل المسيحية فى غابات ألمانيا الوثنية ، وفى اسكنديناوه ، وبولنده ، وهنغاريا فيما بعد • ومارسوا مهمة الكتبة والمستشارين للملوك ، كما تم اعدادهم لشغل المناصب الكنسية العليا • ونظرا لتلقيهم

الهبات من الأراضى ــ من قبل المتبرعين الأتقياء على مر أجيال كثيرة ، لذلك امتلك الرهبان البندكتيون الأراضى والأطيان الشاسعة التى أصبحت نماذج لعصرهم فى التنظيم الزراعى الذكى ، والابتكار التكنولوجى • وبظهور الاقطاع ، أصبح رؤساء الأديرة من كبار المقطعين ، ومسئولين عن الادارة السياسية والقانونية والخدمة العسكرية على المناطق الكبيرة التى تحت ادارتهم • ــ وكانت الأديرة البندكتية قبل كل شىء ، بمثابة جزر للسلام ، والأمن ، والتعلم ، وسط محيط من الوحشية والبربرية ، كما كانت مراكز روحية وثقـــافية لتطور اندماج التراث المسيحى بالجرمانى والذى زود الحضارة الأوربية بطبقة تحتية • وباختصار كانت الديرية البندكتية المؤثر الحضارى الأسمى فى الغرب المتبربر •

البابا جريجورى الكبير (٥٩٠ ــ ٦٠٤ م) :

قام البندكتيون بتنفيذ مهمتهم الحضارية بفضل تأييد البابوية الحماسى والذى كان بلا حدود • وأكمل هذا التحالف بين هاتين المؤسستين على يد جريجورى الكبير البـــابا البندكتى الأول ، الذى اعترف على الفور بمدى امكانية البندكتيين فى التأثير فى نشر الايمان الكاثوليكى ، وامتداد القيادة البابوية فى كل مكان عبر العالم المسيحى •

وسبق لنا معرفة البابا جريجورى كأحد علماء العصر المظلم ، وأنه قام بتبسيط الفكر الأوغسطينى ، وجعله فى متناول مدارك الجمهور • وبالرغم من أن لاهوته كان مؤثرا الى درجة كبيرة فى القرون التالية ، فانه فشل فى الارتفاع كثيرا فوق المستوى الفكرى لعصره • وتكمن عبقريته فى فهمه الشديد للطبيعة البشرية ، وفى مقدرته كشخصية ادارية ومنظمة ــ كما أن كتابه عن رعاية الكاهن لأبناء أبرشيته Pastrol Care هو بحث عن واجبـــات والتزامات الأسقف ، والذى تضمن الكثير من الحكمة العملية والوعى الأخلاقى العام • اذ انه قدم الاجابة على الكثير من الأمور المتعلقة بالأحوال السائدة فى عصره ، وأصبح أحد الكتب الواسعة الانتشار فى العصور الوسطى •

أحب جريجورى الحياة الديرية وارتقى العرش البابوى وقد بدا عليه الشعور الصادق بالأسف والندم • وعند سماعه نبأ اختياره ذهب الى مخبأ وأجبر على الانتقال الى بازيليكا Besilica القديس بطرس الرومانية ».

رغم أنفه ، وذلك لاتمام مراسيم رسامته بابا • غير أنه ما أن كيف نفسه وفقا لمسئولياته الجديدة ، حتى بذل كل طاقة من أجل اتساع نطاق السلطة البابوية • ولما كان البابا جريجورى الكبير يسير وفقا لتعاليم البابا ليو الأول ، لذلك اعتقد بكل تحمس كخليفة للقديس بطرس أنه الحاكم الشرعى للكنيسة • وقام باعادة تنظيم النظام المالى للأراضى والأطيان التابعة للبابوية ، واستخدم الدخول المتزايدة فى الأعمال الخيرية ، وذلك للتخفيف من حدة حالة الفقر المدقع فى عصره • على أن استقامته وحكمته ، وقدرته الادارية حققت له مركزا ملكيا تقريبا فى روما ووسط ايطاليا ، وسما مركزه على اللومبارديين والبيزنطيين المعاصرين له ، والذين كانوا فى ذلك الحين يناضلون من أجل السيطرة على شبه الجزيرة • واذا كانت عملية اصلاح الكنيسة الفرنجية ليست فى نطاق سلطاته المباشرة ، الا أنه شرع فى تنفيذ خطة تهدف الى انضمام كل من فرنسا والمانيا الى الحظيرة البابوية عندما أرسل جماعة من الرهبان البندكتيين من أجل تنصير انجلترا الوثنية •

اعتناق انجلترا للمسيحية :

قاد القديس أوغسطين البندكتى الارسالية التبشيرية الى انجلترا ، (يلاحظ عدم الخلط بينه وبين القديس أوغسطين من هيبو ، رجل اللاهوت الكبير فى عصر أسبق) • وفى سنة ٥٩٧ م وصل أوغسطين وأتباعه الى مملكة كنت Kent الانجليزية ، وبدأوا عملهم هناك •

وفى ذلك الحين كانت انجلترا مقسمة الى عدد من الممالك البربرية المستقلة • وكانت مملكة كنت أقواها ، ونظرا لأن زوجة ملك كنت كانت مسيحية لذلك حظى أوغسطين باستقبال ودى • وسارت عملية التنصير على قدم وساق ، وفى يوم عيد العنصرة Whitsunday سنة ٥٩٧ م تم تعميد ملك كنت والاف من رعيته • وكانت « مدينة كنت » أو كانتربورى Canterbury عاصمة المملكة قد أصبحت المركز الرئيسى لكنيسته الجديدة ، وأصبح القديس أوغسطين نفسه أول رئيس للأساقفة بها •

وابان العقود التالية ، علا وخبا مصير المسيحية البندكتية الانجليزية وفقا لتغيير الأحوال فى الممالك البربرية • وفى منتصف القرن السابع الميلادى ، تدهورت مملكة كنت وانتقلت السلطة السياسية الى مدينة نورثمبريا

Northumbria التي تقع في أقصى شمال الممالك الأنجلو ـ ساكسونية .
وأصبح هذا المكان البعيد مسرحا للصراع والصدام بشكل خطير بين القوتين العظميين المبدعتين في ذلك العصر : الكنيسة الكيلتية الأيرلندية المتجهة نحو الجنوب من اديرتها في سكتلاندا ، والمسيحية البندكتية الرومانية المتجهة نحو الشمال من مدينة كينت .

واشتركت الحركتان الدينيتان في دين واحد ، بيد أنهما اختلفتا في الخلفيات الثقافية ، وفي الأفكار العامة عن الحياة الديرية والتنظيم الكنسي . بل وفي طرق حساب ميعاد عيد الفصح . وكان مستقبل علاقات انجلترا بالقارة الأوربية والبابوية معرضا للخطر ، اذ كان من المحتمل أن يؤدى الانتصـــار الكلتي الى عزل انجلترا عن المصدر الرئيسي لتطور المسيحية الغربية . بيد أن الملك أوزوى Oswy حسم الموقف لصـــالح المسيحية البندكتية ـ الرومانية والسلطة البابوية في انجلترا في مجمع وايتبـــاى Whitby سنة ٦٦٣ م . وتم اقرار ذلك . وبعد ست سنوات ، سنة ٦٦٩ م ، أرسلت البابوية العالم المثقف ثيودور من تارسوس Theodor of Tarsus ليتـــولى مسئولية الأســـقفية في مدينـــة كانتربرى Canterbury ، وأن يعيد تنظيم الكنيسة الانجليزية بما يجعلها تسير وفقا لنظام هرمى . ونتيجة لتنصير نورثومبريا ، وجهود الأسقف ثيـودور المضنية أصبحت انجلترا أعظم مجتمعات أوربا المسيحية نشاطا وابداعا والتي كانت من قبل قرن واحد من الزمان تؤمن بالوثنية بشكل واضح .

وتمخض اللقاء الأيرلندى ـ البندكتي في نورثومبريا في القرن السابع عن حركة ثقافية مهمة عرفت بالنهضة النوثومبرية . وأثرت في التعاليم الأيرلندية والبندكتية الى الحد الذى جعل الحضارة البربرية الغـــربية تصل الى أوجها في هذه البلاد البعيدة . وساهمت المخطوطات المزخرفة بشكل واضح ، والمنسوخة بالخط الكلتي المنحنى الشكل والكتابة الجديدة ، والملحمة الشعرية القوية ، والمباني المثيرة للانفعال ، في ازدهار الحضارة النورثومبرية في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع . وتمركزت النهضة النورثومبرية في الأديرة العظيمة التي شيدها الأيرلنديون ، والبعثات التبشيرية البندكتية ، وبخاصة دير جارو Jarrow البندكتي . وهنا قضى القديس بيده المبجل St. Bede the Venerable وعالم عصره ، حياته كلها .

دخل بيده دير جارو فى سن الطفولة ، وبقى به حتى موته سنة ٧٣٥ م ٠ وأشهر أعماله العديدة كتابة « التاريخ الكنسى لانجلترا » وهو دراسة تعرض اتجاها بارعا فى النقد بشكل ممتاز فاق من سبقوا بيـــده فى العصور الوسطى ، وكذلك من عاصروه ، وكتاب التاريخ الكنسى هذا هو مصدرنا الرئيسى عن تاريخ انجلترا الباكر ٠ ويظهر هذا الكتاب سعة أفق ثقـــافية بشكل ملحوظ وعقلية ثاقبة ، وجعل من بيده أعظم شخصية مفكرة منـــذ أوغسطين من هيبو Augustine of Hippo

ويموت بيده سنة ٧٣٥ م كان الملوك النورثومبريين قد فقدوا سيطرتهم السياسية كما كانت الثقافة النورثومبرية فى طريقها الى التضاؤل التدريجى ٠ غير أن عادات الدراسة المتعمقة انتقلت من انجلترا الى القارة الأوربية على يد جماعة من المبشرين البندكتيين الذين لا يخشون لومة لائم ٠ وفى سنة ٧٤٠ م أصلح القديس بونيفيس St. Boniface الكنيســة فى بلاد الفرنجـــة Frankland ، وجعلها تتشرب المثالية البندكتية ، وأكثر ارتباطا بالبابوية ٠ وفى ذلك الحين كان قد مضت مائة وأربعون سنة على موت البابا جريجورى ، بيد أن شخصيته ظلت باقية بشكل فعال ٠ وشيد القديس بونيفيس والمبشرون الانجليز الآخرون أديرة بندكتية جـــديدة بين الجرمان شرق نهر الراين وبدأ العمل الطويل والشاق فى تنصير وتحضر هؤلاء الناس المتوحشين تماما كما فعل القديس أوغسطين ورهبانه فى تنصير شعب كينت الوثنى ٠ وفى أواخر القرن الثامن انتقل المركز الثقافى للعالم المسيحى مرة ثانية من انجلترا الى امبراطورية القائد الفرنجى شارلمان ، الذى سنتناوله فى فصل لاحق ، والذى ازدهـــرت امبراطوريته بخطوات سريعة ٠ ومن المهم القول أن الكوين Alcuin العالم الموجه فى مملكة شارلمان ، كان راهبا بندكتيا من نورثومبريا ٠

الكنيسة والحضارة الغربية :

اختلف الغرب المتبربر عن الشرق البيزنطى فى مظاهر عديدة ، وكان انخفاض مستوى الغرب الحضارى البعيد المدى أكثر هذه المظاهر وضوحا ٠ بيد أن الأكثر أهمية فى مظاهر الاختلافات هذه ، هى أن الكنيسة الغربية كانت قادرة على معارضة القيصرية البابوية البيزنطية ، وأن تبدو أمورها

بشكل مستقل عن الدولة تقريبا . اذ فى غالب الأحوال عملت السلطة الروحية والعلمانية يدا فى يد . بيد أنه لم يحدث اطلاقا أن اندمجتا كما حدث فى القسطنطينية وهو الأمر الذى كان قائما فى معظم الحضارات القديمة بشكل واقعى . وتميز الغرب المسيحى الباكر بوجود قسمين واضحين ـ ونعنى الفصل بين القيادة الثقافية والتى كانت كنيسة وديرية ، والسلطة السياسية التى كانت فى أيدى الملوك البرابرة . وقد قدمت هذه الثنائية الطبقة التحتية بسلاسة وفاعلية الثقافة الغربية . وتمخض عن هذه الثنائية توترا خلاقا استهدف التغيير أكثر من اتخاذ شكل محدد ، وايجاد سلسلة متصلة من النماذج الثقافية الرائعة ، وكذلك الأشكال الفكرية والروحية الجديدة بصفة دائمة . وعلى شاكلة مدينتى القديس أوغسطين ، فان الثقافة البطولية الحربية للدول الجرمانية والثقافة المسيحية الكلاسيكية للكنيسة والدير ظلتا على الدوام فى عملية اندماج ، بيد أنهما لم يندمجا اندماجا كاملا على الاطلاق . على أن التفاعل بين هذين العالمين تحكم فى تطور حضـــارة العصور الوسطى .

الجدول الكرونولوجى للقرنين السادس والسابع :

- ٤٨١ ـ ٥١١ م : حاكم كلوفس .
- ٤٩٣ ـ ٥٢٦ م : ثيودوريك يحكم ايطاليا .
- ٥٢٧ ـ ٥٦٥ م : عهد جوستنيان .

حــــوالى ٥٤٤ م : موت القديس بندكت .

- ٥٩٠ ـ ٦٠٤ م : مدة بابوية جريجورى الكبير .

٥٩٧ م : وصول بعثة القديس أوغسطين الى كينت .

٦٣٢ م : ٦٣٢ م : موت محمد (صلى الله عليه وسلم) : وبداية الفتوحات الاسلامية .

٦٣٦ م : موت القديس أيزيدور من سيرفيل .

- ٦١٠ ـ ٦٤١ م : عصر هرقل فى القسطنطينية .

٦٣٦ م : مجمع وايت باى : نورثومبريـا تؤمن بالمسيحيـــة البندكتية ـ الرومانية .

- ٧١٧ ـ ٧١٨ م : حصار العرب للقسطنطينية .

٧٣٣ م : موقعة تور : أقصى توغل للعرب فى غرب أوربا .

٧٣٥ م : موت بيده المبجل .

٧ ـ ظهور الاسلام :

الاسلام ، وبيزنطة والعالم المسيحى الغربى :

خلال الجزء الأكبر من العصور الوسطى ، انقسمت امبراطورية البحر المتوسط القديمة الرومانية الى ثلاث وحدات ثقافية مميزة : العالم المسيحى الغربى ، العالم المسيحى البيزنطى والعالم الاسلامى ٠ وتميزت هذه الثقافات الثلاث بوجود اختلافات عميقة فى الابداع والأسلوب ٠ ومع ذلك فمن وجهة نظرنا المستقلة احتوت تلك الثقافات على أمور كثيرة مشتركة ٠ اذ ان كلا من تلك الثقافات هى بمثابة وريث للحضارة اليونانية ـ الرومانية٠ كما أن لكل منها وجهة نظر دينية قوية نقلت بغزارة من التراث العبرى ٠ وفى الواقع ، فان كلا منها تدعى بأن الله الذى ورد ذكره فى كتاب العهد القديم هو خاص بها ، وتنظر كل منها الى التاريخ على أنه صراع اخلاقى مرير ، يبدأ منذ بداية الخليقة وينتهى يوم الحساب ٠ وكان هناك قدر كبير من التبادل والتداخل بين الثقافات الثلاث فى العصور الوسطى ٠ ومع ذلك لم يحدث أن تأثرت احداهما بشكل حاسم بالثقافتين الأخرتين ٠ وبالرغم من أن كلا منها تعرضت للاثارة والتحفز من بعضها البعض ، فان الواحدة منها صنعت قدرها بنفسها ٠

وحتى حوالى القرن الثانى عشر الميلادى كان العالم المسيحى فى العصور الوسطى اكثر الثقافات الثلاث تخلفا وبدائية ، وكان عليه أن يتعلم الكثير من الاسلام وبيزنطة ٠ وتشكلت التركيبة الاندماجية للتراث الكلاسيكى ، والمسيحى والجرمانى بطرق كثيرة بفضل الحضارتين المتجاورتين ، بيد أن تأثير هؤلاء الجيران على الغرب أعاقه عداء الغرب الشديد تجاه المسلمين ، وكذلك البيزنطيين « الضعاف ، والخونة » ٠ وفى القرنين الثامن والتاسع للميلاد كان احتكاك غرب أوربا بالاسلام محصورا فى ساحة القتال الى حد كبير ٠ ولم يبدأ الغرب فى الاعتماد على التراث الثرى للفكر والثقافة الاسلامية الا فيما بعد ذلك ٠

محمد (صلى الله عليه وسلم) (حوالى ٥٧١ ـ ٦٣٢ م) :

ظهر الاسلام بشكل غير متوقع فى أوائل القرن السابع الميلادى
أوربا فى العصور الوسطى

وتطور بسرعة مدهشة الى حضارة عظيمة ، ومتماسكة ممتدة من الهند الى أسبانيا • وموطن هذا الدين الجديد الذى فرض نفسه بالقوة(*) فى شبه الجزيرة العربية ــ فى أراضى المملكة العربية السعودية الحديثة ــ تلك المنطقة التى كانت مأوى للقبائل البدوية العنيفة لعدد لا حصر له من القرون والتى هاجرت بصفة دورية الى مناطق فلسطين الغنية والمتحضرة ، والى سوريا ، وبلاد مابين النهرين فى الشمال • ويبدو أن كثيرا من الغزاة الساميين فى الشرق الأدنى القديم قد جاءوا فى الأصل من الصحـــراء العربية ــ العموريون ، والكلدانيون ، والكنعانيون ، وحتى اليهـــود • واستوعبت هذه الشعوب حضارة الهلال الخصيب القديمة بسرعة وطورتها فى أشكال مبدعة وجديدة ، بيد أن أقاربهم الذين عاشوا فى شبه الجزيرة العربية ظلوا على بداوتهم وعدم نظامهم •

وحتى ظهور محمد (صلى الله عليه وسلم) ظل العــــرب متمسكين بطرقهم البدوية ، وبديانتهم المختلفة التى تؤمن بتعدد الآلهة ، بيد انه فى ذلك الحين بدأت مؤثرات حضارية جديدة تجعلهم يشعرون بكيانهم • وقـــام طريق القوافل العريق الممتد شمالا من جنوب شبه الجزيرة العربية بدور حلقة الاتصال المهمة فى شبكة تجـــارية بعيدة المدى بين الشرق الأقصى والامبراطوريتين البيزنطية والفارسية • وعلى امتداد هذا الطريق ظهرت المدن لخدمة القوافل ، وظهر قدر « يسير من الحضارة مع قيام الحياة فى المدينة : والواقع أن مدينة مكة كانت أهم هذه المدن التجارية ، التى أصبحت مركزا تجاريا ذات نشاط صاخب اذ قامت بارسال قوافلها شمالا وجنوبا ، وازدادت ثراءا لما حققه الوسطاء من رجالها من الأرباح • وفى مكة والمدن الأخرى التى مرت بها القوافل كانت الحياة القبلية تفسح المجال للحيـــاة التجارية ، كما بدأت أفكار غريبة جديدة تتحدى الأفكار القديمة ووجهـــات النظر القديمة • وفى مكة ، حوالى سنة ٥٧١ م ، ولد النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) •

وعند مولد محمد (صلى الله عليه وسلم) ، كان قد مر على موت جوستنيان ست سنوات • ومن بين الذين عاصروا محمدا (صلى الله عليه

(*) يختلف المترجم مع المؤلف فى هذا الرأى ، ويرى المترجم أن الاسلام انتشر فى الجزيرة العربية وغيرها بالحكمة والموعظة الحسنة •

وسلم) الامبراطور هرقل ، والبابا جريجوري الكبير ، والأسقف أيزيدور من مدينة سيرفيل · وعندما وصلت بعثة بندكت التبشيرية من روما الى كنت Kent سنة ٥٩٧ م ، لتبدأ تحويل انجلترا الى المسيحية ، كان محمدا (صلى الله عليه وسلم) فى العشرينات ولم يكن معروفا بعد خارج عالمه المحيط به ·

ولد محمد (صلى الله عليه وسلم) من فرع فقير للعشيرة التى تتولى الزعامة فى مدينة مكة · ولم يكن لديه خلفية ثقافية تقليدية ، وأصبح أحد تجار القوافل ، وعن طريق رحلاته التجارية تعرف على الديانة اليهودية ، والمسيحية والزرادشتية بشكل وثيق · وكان محمدا (صلى الله عليه وسلم) متقد الفكر ، ورقيق الشعور ، وله شخصية قوية ، وجذابة ، وساحرة ، وتلقى الوحى فى أواخر الثلاثينات · وبدأ يدعو لدينه الجديد عن طريق الافصاح وارسال الرسائل · ولم يحظ سوى بتأييد قليل من مكة باستثناء زوجته (خديجة) و (بعض) أقاربه · والقليل من الفقراء الذين آمنوا بدعوته · ويبدو أن الطبقة الاقتصادية الحاكمة والمستغلة Oligarchy فى مكة كانت مستثناة من تعاليم هذا الثائر الفقير · وربما خافوا من أن يرفض الدين الجديد الايمان بالكعبة التى كانت المعبد الأساسى فى مكة والتى بها الحجر النيزكى المقدس (الحجر الأسود) ، والتى كانت مركزا مربحا ومفيدا للحجاج · وكان اعتقادهم أن دين محمد (صلى الله عليه وسلم) سيقضى على أهمية مكة الاقتصادية كمكان للحج ، مبنيا على التقدير الخاطىء الناجم عن الجهل ، غير أن عداهم للدين الجديد أجبر محمدا (صلى الله عليه وسلم) على ترك مكة سنة ٦٢٢ م والاقامة فى المدينة ، التى تقع على بعد ٢٨٠ كيلومترا شمال مكة على طريق القوافل ·

كان الانتقال الى المدينة والمعروف بين المسلمين بالهجرة ، نقطة تحول مهمة فى انتشار الاسلام ـ وتحدد بداية لتاريخ التقويم الاسلامى · وآمن سكان المدينة بمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، وأصبح رئيسا سياسيا للمدينة وهاديا دينيا أيضا · واندمجت السلطة الدينية والمدنية تحت قيادة محمد (صلى الله عليه وسلم) · وكان المجتمع الدينى دينا ودولة فى وقت واحد ، ومن هذه الناحية ، فان هذا المجتمع وضع الأساس للحضارة الاسلامية فيما بعد ·

أعلن أهل المدينة الحرب على مكة ، وأغاروا على قوافلها التجارية ، وفرضوا الحصار الاقتصادى عليها · وفى سنة ٦٣٠ م انتصرت المدينة على مكة ، ودخلت مكة فى الدين الجديد وفى خلال العامين الباقيين من حياة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، آمنت كثير من القبائل فى شبه الجزيرة العربية عن طواعية ، بعد أن صار محمدا (صلى الله عليه وسلم) شخصية أسطورية تقريبا · وعند وفاته سنة ٦٣٢ م كان قد وحد العرب لأول مرة فى التاريخ فى نظام سياسى دينى متماسك ، ومنظم جيدا ، ومجهز عسكريا باتقان ، بفضل الدين الجديد القــوى المبنى على الايمان بالله الواحد · وانحصرت أنشطة سكان الصحراء العرب الذين اعتادوا العنف فى ذلك الحين فى تحقيق هدف واحد نبيل ــ الا وهو هداية العالم ·

الاســـلام :

كان الدين هو الرابطة التى وحد بها محمد (صلى الله عليه وسلم) شبه الجزيرة العربية · وعرف الدين الجديد باسم الاسلام · وعلم محمد (صلى الله عليه وسلم) بضرورة خضوع كل البشر لمشيئة الله الواحد القهار رب العالمين · وأن حب الله ورحمته تفوق حب ورحمة كل صاحب سلطة وجلالة ، وأن خير الأعمال ليست فى حب الله فحسب ولكن أيضا فى طاعة أوامره · ولم ينظر محمد (صلى الله عليه وسلم) على أنه شخصية مقدسة · وانما على أنه أحد رسل الله وخاتم الأنبياء ، وأن موسى ، وأنبياء العهد القـــديم Old Testament ، وعيسى من بين هؤلاء الرسل ·

واحترم الاسلام كتابى العهد الجديد والقديم ، وكان متسامحا نسبيا مع اليهود والنصارى ــ « أهل الكتاب » · غير أن المسلمين لهم كتابهم الخاص بهم « القرآن الكريم » الذى ينسخ ماقبله من الكتب · ويعتقد المسلمون أن القرآن من عند الله · القرآن هو المجموعة الكاملة والشاملة لكتاب محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وهو الأساس الوطيد للدين الاسلامى « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »(١) · ويعتقد المسلمون أن القرآن كلام الله ، أوحاه الى محمد (صلى الله عليه وسلم) عن طريق جبريل ومن أصل « أزلى » فى

---

(١) الاسراء : ٨٨ ·

السماء • وعلى ذلك فان الهاماته وطلاوته تشمل معانيه وكل حرف فيه ، وبه ٦٢١ر٣٢٣ آية • وأنه اذا ماتمت ترجمته ، فانها لن تتضمن ماله من حلاوة وطلاوة • ويعتقد المسلمون أن على المسلم تلاوة القرآن باللغـــة العربية • وبانتشار الاسلام انتشرت اللغة العربية وفقا لذلك •

ويبدو أن القرآن أوسع الكتب انتشارا • وبالاضافة الى كونه كتابا يدويا للعبادة فانه النص الذى تعلم منه المسلمون من غير العـرب اللغـة العربية • والقرآن هو السلطة العليا لا فى الدين فحسب ، وانما فى القانون، والعلوم ، والمسائل الانسانية • ولذلك أصبح الأساس القياسى العام فى المدارس الاسلامية لأى مادة علمية يمكن تصورها •

وتتضح عبقرية محمد (صلى الله عليه وسلم) بوضوح فى مقدرته على تكييف لغة قديمة مثل اللغة العربية فى القرن السابع الميلادى فى تقديم المفاهيم الدينية الممتعة عقليا ، وكذلك القانونية ، والأخلاقية التى يجدها المرء فى كتابه الدينى •

ووعد محمد (صلى الله عليه وسلم) من آمنوا به بجنة النعيم اذا ماعاشوا حياة مستقيمة ، ومتزنة ، واتبعوا مبادىء الاسلام • وقبل كل شىء ، على المسلم أن يشهد بأن (لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله) وعلى المسلم الحق أن يؤدى الصلاة ويصوم (رمضان) ، ويحج البيت بمكة مرة واحدة على الأقل ، وأن يعمل على خير المسلمين والدعـــوة الاسلامية • والجهاد فى الاسلام دور له مكانته العليا لأن العمل من أجل رفعة شأن العقيدة مماثل لاعلاء شأن الدولة تماما بتمام : وللقانون العام فى الأراضى الاسلامية وازع دينى ، كما ظل اندماج الدين والسياسة الذى وضعه محمد (صلى الله عليه وسلم) بالمدينة احدى الخصائص الأساسية فى المجتمع الاسلامى • ولا يوجد كهانة فى الاسلام ، أو سلطة « اكليركية » بمعزل عن الدولة ، وكان خلفاء محمد (صلى الله عليه وسلم) السياسيين ، هم حماة الاسلام ، والذين لهم حق الولاية على المؤمنين • على أن التوتر الذى نشأ بين الكنيسة والدولة ، والذى أثبت أنه الحافز لأوربا فى العصور الوسطى لم يكن معروفا فى العالم الاسلامى •

الفتوحات الاسلامية الأولى (٦٣٢ - ٦٥٥ م) :

بعد موت محمد (صلى الله عليه وسلم) مباشرة تفجر النشاط العربى أخيرا بفضل تعاليم النبى (صلى الله عليه وسلم) ، واتجهوا الى فتح العالم . على أن الفتوحات التى أثارت الدهشة والاعجاب كانت نتيجة لقوة نشاط الاسلام من ناحية ، ولضعف وانهاك أعداء الاسلام من ناحية ثانية . فكان الامبراطور هرقل قد انتهى من هزيمة الفرس ، وكانت بيزنطة والفرس فى حالة انهاك وضعف نتيجة لصراعهم الطويل والمضنى . كما ظل المونوفيزيقيون فى سوريا ومصر على عداء شديد مع سادتهم البيزنطيين الأرثوذكس .

ودخل العرب هذه الأراضى المجهدة ، والتى عانت من الشعور بالمرارة ، وهم فى حالة من الحماس الدينى المتقد ، بالاضافة الى وقوعهم تحت دافع اغراء الثروة والنعيم للعالم المتحضر . ولم يكن لدى العرب خطة مدروسة للفتح - اذ ان معظم حملاتهم بدأت كغزوات بهدف السلب والنهب - غير أن الانتصارات غير المتوقعة كانت نتيجة لقوة الدفع المتجمعة بشكل دائم . وعندما وصلوا الى سوريا البيزنطية ، أبادوا جيشا بيزنطيا ضخما سنة ٦٣٦ م ، وفتحوا دمشق ، وبيت المقدس ، وبحلول سنة ٦٤٠ م ، كانوا قد فتحوا كل الأراضى ، وانتزعوها بصفة نهائية من قبضة السيطرة البيزنطية . وفى سنة ٦٣٧ م أنزلوا هزيمة ساحقة بالجيش الفارسى ، ودخلوا طيسفون Ctesiphon عاصمة الفرس ، وهم فى دهشة شديدة لما شاهدوه من مظاهر الثروة والغنى . وفى خلال عقد استطاع العرب اخضاع كل بلاد الفرس ، ووصلوا الى حدود الهند . وفى السنوات التالية توغلوا بعمق فى داخل شبه القارة الهندية ووضعوا أسس دولة باكستان الاسلامية الحديثة . واعتنق سكان الامبراطورية الفارسية الاسلام رويدا رويدا ، كما تعلموا اللغة العربية . وقدر لهم فى سنوات تالية أن يلعبوا دورا رئيسيا فى السياسة والثقافة الاسلامية .

وفى الوقت نفسه اندفع المسلمون باصرار تجاه الغرب الى مصر ، واستولوا على الاسكندرية سنة ٦٤٠ م وبهذا ضموا اليهم المدينة العظيمة التى ظلت مركزا للثقافة اليونانية منذ العصر الهلينى . وبوقوع كل من مصر وسوريا فى أيدى العرب ، استطاعوا أن يصلوا الى البحر ، ويتحدوا

السيطرة البيزنطية التى أقامها البيزنطيون منذ أمد بعيد فى شرق البحر المتوسط • فاستولوا على جزيرة قبرص ، وغزوا جزيرة رودس ، وفى سنة ٦٥٥ م حققوا نصرا ساحقا على الأسطول البيزنطى •

الحرب الأهلية (٦٥٥ ـ ٦٦١) :

توقف الفتح الاسلامى من حين لآخر فى سنة ٦٥٥ م بسبب انشغال الامبراطورية الجديدة فى صراع شرس بين أفراد السلطة الحاكمة • اذ صار تعاقب الخلافة مجالا لمحاولات الأمويين للمحافظة عليه ، وهم كانوا احدى الأسر الرئيسية ، من بين القلة الاقتصادية التى كانت تسيطر على مكة قبل الاسلام • وكان هذا الصراع بينهم وبين على (كرم الله وجهه) صهر محمد (صلى الله عليه وسلم) • وتزعم على (كرم الله وجهه) فريقا قدر له أن يصير قويا فى القرون التالية الى أبعد حد • وأصر أتباع على (كرم الله وجهه) على أن يكون الخليفة من نسل النبى (صلى الله عليه وسلم) • وكما حدث فان محمدا (صلى الله عليه وسلم) لم يعش له بنين ، وتزوجت ابنته فاطمة ، من على (كرم الله وجهه) ابن عم النبى (صلى الله عليه وسلم) •

وفى سنة ٦٦١ م هزمت قوات الأمويين قوات على (كرم الله وجهه) فى احدى المعارك وبدأ عهد الخلفاء الأمويين الذين استولوا على السلطة لمدة قرن من الزمان تقريبا • بيد أن الفريق المناصر للسلطة الشرعية الذى كان يؤيد عليا (كرم الله وجهه) فيما مضى استمر يقاوم فى عناد واصرار كأقلية نذرت نفسها لاثارة المتاعب ، باذلة غاية جهدها لتأييد العديد من ذرية على (كرم الله وجهه) وفاطمة ، تلك الذرية التى يصعب حصرها • وبمرور الوقت تطورت الحركة السياسية الى مذهب دينى عرف بالتشيع ، الذى يؤمن بأن الخلفاء بصدق هم ـ الذين كانوا من نسل محمد (صلى الله عليه وسلم) من ذرية على وفاطمة ـ الذين كانوا بعيدين كل البعد عن الرذائل ، ومعصومين ، ويعرفون معلومات سرية لم ترد فى القرآن • وتحول التشيع الى حركة سرية تكتنفها الأسرار وتعمل فى الخفاء ، وتظهر على السطح من حين لآخر فى شكل تمرد شعبى مسلح • وفى القرن العاشر الميلادى نجح التشيع فى السيطرة على مصر واقامة دولة الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، وتفرع عنها جماعة الحشاشين ، وهم من المسلمين الذين اشتهروا

بسوء السمعة والاستعداد للقيام بعمليات القتل ، ومازالت بقاياهم الموجودة حتى يومنا هذا وهى الفرقة الاسماعيلية تحت قيادة أغاخان ٠

الأسرة الأموية (٦٦١ ــ ٧٥٠) :

توقف الفتح الاسلامى بشكل مؤقت بانتصار الأمويين على على (كرم الله وجهه) ٠ وانتقلت عاصمة الامبراطورية الاسلامية النامية التى كانت فى المدينة قبل الحرب الأهلية فى ذلك الحين الى دمشق فى سوريا ٠ غير أن الطبقة الارستقراطية العربية القديمة ظلت تمارس سيطرتها القــوية على الدولة الاسلامية ٠ وفى ذلك الحين كانت القسطنطينية هدفا عسكريا رئيسيا ، بيد أن المدينة العظيمة على بوغاز الدردنيل تصدت لسلسلة من الهجمات الاسلامية الشرسة فيما بين ٦٧٠ م و ٦٨٠ م ٠

وساعد على تدعيم الدفاع البيزنطى سلاح سرى ، غير عادى ، وهو المعروف باسم « النار الاغريقية » وهو سائل يشتعل عند تعرضه لهواء ولا تنطفىء بالماء ، ولكن يمكن أن يتم الاطفاء باستخدام الخل أو الرمال ٠ وفى سنتى ٧١٧ ــ ٧١٨ م هاجم أسطول وجيش عربى القسطنطينية دون جدوى ، وبعد أن استنفد المسلمون كل طاقاتهم ومواردهم دون نجاح أوقفوا محاولاتهم لاحتلال المدينة ٠ وعاشت بيزنطة لمدة بضعة قرون أخرى ، ومنع المسلمون من جنوب شرق أوربا لباقى العصور الوسطى ٠

ومع ذلك ، ففى الوقت نفسه كانت الجيوش الاسلامية تحقق انتصارات مثيرة للاعجاب والدهشة ٠ ومن مصر تحركت الجيوش الاسلامية تجاه الغرب على امتداد الساحل الافريقى الى مملكة الوندال القديمة ، والتى كانت فى ذلك الحين تحت حكم بيزنطة البعيدة ٠ وفى سنة ٦٩٨ م استولى المسلمون على قرطاجة ٠ وفى سنة ٧١١ م عبروا مضيق جبل طارق الى اسبانيا ، وقضوا على مملكة القوط الغربيين المتداعية على جناح السرعة ٠ طاردين المسيحية الى معاقل جبال البرانس Pyrenees Mountains ثم اتجه المسلمون الى جنوب بلاد الغال Gaul ، وهددوا مملكة الفرنجة الميروفنجــيين Merovingian Franks ٠ وفى سنة ٧٣٣ م أى بعد موت النبى (صلى الله عليه وســلم) أجبر شــارل مارتل (المطــرقة) Charles Martel ذلك الفرنجى الأرستقراطى المتقد الذكاء ، المسلمين

على توقف فتوحاتهم أخيرا عند تور Tours ، بفضل قيادته لجيش مسيحى شديد الاصرار · ان المسيحيين فى تور لم يكونوا من النوع الذى يمكن أن يتصوره المرء عندما أنشدوا ، «الى الأمام أيها الجنود المسيحيون» . انهم كانوا فرنجة أشباه البرابرة يرتدون جلود الذئاب ، تاركين شعورهم الطويلة ذات الضفائر تتدلى خلف ظهورهم · غير أنهم نجحوا فى ايقاف القوة الدافعة للتوسع الاسلامى فى غرب أوربا ، تماما كما نجح البيزنطيون فى ايقافها فى الشرق ·

العباسيون (٧٥٠ ـ ١٢٥٨ م) :

فى سنة ٧٥٠ م ، بعد سبعة عشر عاما من تاريخ موقعة تور ، أطاحت أسرة جديدة بالدولة الأموية والأسرة الجديدة عربية الأصل بيد أنه من برنامجها السياسى السماح بمشاركة أكبر للشعوب ذات الحضارة العالية · وهى الشعوب التى دخلت الاسلام فى أعداد كبيرة · وعلى رأسهم الأرستقراطية الفارسية التى أسلمت ، وهم الذين يمثلون الحكم العباسى ، ولذلك بعد أن انتصر العباسيون بوقت قصير انتقلت العاصمة من دمشق الى بغداد على نهر دجلة ، فى عمق أراضى الامبراطورية الفارسية القديمة والتى كانت تبعد عن آثار مدينة بابل القديمة بعدة أمتار ·

وصارت بغداد فى عهد العباسيين الباكر من أعظم مدن العالم · اذ صارت مركزا لشبكة تجارية كبيرة تمتد عبر العالم الاسلامى · وما بعده وتدفق الحرير ، والتوابل والأخشاب المعطرة من الهند ، والصين ، وجزر الهند الشرقية ، والفراء والعبيد من شبه جزيرة سكنديناوة Scandinavia والذهب ، والرقيق ، والعاج من أفريقيا الاستوائية · وكانت بغداد رابطة لسلسلة من النظام المصرفى الواسع المدى الذى له فروع فى المدن الأخرى من العالم الاسلامى · اذ صار فى الامكان تحرير شيك فى بغداد وصرفه فى المغرب Morocco ، التى تبعد أربعة آلاف ميل بالغرب · وكان قصر الخلافة العباسية يشغل ثلث بغداد بالكامل ، ويحتوى على عدد لا حصر له من غرف النوم والحجرات العامة ، ومساكن الخدم الذين كانوا من الخصيان ، ومساكن الزوجات والسرارى ، والخادمات ، ومبانى موظفى الدولة وقاعة رائعة للاستقبال عرفت باسم « قاعة الشجرة » التى كان بها شجرة صناعية من الذهب والفضة ، وعلى فروعها تشقشق

وتغرد الطيور الآلية . ووصلت ثروة بغداد وثقافتها الى القمة فى عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد (٧٨٦ ــ ٨٠٩ م) الذى صارت ثروته وقوته مسألة أسطورية . واعتاد الزام الامبراطورية البيزنطية على أن تدفع له اتاوة منتظمة . وفى احدى المناسبات انقطعت هذه الاتاوة ، لذلك أرسل الرسالة المتعجرفة التالية الى امبراطور القسطنطينية :

بسم الله الرحمن الرحيم

من هـــارون أمير المؤمنـــين ، الى نيقفورس Nicephorus كلب الروم . قرأت خطابك ، يا ابن الكافرة . وجوابى لن تسمعه باذنيك ، وانما ستراه بعينيك والسلام .

وتلت تلك الرسالة حملة عسكرية ناجحة أجبرت البيزنطيين على معاودة دفع الاتاوة للعرب .

كان عهد هارون الرشيد ، عصر نشاط فكرى جدير بالذكر ، اذ تم فيه استيعاب وامتزاج التراث الثقافى فى بلاد اليونان ، وروما ، وبلاد الفرس والهند . وشيد ابن هارون وخليفته معهدا فكريا عظيما فى بغداد ــ بيت الحكمة ــ الذى صار على الفور مكتبة ، وجامعة ، ومركزا ثقافيا . ومن ثم فلقد دفع العباسيون الحضارة الى مستوى ابعد بكثير عما وصلت اليه فى عهد أسلافهم الأمويين . ونشأت الثقافة الاسلامية فى عصر تميز بالسرعة الملحوظة . وفى الوقت الذى كان فيه شارلمان ، يناضل بكل جهد مضنى من أجل نشر الحضارة بين الفرنجة Franks أشباه المتبربرين ، كان هارون يتربع على عرش بغداد التى كانت تتألق بهاءا .

ويشير قيام الدولة العباسية الى انتهاء استقلال الاستقراطية للسلطة السياسية . وفى ذلك الحين كانت الحكومة تحت رحمة خليط من الأجناس والشعوب ، الذين كانوا من أصول متواضعة فى أغلب الأحوال . وعلق على ذلك أحد الارستقراطيين الساخطين بقوله : « اللهم اهدنى الى بلد ، لا أرى فيها أبناء سفاح » . ونقلت الحكومة العباسية عن الطرائق الادارية البيزنطية والفارسية الى حد كبير . وأدار شئون الدولة من العاصمة فى بغداد جهاز بيروقراطى معقد ومركب ، الذى ظل على اتصال وثيق بالأقاليم

من خـلال حشد كبير من جامعى الضرائب ، والقضـاة ، والسعاة ، والجواسيس · ووصلت الحكومة العباسية الى التمييز من الناحية الثقافية ، بالرغم من أنها لم تكن أكثر حساسية تجاه تحقيق الحاجات الملحة للعدالة الاجتماعية عن الحكومات الأخرى والمعاصرة لها · وأخذ الحكم العباسى على عاتقه تنفيذ الرى الانتشارى ، وتجفيف المستنقعات تدريجيا ، وبذلك زادت مساحات الأراضى القابلة للزراعة · بيد أن حالة المزارع ، والفاعل الكادح ظلت منخفضة ، نتيجة لمنافسة الأعداد الوفيرة من العبيد · وكان لتألق الثقافة العباسية أثرا طفيفا على الجماهير الكادحة ، الذين بالاضافة لدينهم الاسلامى القائم على التمسك الشديد بتعاليمه ، ظلوا يمارسون نفس أساليب الحياة التى قد عرفوها منذ ألفى سنة مضت ·

ان الثورة العباسية التى قامت سنة ٧٥٠ م تبعتها سلسلة طويلة من الانحلال السياسى ، وذلك لتخلص اقليم بعد الآخر من سيطرة الخليفة فى بغداد · فحتى أيام هارون الرشيد التى تميزت بالقوة والازدهار كانت الأقاليم الغربية البعيدة – أسبانيا ، والمغرب ، وتونس – تحت حكم أسر محلية مستقلة · وفى أواخر القرن التاسع اكتسب الاتجاه نحو الانحلال السياسى قوة دفع لأن مصر ، وسوريا وشرق بلاد الفرس (ايران) تخلصوا جميعا من السيطرة العباسية · وفى ذلك الحين ، كان العباسيون يفقدون سيطرتهم على حكوماتهم نفسها فى بغداد شيئا فشيئا · واغتصب قـادة الجيش الطموحون السلطة رويدا رويدا ، وفرضوا سيطرتهم على جهـاز الضرائب ، وأجهزة الحكومة الأخرى · وظلت الدولة العباسية قائمة حتى سنة ١٢٥٨ م الى أن تعرضت بغداد للخراب والدمار على يد المغول ، بيد أن الخلفاء أصبحوا رهائن فى أيدى القائد العام للجيش وحرس القصر منذ سنة ٩٥٠ م ·

الثقافة الاسلامية :

وطوال هذه الفترة التاريخية للانحلال السياسى ظل العـالم الاسلامى متحدا بفضل وحدة اللغة ، والثقافة ، والعقيدة · واستمر العالم الاسلامى يناضل بقوة ضد بيزنطة وغالبا ماحقق نجاحا فى السيطرة على البحـر المتوسط ، ونجحوا لفترة من الوقت فى احتلال الجزر الرئيسية مثل كريت ، وصقلية ، وسردينيا ، وكورسيكا ·

والواقع أنه فى ذلك الحين كان كل سكان سوريا ، ومصر ، وشمال افريقيا قد اعتنقوا الاسلام · برغم أن هذه الأقطار قد قامت ذات مرة بدعم الكنائس المسيحية المتحمسة والمنظمة الجيدة · وفى العادة لم يضطهد المسلمون المسيحيين ، وانما فرضوا عليهم الضرائب · والواقع أن عبء الضرائب الذى استمر فترة طويلة كان وسيلة اكثر فاعلية فى التحول الى الاسلام عما كان يمكن أن تؤديه الاضطهادات القاسية ·

وظلت النهضة الفكرية الرائعة فى عصر هارون الرشيد قائمة بكل قوتها · وأصبح العربى الذى عاش فى الصحراء ولم تتح له فرصة تلقى المعرفة من قبل وريثا لثقافة بلاد اليونان ، وروما ، وبلاد الفرس ، والهند · وفى مدى أقل من قرنين على موت النبى (صلى الله عليه وسلم) ، كانت الثقافة الاسلامية ، قد وصلت الى مستوى الحضـــارة الناضجة وذات المستوى الرفيع ·

وكان الظهور القوى للحضارة الاسلامية نتيجة لنجـاح العرب فى استيعاب التراث الحضارى للشعوب الخاضعة للسيادة الاسلامية وتوظيفهم لهذا التراث فى امتزاج ثقافى جديد وفريد على حد سواء · واذا كان الاسلام قد اقتبس ، الا أن هذا الاقتبـــاس لم يكن دون استيعاب على الاطلاق · وما نقله الاسلام عن الحضارات السابقة قام بتحويله الى الحد الذى صار منسوبا اليه ·

وصاحب الانحلال السياسى فى القرنين التاسع والعاشر انتشار النشاط الثقافى فى كل أنحاء العالم الاسلامى · وعلى سبيل المثال ، فان قرطبة ، خلال القرن العاشر الميلادى ، والتى كانت عاصمة لأسبانيا الاسلامية حققت ثروة هائلة ، وصارت مركزا لازدهارها الثقافى الرائع · وكانت قرطبة بغداد أخرى ، بعد أن صار عدد سكانها نصف مليون أو اكثر · ولا يمكن أن تضاهيها أى مدينة أخرى فى غرب أوربا حتى عن بعد بالنسبة لعـدد سكانها ، وجمالها ، أو نظام ادارة شئونها المحلية كما أن مساجدها الكبيرة ، وقصورها أو قنوات المياه بها ، والحمامات ، وأسواقها ومحلاتها التجارية التى تعج بالنشاط ، وفوق كل هذا ، روعتها ، وقصورها المنتشرة التى بها آجر ملون له أضواء لامعة ، والمدينة محاطة بالمآذن الجميلة ، ونافورات المياه كل هذا جعل قرطبة أعجوبة العصر ·

وعبر كل العالم الاسلامى ، من قرطبة الى بغداد ، والى أقصى الشرق كان العلماء والفنانون المسلمون يطورون التراث المثمر للحضارات السابقة. وقام المهندسون المعماريون بتحويل الأنماط اليونانية - الرومانية الى أشكال جديدة ومميزة ورائعة . وقام الفلاسفة بدراسة وتوضيح كتابات أفلاطون وأرسطو برغم عداء رجال الدين المتزمتين . وقام الأطباء بتبسيط مذاهب جالينوس الطبية القديمة وأسلافه الاغريق ، وقاموا بوصف وتحديد الأدوية الشافية الجديدة . وقام علماء الفلك بتحسين نظام بطليموس المتعمق بمركز الأراضى ، وأعدوا جداول دقيقة لحركات الكواكب السيارة ، وأطلقوا أسماء عربية على النجوم ، مثل النسر الطائر Altair ، وذنب الدجاجة Deneb والثـــور Aldebaran ، وهى التى تستعمل حتى يومنـــا هذا . وابتكر عمر الخيام الشاعر وعالم الفلك الفارسى المشهور تقويما فريدا فى وقته . واقتبس علماء الرياضيات المسلمون من بلاد اليونان والهند على حد سواء بأسلوب متسم بالابداع . ومن الاغريق تعلم العرب علم الهندسة وحساب المثلثات ، ونقلوا عن الهندوس مايعرف حاليا بالأرقام العربية ، والصفر ، وعلم الجبر ، الذى انتقل فى نهاية الأمر الى الغرب ليحـدث تغييرا أساسيا فى علم الرياضيات .

غير أن المثقفين والعلماء المسلمين ، بالرغم من استيعابهم التـــام للثقافات القديمة ، وملاحظاتهم الدقيقة للعالم الذى حولهم ، فانهم كانوا بصفة عامة غير موفقين ليحلوا محل أسلافهم فى أى مجال أساسى . لقد قاموا بالاختصار ، والتفسير والايضاح وأعادوا صياغة المعلومات . بيد أنهم قدموا الدليل والبرهان على القليل من الآراء العلمية الأساسية . اذ لم يقدموا أى أنظمة جديدة للفكر العقلانى ليحل محل أفكار أرسطو وأفلاطون ، وجالينوس - واذا كانوا قد عرفوا أنهم فاقوا بطليموس الا أنهم لم يصلوا الى مستوى كوبر نيكوس Copernicus .

ويشكل نفس هذا القصور فى التفكير بطريقة خـلاقة فى العبارات المتماسكة الكبيرة سمة مميزة للأدب الاسلامى . وأما النثر الغربى فهو عبارة عن شذرات ، وعرضى ، اذ تأخذ النادرة الفردية حق الأسبقية على القصة الطويلة . وحاول الشعراء المسلمون كتابة القصائد القائمة بذاتها على أن يؤلفوا قصائد طويلة ، ومترابطة منطقيا . والواقع أن رباعيات الخيام يبدو أنه تم نظمها وفقا للترتيب الأبجدى .

ومع ذلك لا يمكن انكار المأثر الضخمة للاسلام · لقد فتح العرب بلادهم الشاسعة بجيوشهم ، وعقيدتهم وبلغتهم · وفى النهاية ، فان تعبير «عربى» أنطبق على كل مسلم من أســبانيا الى الهند ، بصرف النظر عن جذوره العرقية · وفى نطاق الاطار اللغوى والدينى الذى طوقها تماما قدمت الثقافة العربية حافزا جديدا ، واتجاها نحو شعوب الامبراطوريات الســابقة أصحاب الحضارات العريقة · فالتراث الاسلامى الثرى كان قادرا فى يوم ما على أن يقدم غذاء نفيسا للنهضة الغربية المتجددة ·

الجدول الكرونولوجى الاسلامى

- محمد (صلى الله عليه وسلم) : حوالى (٥٧١ ــ ٦٣٢ م) ·
- الهجـــرة : ٦٢٢ م ·
- الفتوحات الأولى : ٦٣٢ ــ ٦٥٥ م ·
- الحرب الأهلية : الأمويون ضد على : ٦٥٥ ــ ٦٦١ م ·
- العهد الأموى : الفتوحات الجديدة : ٦٦١ ــ ٧٥٠ م ·
- حصار العرب للقسطنطينية : ٧١٧ ــ ٧١٨ م ·
- هزيمة العرب عند تـــور : ٧٣٣ م·
- العهد العباسى : ٧٥٠ ــ ١٢٤٨ م ·
- هارون الرشيد : ذروة السلطة السياسية : ٧٨٦ ــ ٨٠٩ م ·

٨ ـ أوربا الكارولنجية :

أوربا الجديدة :

لقد لاحظنا من قبل التناقض المدهش بين بغداد فى عهد هارون الرشيد وبلاد الفرنجة فى عهد شارلمان ٠ انه تناقض بين حضارة تجارية ، غنية ، ومثيرة للاعجاب وبين شعب زراعى شبه متبربر يناضل من أجل ترابط سياسى وفكرى ٠ بيد أن غرب أوربا فى القرن الثامن ، برغم بعده الشديد عن المستوى الحضارى لروما القديمة أو بغداد المعاصرة ، فانه كان يتحمل الكثير من أجل رفع شأن المكانة المهمة من أجل مستقبل أفضل ٠ ولأول مرة كانت أوربا الغربية قد بدأت توضح للقليل من الأوربيين أنهم شعب قـائم بذاته ، مشترك فى حضارة مميزة وجديدة ، بجذورها فى أثينا ، وأورشليم ، وروما ، وألمانيا ، مترابطة معا ـ أكثر مما هو عليه حال المسلمين ـ وذلك بوجود عقيدة مشتركة ، ولغة مشتركة رفيعة المستوى ، وتراث مشترك ٠ وظهرت أوربا الجديدة من الناحية الروحية بفضل البندكتيين المنتشرين فى كل مكان ، واتحدت سياسيا بفضل أسرة ملوك الفرنجة الكارولنجيين الذين اشتق اسمهم من شارل الكبير ، أو شارلمان الشهير ٠

وتختلف الامبراطورية الكارولنجية اختـــلافا بينا عن الامبراطورية الرومانية الغربية القديمة ٠ اذ كانت الامبراطورية الكارولنجية أرضا دون وجود مدن كبيرة ، وزراعية بالكامل فى اطار نظام اقتصادى مع تمركز ثقافتهـــا فى الدير والكنيســـة الكبرى فى الأبرشية Cathedral أكثر من السوق أو الساحة العامة بالمدينة الرومانية Forum ٠ وبالرغم من أن شارلمان مد سلطته الى ايطاليا ، فان عاصمته وقلبه ظلا فى شـمال بلاد الفرنجة ٠ وخلاصة القول فان أوربا الجديدة لم تعد تواجه البحـــر المتوسط ، اذ كان محورها قد انتقل شمالا ٠

تكنولوجيا الزراعة :

ان ملامح البهجة النسبية لعصر شارلمان كانت نتاجا للعمليات الخلاقة التى كانت ذات أثر فعال خلال القرون المظلمة السابقة ٠ ومن وجهة النظر الاقتصادية فان أكثر تلك العمليات أهمية واثارة للانتباه هى تطور طريقة

الزراعة الجديدة التى عملت على زيادة انتاجية أو غلات الأراضى الصالحة للزراعة فى شمال أوربا فوق المستوى للامبراطورية الرومانية القديمة •

وعند بداية القرن الثامن الميلادى بطل استخدام محراث الحفر العقيم الذى استخدم فى الأزمنة الرومانية ، وذلك فى كل مكان بالمناطق الشمالية من الغرب المتبربر واستبدل بمحراث ثقيل له عجلات ، وحديدة المحراث القاطعة ، وشفرة المحراث والدجر (حديدة عقفاء فى المحراث ترفع التربة وتقلبها) التى كانت تخترق التربة بعمق وتسحقها وتطرحها جانبا ، وبذلك تحدث الضلوع (الضلع هو شقة مرتفعة متطاولة فى أرض محروثة) ، والأخاديد • وكان تطور هذا المحراث الثقيل معقدا ومتدرجا • وربما دخلت الفكرة الأساسية غرب أوربا على يد السلاف Slaves فى القرن السادس أو السابع • ان ادخاله فى الغرب فتح المجال لوجود مناطق شاسعة من التربة الوافرة والخصبة التى لم يكن المحراث القديم قادرا على احداث أثر فيها ، كما عزز الاتجاه نحو تقسيم الحقول الى مساحات طويلة من الأرض يحرثها فريق يتكون من ثمانية ثيران وفقا لحاجة المحراث الثقيل • وفى ذلك الحين شارك الفلاحون بعضهم بعضا فى استخدام ثيرانهم ، وفى أعمالهم لكى يستخدموا المحراث الجديد ، وبهذا العمل وضعوا الأساس للمجتمعات الزراعية التعاونية فى أوربا العصور الوسطى بمجالس القرية القوية لتنظيم توزيع العمل والثروة •

وان الزيادة السريعة فى الانتاج الناتجة عن ادخال المحراث المركب الثقيل جعل من الممكن احداث تغير جوهرى فى طريقة زراعة المحاصيل • وفى العصر الكارولنجى كان معظم شمال أوربا ، قد بدأ يأخذ بنظام الدورات الزراعية الثلاث بدلا من نظام الدورتين الزراعيتين التقليديتين فى الأزمنة الرومانية • وفيما مضى كانت الزراعة التقليدية تنقسم الى حقلين ، أحدهما يزرع كل عام والآخر يترك محروثا العام الثانية من غير زرع رغبة فى اراحته • بيد أنه وجد التربة الزراعية الخصبة الشمالية التى دخلها المحراث الضخم ليست فى حاجة الى سنة كاملة للراحة بين المحاصيل • وبدلا من ذلك ؟ فان هذه الأراضى كانت فى الغالب مقسمة الى ثلاثة حقول ، كل منها يخضع لثلاث دورات كل عام ؛ زراعة الخريف ، وزراعة الربيع ، والفترة الثالثة تترك الأرض من غير زرع رغبة فى اراحتها • وان عملية

التحول من نظام الحقلين الى الحقول الثلاثة كان لها اثر مهم فى الاقتصاد الأوربى ، لأنها عملت على زيادة انتاج المواد الغذائية بشكل مثير للانتباه ، وجلبت قدرا من الازدهار الاقتصـــادى لشمال أوربا · ومن المرجح أن المحراث الثقيل ، ونظام الحقول الثلاثة لم يكن من الممكن استخدامها بفعالية فى تربة جنوب البحر المتوسط السهلة التفتت والجافة ، لذلك ساعد ذلك على الاتجاه شمالا فى التكوين الاقتصادى والثقافى لأوربا الكارولنجية ·

واستفاد عصر شـــارلمان من الاتجاه نحو الميكنة اذ ان الطاحونة المائية ، التى كانت تستعمل بين الفينة والفينة فى العصور القديمة لطحن الغلال ، صارت تستعمل على نطاق واسع فى ذلك الحين ، وكانت مظهرا تقليديا للمزرعة الكارولنجية · وخلال القرون التى تلت موت شارلمان دخلت الطاحونة المائية استعمالات جـديدة – لتزويد صناعة النسيج النـاهضة بالطاقة المحركة ابان القرن الحادى عشر ولدفع رؤوس مطارق الحدادين · ومن ثم استمر التقدم التكنولوجى الميروفنجى ، الكارولنجى فى القرون التى تلت · وبحلول سنة ألف ميلادية ، انتشر وضع حدوة للفرس بشكل تدريجى ، وكذلك طوق بعنقه بشكل فعال ، وكلاهما وفدا من سيبريا Siberia وأواسط آسيا مما جعل من الممكن تماما ابدال الثور بالحصان الأكثر نشاطا بشكل تدريجى ، حتى صار الحصان ، حيوان الجر الثقيل فى المزارع بشمال غرب أوربا · وفى القرن الثانى عشر ظهرت الطاحونة الهوائية للمرة الأولى فى الريف · وأدت هذه المظاهر الجديدة للتقدم الى انتاجية أكبر وثابتة ، وتشكل أساس الحضارة المزدهرة والوافرة لشمال أوربا فى العصور الوسطى العالية (حوالى ١٠٢٥ – ١٣٠٠ م) · وبدأت القواعد الاقتصادية الرئيسية المبنية على طاقة العبيد تضمحل رويدا رويدا حيث أن القوى البشرية أفسحت المجال للحيوان والقوى المحركة أكثر فأكثر ·

واستفادت أوربا الكارولنجية كثيرا من المرحلة الباكرة لهذه الثورة التى استمرت طويلا فى التكنولوجيا الزراعية ، بيد أن المزارعين فى العصر الكارولنجى ظلوا على مقربة من مستوى الكفاف · اذ ان وجود سنة واحدة قاسية كان كافيا لتحطيمهم · وابان مجاعة سنة ٧٩١ م الشديدة ، على سبيل المثال ، أكل الفلاحون لحم البشر بل قيل أنهم أكلوا لحم بعض أفراد أسرهم · وكانت الأحوال تتحسن لكن ببطء شديد ·

النهضة السياسية الفرنجية :

تدهورت سلالة كلوفس الحاكمة ، من الميروفنجيين عبر القرون ، بعد أن تحولوا من حكام مستبدين متعطشين الى الدماء ، الى مجرد مهرجين بالبلاط يضعون التيجان على رؤوسهم · وبحلول سنة ستمائة للميلاد ، انتقلت السلطة الحقيقية الى الطبقة الأرستقراطية · وفى ذلك الحين وكنتيجة للسياسة الميروفنجية الخاصة بتقسيم السلطة الملكية وأراضى التاج بين أبناء الملك المتوفى ، تجزأت الأراضى الفرنجية الى مناطق متميزة عديدة ، كانت نيوستريا Neustria (باريس وشمال غرب فرنسا أكثرها أهمية ، وأوسترازيا Austrasia (الشمال الشرقى الذى يكتسب الخصائص الألمانية الى حد كبير ، وتشمل أراضى الراين Rhineland وبورجندى Burgundy فى الشمال الشرقى) ·

وخلال القرن السابع الميلادى استولت أسرة أرستقراطية قوية على السلطة فى أوسترازيا ، عرفت فيما بعد بالكارولنجيين وأصبح الكارولنجيون « رؤساء بلديات القصر » ونعنى بذلك أنهم سيطروا على الوظائف الادارية فى البيت الملكى الميروفنجى وجعلوا هذا الأمر وراثيا · ولما بدأ الميروفنجيون فى الضعف وعدم المقدرة أصبح الكارولنجيون وسادة أوسترازيا الحقيقيين · وعمل رئيس القصر الكارولنجى على زيادة سلطته عن طريق جمع عدد كبير من المحاربين المدربين حوله وفقا للتقليد الجرمانى القديم المعروف باسم كوميتاتوس Comitatus · وأصبح هؤلاء الرجال أتباعا له Vassals ونعنى بذلك أنهم وضعوا أنفسهم تحت حمايته ورعايته ، وأقسموا يمين الولاء له · وكان لأفراد الطبقة الأرستقراطية الآخرين أتباعهم الخاصين بهم ولمسلحين ، بيد أن الكارولنجيين سيطروا على الموقف بالكثرة الكبيرة لعدد أتباعهم · وفى سنة ٦٨٧ م قاد رئيس القصر الكارولنجى جيشا أوسترازيا فى موقعة حاسمة ضد النيوستريين · ومنذ ذلك الحين فصاعدا صار الكارولنجيون الأسرة المسيطرة فى كل بلاد الفرنجة · وبوجود نيوستريا تحت سيطرتهم ، مالت بورجوندى الى الاتفاق معهم · وعندما اندفع المسلمون فى بلاد الغال فى أوائل سنة ٧٣٠ م ، واجهوا شعبا فرنجيا متحدا تحت قيادة رئيس القصر الكارولنجى القوى والمقتدر ، شارل مارتيل Charles Martel ـ « المطرقة » (٧١٤ ـ ٧٤١ م) ·

ولم يقم هذا المحارب المتحجر القلب والذكى برد المسلمين على أعقابهم فى موقعة تور Tours (٧٣٣ م) فحسب وانما حقق النصر تلو النصر على المسلمين والمسيحيين على حد سواء ، مدعما بذلك سلطته على الفرنجة وموسعا حدود دولة الفرنجة . وعلى شاكلة أسرة آدم Adams فى التاريخ الأمريكى ، كان للكارولنجيين فى القرنين السابع والثامن الحظ السعيد فى تقديم ممثلين مقتدرين الى حد بعيد لعدة أجيال . وكان والد مارتيل قد نجح فى هزيمة نيوستريا ، أما مارتيل نفسه ، فقد هزم المسلمين . والواقع أنه هزم كل من دخل معه فى معركة . وحصل ابنه بيبين القصير Pepin the Short على تاج الفرنجة وحظى حفيده شارلمان برياسة الامبراطورية .

ومن المدهش أن الكارولنجيين اتبعوا نفس سياسة تقسيم الارث بين الورثة الذكور ، وهى التى أضعفت الميروفنجيين كثيرا . وهنا أيضا ، لعب الحظ الكارولنجى دورا حاسما فى التاريخ ، لأنه حدث أن رؤساء البلديات الكارولنجيين - وفيما بعد الملوك - كان عندهم وريث واحد فقط عبر عدة أجيال . وتحققت الوحدة الفرنجية لا عن طريق السياسة ، ولكن رغم أنفها . فعندما مات شارل مارتل ، تم توزيع أراضيه وسلطته بين ابنيه ، كارلومان Carloman ، وبين القصير . غير أن كارلومان انضم الى دير بندكتى سنة ٧٤٧ م بعد أن أمضى فى الحكم ست سنوات ، تاركا الميدان الى أخيه بيبن . ويمثل كارلومان نوعا جديدا للحاكم المتبرر ، المتأثر بشدة بالتيارات الروحية فى عصره ، والتى بشرت تقواه بوجود عدد لا حصر له من الملوك القديسين فيما بعد . وكانت الثقافة المسيحية والسلطة الجرمانية تقتربان من بعضهما البعض .

الاصلاح البندكتى :

ان امتزاج هذين العالمين تحقق الى حد كبير على يد بيبن القصير (٧٦٨ - ٧٤١ م) ، الذى دعم النهضة المسيحية والبندكتية فى بلاد «الفرنجة» وحقق تحالفا له نتائج بعيدة المدى بين الملكية الفرنجية والكنيسة الكاثوليكية . وفى أوائل القرن الثامن الميلادى كانت الكنيسة الفرنجية قد تطرق اليها الفساد ، والفوضى ، والجهل - وكل محصلة قرون عديدة من الحكم الميروفنجى الذى اتسم بسوء الادارة . فكثير من المناطق لم يكن بها قساوسة على الاطلاق . كما لم يتخل العديد من الفلاحين عن وثنيتهم .

وأما عن القساوسة أنفسهم ، فانهم قدموا الأضاحى من الحيوانات للآلهة ، واحتفظوا بالخليلات فى بيوتهم ٠ وخلال سنة ٧٤٠ م قاد القديس بونيفيس St. Boniface جماعة من البندكتيين الذين كرسوا حياتهم من أجل اصلاح الكنيسة الفرنجية ٠ ولعدة سنوات مارس بونيفيس أعمال التبشير بين الجرمان الوثنيين ، واتضح له أن من الواجب العمل داخل العالم المسيحى بنفس القدر فى خارجه ٠ وبونيفيس ، مثل البندكتيين الآخرين ، كان مرتبطا ارتباطا وثيقا مع البابوية وكان يعمل فى ألمانيا تحت قيادة بعثة تبشيرية بابوية ٠ وفى ألمانيا شيد بونيفيس ورفاقه العديد من الأديرة المهمة التى صارت مراكز روحية وثقافية مهمة فى الكنيسة الجرمانية ٠ وفى بلاد الفرنجة أصلح بونيفيس الأديرة وفقا لمبادىء النظام الديرى البندكتى ٠ ورأى ضرورة قيام المدارس الديرية ، وعمل على تطوير النظام الأبرشى Parish System على نحو ملائم ، لتبليغ الانجيل الى سـكان المناطق الريفية ٠ وهذه البعثة التبشيرية العظيمة ، والتى كانت ثمرة للثقافة البندكتية الأنجلو سكسونية Anglo-Saxon للقرن السابق ، وضعت الأساس لثقافة مسيحية متجددة لعصر شارلمان ٠

التحالف الفرنجى ـ البابوى :

من المحتمل أنه بناء على مساعدة بونيفيس طلب بيبن القصير مساعدة البابوية ليضع على رأسه التاج الفرنجى ٠ وكان الملوك الميروفنجيون يعيشون خلف الظل ولا قيمة لوجودهم ٠ ومع ذلك ظلت أسرتهم محتفظة بنفوذ ضخم بصفة دائمة ، وهو النفوذ الذى كانت تتمتع به الأسرة المالكة الجرمانية ٠ واذا ماكان عند الكارولنجيين أمل فى أن يحلوا محل الميروفنجيين على العرش الفرنجى ، فان عليهم أن يتصلوا بأعظم القوى المقدسة المتاحة فى عصرهم : ألا وهى البابوية المقدسة ٠ وكان البابوات من ناحيتهم يبحثون منذ زمن بعيد عن حليف قوى ، ومحل ثقة ، ضد البيزنطيين الغير جديرين بالثقة ، وضد اللومبارديين Lombards المعتدين فى ايطاليا ٠ وبحلول سنة ٧٥٠ م بلغت مشاكل البابوية مرحلة الأزمة ٠ فالمؤيدون السياسيون للبابوية فى ايطاليا ، والأباطرة البيزنطيون ، قد اعتنقوا مايشبه المذهب الدينى الخارج على التعاليم المسيحية ، وهو المعروف باسم عبادة التماثيل Iconoclasm وهذا المذهب أدان استعمال كل التماثيل والصور الخاصة بالمسيح والقديسين عند ممارسة طقوس التعاليم المسيحية ٠ وكان الشرق

البيزنطى منقسما تقريبا الى شطرين بسبب الخلاف حول تحطيم التماثيل والصور الدينية ، بينما كان الغرب معاديا لهذا الاتجـــاه الجديد بشكل جماعى • غير أن البابوية لم تستطع الاتجاه لطلب مساعدة اللومباريين الذين مازالوا على بربريتهم ، والذين كانوا سنة ٧٥٠ م فى حالة من الثورة من حين لآخر ويهددون ليس فقط الممتلكات البيزنطية فى ايطاليا ولكن أيضا الأراضى التابعة للبابا نفسه • وفى سنة ٧٥١ م سقطت رافنـــا Ravenna العاصمة البيزنطية فى ايطاليا فى أيدى اللومبارديين • ولم تكن البابوية فى أمس الحاجة الى بطل أكثر من مثل هذا الوقت •

وفى العام نفسه الذى سقطت فيه رافنا وجد البطل ، اذ كان بيبين القصير قد أرسل مبعوثيه الى روما ومعهم السؤال التالى :

« هل من الصواب أن يستمر حاكم لا حول له ولا قوة حاملا لقب ملك ؟ » فأجابت البابوية بالنفى ، ومن ثم تم الاتفاق • ففى سنة ٧٥١ م تم تتويج بيبين ملكا للفرنجة ـ على يد بونيفيس نفسه ، وبذلك صـــار تقليدا ـ وذلك بعد أن تم حشد مابقى على قيد الحياة من الميروفنجيين عى أحد الأديرة • وفى سنة ٧٥٤ م سافر البابا شمالا ليمسح العاهل الجديد بزيت البركة ، وبذلك نقـــل كل وازعه الروحـــى الى الدولة الكارولنجية الناهضة • وفى مقـــابل ذلك ، قاد بيبين جيوشـــه الى ايطاليـــا وهزم اللومبارديين ، وأعطى البـــابوية جزءا كبيرا من وسط ايطاليا • وهذه « المنحة التى قدمها بيبين » خلصت البابوات من ضغوط اللومبارديين المنذرة بالسوء كما أصبحت القاعدة الأساسية للولايات البابوية التى قدر لها البقاء كخاصية مميزة للسياسة الايطالية حتى القرن التاسع عشر • ومنذ ذلك الحين تم انقاذ البابوية من الأخطار التى كانت معرضة لها • ولقد ظل الأمر ينظر اليه على أنه اذا ماكان فى مقدور البابوات منع بطلهم الجديد من أن يصبح سيدهم •

شـــارلمان (٧٦٨ ـ ٨١٤ م) :

كان بيبين القصير ، مثل كل الملوك الناجحين فى العصور الوسطى الباكرة قائدا مقتدرا • وكأول ملك كارولنجى فانه اتبع تقاليد والده الحربية ، وطرد المسلمين من أكويستين Aquitaine (اقليم يقع جنوب غرب

فرنسا الحالى) وترك بلاد الفرنجة أكثر اتساعا، وأفضل تنظيما عما وجدها٠ لقد كان بيبين ملكا عظيما بيد أن ابنه تفوق عليه لأنه كان أعظم منه تماما ٠ وكان شارلمان : (٧٦٨ ـ ٨١٤ م) قائدا حربيا ناجحا بشكل غير عادى ، ورجل دولة له قدرة نادرة ، ومحبا للعلم ، وملكا يتمتع باحساس عميق بالمسئولية من أجل رفاهية المجتمع الذى يحكمه ٠ وفيما يتعلق بالناحية الأخيرة ، فانه يمثل تقدما جديرا بالذكر على أسلافه الميروفنجيين ، الذين كانت علاقتهم بدولتهم شيئا لا يذكر بالنسبة لكرمه ٠

وتفوق شارلمان على معاصريه من الناحيتين الرمزية والواقعية ٠ وكان طوله ستة أقدام وثلاث بوصات ونصف بوصة ، ومكتنز الرقبة ، ومنتفخ البطن غير أنه كان مهيبا برغم كل ذلك ٠ واستطاع أن يكون رقيقا وثرثارا ، بيد أنه استطاع أيضا أن يكون متحجر القلب وقاسيا ، وعنيفا ، ونظر اليه شعبه بالاعجاب والخوف ٠ وامتلك شارلمان ورعا قويا ، كان ظاهريا ، شجعه على بناء الكنائس ، وجمع رفات وآثار القديسين ، ويناضل ببطولة لاحياء الثقافة المسيحية فى بلاد الفرنجة ، بيد أن ذلك لم يمنعه من ملء بلاطه بالجوارى ، والشخصيات الأخرى ذات السمعة السيئة ٠ وباختصار فبالرغم من عبقرية شارلمان العسكرية والسياسية ، فانه كان رجلا يعيش عصره ، ويتناغم مع القوى التقدمية ، ومع ذلك فانه لم يكن متعلقا بالماضى المتبربر على الاطلاق ٠

وقبل كل شىء كان شارلمان ملكا محاربا ٠ ففى الحقيقة قاد جيوشه فى حملات كل عام ٠ واعتنق فكرة ارسال البعثات التبشيرية رويدا رويدا ٠ ووضع برنامجا لتوحيد وزيادة نفوذ الغرب المسيحى ٠ وبناء على توصية البابوية ، تتبع شارلمان خطوات والده فى ايطاليا ، حيث هزم اللومبارديين نهائيا سنة ٧٧٤ م ٠ ودمجهم فى دولته النامية ٠ ومنذ ذلك الحين فصاعدا استعمل لقب « ملك الفرنجة واللومبارديين » وفيما بين سنة ٧٧٨ م و ٨٠١ م، قاد شارلمان سلسلة من الحملات ضد المسلمين فى أسبانيا ، وأقام منطقة واقعة على الحدود ، وهى « منطقة الحدود الأسبانية » ، على الجانب الأسبانى من جبال البرانس ومركزها برشلونة Barcelona ٠ وفى سنة ٧٨٧ م ، هزم بافاريا وضمها الى دولته ونظم منطقتها فى الأجزاء الشرقية البعيدة فحولها الى حاجز دفاعى متقدم ضد السلاف ٠ وكانت هذه المنطقة

المقامة على الحدود الشرقية النواة لدولة جديدة عرفت فيما بعد باسم النمسا Austria ، وفى سنة ٧٩٩ م ، استمر شارلمان فى التقدم تجاه الجنوب الشرقى ، محطما بذلك دولة الآفار الغنية ، والتى قامت على السلب والنهب ، وأقلقت شرق أوربا لفترة طويلة ٠

غير أن معظم مجهودات شارلمان الحربية والتى استمرت الى فترة طويلة كانت موجهة ضد السكسون Saxons الوثنيين فى شمال ألمانيا ٠ ومن أجل تحقيق هدف مزدوج بشأن حماية أراضى الراين الفرنجية ، ومن أجل ضم هذه الأرواح الى الكنيسة قام شارلمان بحملاته لمدة زادت عن ثلاثين عاما (٧٧٢ ــ ٨٠٤ م) ٠ وألحق بهم الهزيمة ، وأجبرهم على اعتناق المسيحية بالقوة عندما قاموا بالثورة عشية انسحاب جيوشه من هناك ٠

وفى نوبة من الغضب الجـــامح أمر شـــارلمان باعدام اربعة آلاف وخمسمائة من السكسون الذين لا يدينون بالمسيحية ، وتم ذلك كله فى يوم واحد فحسب ٠ وتحول اليوم بأكمله الى سفك للدماء سنة ٧٨٢ م ٠ ونتيجة لذلك ، استسلم الشعب السكسونى للاكراه الوحشى الذى مارسه جنــود الفرنجة والرهبان البندكتيون ٠ وبحلول سنة ٨٠٠ م تمت سيطرة الفرنجة على الشعب السكسونى بشكل تام ، وفى العقود التالية تشربت ارواحهم بالتعاليم المسيحية رويدا رويدا ٠ وبعد ذلك بقرن ونصف كان السكسون يحكمون اقوى وأعظم دولة مستنيرة فى أوربا ٠

امبراطورية شارلمان :

نجحت جيوش شارلمان فى دمج أراضى وسط ألمانيـــا الشاسعة فى حضارة جديدة بينما فشلت فرق أوغسطس العسكرية فى ذلك ٠ ولم يعد شارلمان مجرد ملك فرنجى وانما صار سيدا على الغرب بحلول سنة ٨٠٠ م ٠ وظلت دويلات مسيحية قليلة مثل الممالك الأنجلو ــ سكسون بانجلترا خارج نطاق سلطة شارلمان ، بيد أنه مع وجود تلك الاستثناءات القليلة الشأن نسبيا ، فان نفوذ شارلمان السياسى امتد فى كل أنحاء العـــالم المسيحى الكاثوليكى ٠ والواقع أنه كان امبراطورا حقا وصدقا ٠ وفى يوم الميلاد سنة ٨٠٠ م تم الاعتراف الرسمى بانجازاته الرائعة عندما وضع البـــابا التاج الامبراطورى على رأسه وناداه ، « امبراطور الرومان » ومن وجهة

النظر القانونية ، فان هذا العمل المثير والصانع بعهد جديد أعاد الى الوجود الامبراطورية الرومانية بعد فترة انقطاع بلغت ثلاثمائة وأربع وعشرون عاما ٠

وان التتويج الامبراطورى لشارلمان من الصعب تفسيره ٠ كما أثار جدلا عنيفا بين المؤرخين ٠ وعلى مثال تتويج بيبين القصـــير ملكا سنة ٧٥١م ، فمن المحتمل أن ذلك يمثل تلاحما بين المصالح البابوية والكارولنجية٠ ولعدة سنوات كان شارلمان يحاول تحقيق منزلة رفيعة مساوية لمنزلة أباطرة بيزنطة ٠ ففى سنة ٧٩٤ م ألغى ممارسة التقليد الذى جرى بين الملوك الجرمان ، بشأن التنقل الدائم من اقليم الى آخر ، وأقام عاصمته الدائمة فى مدينة آخن A achen ٠ وهنا سَعى الى ايجاد قسطنطينية خاصة به ـ اذ أطلق على آخن « روما الجديدة » ٠ وتم بناء كنيسة رائعة على النمط البيزنطى ـ شـــبيهة بكنيســـة أيا صوفيـــا Sancta Sophia . ومن المحتمل أن حفل التتويج سنة ٨٠٠ م كان نتاجا لنفس سياسة التقليد ٠

ومن ناحية أخرى ، لابد أن البابوية اعتبرت عملية التتويج فرصـــة نادرة لاسترداد بعض من حقها فى التقدم على شارلمان ذلك الحق الذى فقدته أمام شارلمان نظرا لأنه كان قويا بكل مافى الكلمة من معنى ٠ ومما لاشك فيه أن الكارولنجيين قد تدرجوا من ملوك الى أباطرة ، بيد أن امبراطوريتهم حملت سمة « صنع فى روما » ، منذ ذلك الحين فصاعدا ٠ وفى سنوات تالية أصر البابوات على أن مايمنحونه يستطيعون انتزاعه ٠ فاذا كانت البابوية قادرة على تعيين الأباطرة ، فانها أيضا قادرة على عزلهم ٠ والواقع أنه قبل ذلك بوقت قصير قدمت خزانة المحفوظات البابوية وثيقة مزورة شهيرة عرفت باسم ، « هبة قنسطنطين »(*) والتى ورد فيها أن الامبراطور المسيحى الأول تخلى عن طيب خاطر عن سلطته الى البابا ثم استردها كنوع من التفويض البابوى ٠ واعتقد البابوات أن الأباطرة يجب عليهم أن يكونوا نوابا للبابا ـ مستخدمين سلطتهم السياسية العلمانية فى صالح الكنيسة الرومانية ٠

لقد كانت نظرية التفوق البابوى فى عينى البابوية مقنعة الى حد أنها

(*) من المحتمل أنها ظهرت حوالى سنة ٧٤٠ م ٠

بررت استعمال أى وثيقة تاريخية تدعم هذه القضية · ولذلك فان « هبة قنسطنطين » لم تكن محاولة لاعادة كتابة التاريخ ، وانما كانت محاولة لدعم ماتعتبر البابوية حقيقة تاريخية ·

على أية حال ، احترم شارلمان البابوية بصفة دائمة ، بيد أنه كان غير راغب فى وضع نفسه فى دور التابع الذى طالبته به النظرية البابوية · وكان حريصا على الاحتفاظ بلقب ، « ملك الفرنجة واللومبارديين » ، جنبا الى جنب مع اللقب الجديد ، « امبراطور » ، استثنى البابا من حضور حفل التتويج وقام بتتويج نفسه بنفسه · وفى تلك المناورات نشاهد الاجراء التمهيدى لصراع مرير وطويل حول العلاقة الصحيحة بين الامبراطورية والبابوية الذى وصل الى أعلى درجات التصعيد فى القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر · لذلك كانت السيادة المطلقة للعالم المسيحى الغربى فى خطر ·

غير أن الصراع ظل مستمرا طوال عصر شارلمان ، اذ كانت سلطة شارلمان منقطعة النظير ، وكان البابوات من الضعف الى الحد الذى جعلهم لا يستطيعون معارضته بشكل جدى · والواقع أن العلاقات البابوية الكارولنجية الحميمة فى عصر بيبين استمرت ، كما أن البابوية شعرت بالهدوء والمعاملة اللطيفة بفضل قبول شارلمان الرقيق ·

الثيوقراطية الكارولنجية :

لم يحدث منذ أن تكونت أوربا أن اتحدت ، تقريبا ، كما حدث فى عهد شارلمان ، ولم يحدث اطلاقا ، مرة ثانية ، أن تأثر العالم الغربى المسيحى بشدة على يد سيطرة رجال الدين · فابابوية التى قامت بمسح كل من بيبين وشارلمان بزيت البركة ، منحت الكارولنجيين حكومة ملكية بها خاصة مقدسة ، وكهنوتية تقريبا · واستغل شارلمان سلطته الهائلة ليس فى الأمة body Politic فحسب ، ولكن أيضا حكم الكنيسة الامبراطورية · فالقوانين والنظم التى صدرت فى عصره ، والتى عرفت باسم مجموعة الشرائع Capitularies عالجت الأمور الكنسية والعلمانية أيضا · فلم يطالب شارلمان بسن القوانين المتعلقة بتعاليم الكنيسة ، وانما شعر باحساس عميق بالمسئولية فى تنقية وتنظيم قواعد السلوك والعمل الكنسى · اذ كان

قوة أعظم بكثير من البابا فى الكنيسة الكارولنجية . كما دعا الى عقد عدد من المجامع الكنسية المحلية Synods ، بل أنه ترأس أحدها . والواقع أن النهضة الفكرية المهمة المعروفة باسم « النهضة الكارولنجية » كانت بصفة عامة محصلة لاهتمام شارلمان بمصلحة الكنيسة ودوام الثقافة الكنسية .

؟وان تعبير « النهضة الكارولنجية » مضلل على نحو خطير . اذ لم يقدم عصر شارلمان فكرا نظريا عظيما ، ولا نظاما لاهوتيا أو فلسفيا مبتكرا ، أو ليوناردو دافنشى Leonardo da vinci . واذا ما بحثنا عن « نهضة » فمن المحتم أننا سنصاب بخيبة أمل . فالعمل الفكرى فى العصر الكارولنجى كان أقل اثارة للخيال الى حد كبير - وأكثر تخلفا . وجمع شارلمان العلماء من كل أنحاء أوربا ، وبدأوا فى انقاذ الثقافة الأوربية من هوة الجهالة التى كانت تنحدر اليها تدريجيا تحت الكوين النورثمبرى من يورك The Northumbrian of York . واعد الكوين نسخة جديدة صحيحة من الكتاب المقدس ، بعد أن صحح الأخطاء الخطية التى تسللت اليه على مر القرون . وبذلك أنقذ الثقافة المسيحية من الفوضى المستحكمة الناشئة عن التحريف الذى تعرض له أعظم كتاب أساسى لتلك الثقافة . وقام الكوين وزملاؤه من العلماء بتنمية وتنظيم الطقوس الكنسية ، وتشجيع الوعظ الخاص بالسلوك والواجبات . واستكملوا الاصلاحات الديرية التى كان قد بدأها بونيفيس Boniface ، ووجودوا أنه من المحتم اقامة مدرسة فى كل دير مهم . ولم تكن القضية محاولة تخريج دفعات على شاكلة أرسطو أو أوغسطين ، وانما العمل على معرفة القراءة والكتابة ذاتها . وانتشرت تدريجيا طريقة موجودة فى الكتابة - الحرف الصغير الكارولنجى - التى حلت محل الكتابات الغير مقروءة فى الغالب والمتغايرة الخواص ، والتى كانت تستعمل من قبل . وفى كل مكان من المملكة بدأ الرهبان نسخ المخطوطات على مقياس جديد لم يسبق له مثيل . وتقدمت الثقافة المسيحية الكلاسيكية تقدما ضئيلا جدا بفضل تلك الأنشطة ، بيد أنها على الأقل تمت المحافظة عليها . وفوق كل هذا ، اتسعت قاعدتها . وكان العلماء الكارولنجيون مشغولين بعمل حاسم لانقاذ الثقافة . وتحقق نجاح جهودهم وفقا للحقيقة القائلة بأن الفكر الأوربى لا يصبح أن يتدهور مرة ثانية الى ما قبل المستوى الكارولنجى . ومن خصائص الاتجاهات الثيوقراطية القوية للعصر أن هذا الانجاز التعليمى الروحى تم انجازه وفقا للمبادرة الملكية

أكثر من البابوية • وبانتهاء الوحدة الأوربية بعد موت شارلمان تبدد الاندماج المؤقت للانشطة الروحية والسياسية • ومع ذلك استمرت النهضة الفكرية • وفى الأديرة والكنائس الكبرى فى القرنين التاسع والعاشر ، وبصفة خاصة فى الأقاليم الجرمانية التى فتحت مؤخرا ، ظلت عمليـــات نسخ الوثائق قائمة ــ واستمرت المدارس تعمل • وبحلول القرن الحادى عشر كانت أوربا مستعدة لبناء صروح فكرية مبتكرة وشـــامخة على اسسها الكارولنجية الثابتة •

الدولة الكارولنجية :

واستطاع شارلمان الاحتفاظ بامبراطوريته الضخمة الموحـدة بفضـل شخصيته • وفى عصر الطرق البدائية ، ووسائل المواصلات الرديئة ، كان شارلمان مضطرا الى الاعتمـاد بشكل مكثف على مقدرة النبــلاء Counts والدوقات Dukes ، والحكام العسكريين Margraves ، الذين أداروا اقاليمه • واحتفظ شارلمان لنفسه بالاشراف عليهم بارساله زوجا من المفتشين عرفا باسم « المرسلان من قبل السيد » Missi Dominici من رجال بلاط الى الاقاليم للتحقق من تنفيذ ارادته • غير أن ولاء النبلاء والدوقات كان نابعا من احترامهم لشارلمان ذاته • وأطاعوا أوا مره ونفذوا مجموعة شرائعة لا بسبب الوطنية ، وانما لحبهم الشديد لشخصه • والخلاصة أن المؤسسات الادارية للامبراطورية الكارولنجية كانت غير كافية بشكل خطير للوفاء باحتياجات الدولة الدخلية ، فتحت المظهر الخادع المتمثل فى القوة العسكرية الفعالة وكذلك الثقافية ، ظلت أوربا الكارولنجية شبه متبربرة • كما كان الكوين مستسلما للوهم عندما قال لشارلمان : « اذا ماتم تنفيذ نواياك ، عمن المحتمل أن تنشأ أثينا جديدة فى بلاد الفرنجة ، وتكون أوسع وأكبر من اثينا القديمة لأن اثينتنا بفضل تعاليم المسيح ، التى تشرفت بها ، ستبز حكمة أكاديمية افلاطون » • وكانت رؤية الكوين وهمية ومثيرة للشفقة ، لأن الدولة الكارولنجية ظلت أراضى للمحاربين والمزارعين الجهلة والسذج والذين كانوا نتاجا لمجتمعات بدائية تماما •

ان امبراطورية شارلمان الرومانية كانت تقريبا مجالا مثيرة للسخرية بالنسبة لامبراطورية أوغسطس • ومع ذلك يستطيع المرء فى النهاية أن يعجب بهذا الكارولنجى العنيد الذى استطاع أن يفعل الكثير جدا بامكاناته

المحدودة ـ والذى بذل جهودا كبيرة ليسمو فوق ماضيه المتبربر ـ والذى حاول كشاب بالغ الرشد أن يتعلم الكتابة بيد أنه خانه التوفيق · والذى سعى بكل شجاعةأن يخضعلادارته الرقة العظيمة لمدنية الله City of God عند أوغسطين·واستطاع المؤرخ كريستوفر داوسون Christopher Dowson فهم طبيعة انجازات شارلمان بشكل تام عندما كتب ، « ان امبراطورية شارلمان الكبير لم تعش طويلا بعد موت مؤسسها·· وأنها لم تحقق فى الواقع أبدا النظام الاجتماعى والاقتصادى لدولة متحضرة · بيد أنها برغم كل ذلك تشير الى ظهور الثقافة الأوربية لأول مرة منذ أن ولد الشعور بالوعى فى الحياة النشطة » ·

الجدول الكرونولوجى الكارولنجى

— ٦٨٧ م الرئيس الكارولنجى فى أوستراسيا يهزم نيوسترا ·
— ٦٨٧ م قيام السيطرة الكارولنجية ·
— ٧١٤ ـ ٧٤١ عهد شارل مارتيل ·
— ٧٣٢ هزيمة العرب فى تور ·
— ٧٤١ ـ ٧٦٨ عهد ببين القصير ·
— ٧٥١ تتويج ببين ملكا للفرنجة ·
— ٥٧١ نهاية الأسرة الميروفنجية ·
— ٧٥٤ موت القديس بونيفيس ·
— ٧٦٨ ـ ٨١٤ عهد شارلمان ·
— ٧٧٢ ـ ٨٠٤ حروب شارلمان ضد الساكسون ·
— ٨٠٠ تتويج شارلمان امبراطورا رومانيا ·

* C. Dawson, The Making of Europe (Meridian Press, 1957), p. 187.

٩ ـ الغزوات الجـــديدة

النهضـــة المتوقفة :

ان حركة الاحياء الاقتصادى والثقافى فى عصر شـــارلمان ، برغم مرورها بمرحلة التجريب كان مقدرا لها التقدم بثبات تجاه حضارة مزدهرة، ورفيعة الثقافة لولا الغزوات المدمرة التى أعقبت موت شارلمان سنة ٨١٤ م • وحتى ذلك الحين ، نعمت المملكة الكارولنجية بسلام نسبى • فالحياة الفكرية بالرغم من أنها ظلت متخلفة ، وفى حالة ايقاظ ، فبفضل العملة الفضـــية الجيدة التى أصدرها شارلمان نشطت التجارة • وذهب أحد المؤرخين مؤخرا بعيدا جدا عندما أشار الى أنه بفضل نفوذ شـــــارلمان القوى فيما يتعلق بسياسته الاقتصادية ، بدأت المدن تنمو وتزدهر مرة ثانية • بيد أن الاشارات المفعمة بالأمل ثبت أنها عارية من الصحة • وخلال القرنين التاسع والعاشر، اضطرت أوربا أن تحارب دفاعا عن وجودها ضد الهجمات الشرسة التى قامت بها القبائل الهنغارية Hungarians الشبه رحـــل من الشرق ، والعرب المسلمون ، والقراصنة من الجنـــوب ، والفايكنج Vikings المتدفقون من الشمال • ونتيجة لذلك تأخر ظهور حضارة رفيعة المستوى فى أوربا لمدة قرنين آخرين •

الكارولنجيون فى أواخر العصر الكارولنجى

من الخطأ أن نعزو التفكك السياسى للامبراطورية الكارولنجية الى تلك الضغوط الخارجية بشكل كلى ، لأن شارلمان نفسه ، قام بتقسيم دولته بين أبنائه العديدين ، من أجل المحافظة على التقاليد الفرنجية • ومع ذلك ، وكما حدث عندما مات لم يكن له سوى ابنا واحدا على قيد الحياة • وظل حظ الكارولنجيين الى جوارهم ، اذ عندما مات الفاتح الكبير سنة ٨١٤ م انتقلت مملكته الى وريثه الوحيد لويس التقى Louis the Pious (٨١٤ ـ ٨٨٤ م) ، دون أن تصاب بأذى •

وكان لويس على مستوى الكفاية ، بيد أن قدراته العسكرية والسياسية كانت أقل مـ نقدرات والده شارلمان ، وجده بيبين القصير ، ووالد جده شارل

مارتل بشكل جلى • واذا كانت الوحدة الكارولنجية ظلت قائمة ، الا أن القيادة الكارولنجية كانت قد بدأت فى السقوط • وكان لويس التقى اسما على مسمى • اذ قام بطرد المغنين والجوارى من البلاط الامبراطورى ، وأحل محلهم قساوسة ورهبانا • ولما كان لويس أكثر عنادا من والده بكثير لذلك أخذ على عاتقه تحقيق حلم قيام امبراطورية مسيحية موحدة - مدينة الله City of God. على الأرض • ومع ذلك كان أقل صلاحية من شارلمان بالنسبة للعمل الجبار Herculean Task الخاص بتحقيق الوحدة والتلاحم فى امبراطورية ضخمة ومتغايرة الخواص وظفر بها الكارولنجيون• وكان لويس التقى ، الأول فى أسرته الذى آمن بفكرة توريث السلطة العليا السياسية الى ابنه الأكبر ، وبذلك جعل وحدة المملكة مسألة سياسية وليست مجرد احتمال • ومع ذلك ، فمن سخرية الأقـــدار ، ثبت فى النهاية أنه الكارولنجى الأخير الذى حكم مملكة الفرنجة الغير مقسة • اذ ان خطته الجريئة الخاصة بوجود وريث واحد أحبطتها طموحات أبنائه الأصغر الذين ثاروا علنا ضده ، وأقحموا الامبراطورية فى حرب أهلية •

وعندما انتهى العهد التعس للويس التقى سنة ٨٤٠ م ، تصارع أبناؤه الثلاثة بعنف من أجل الغنائم • وطالب لوثر Lother أكبر الأبنـــاء الثلاثة باللقب الامبراطورى دون تقسيم ، وبالسيطرة التامة على كل المملكة• أما الاخوان لويس الجرمانى ، وشارل الأصلع ، ناضلا ليظفرا بسلطة ملكية مستقلة فى شرق ، وغرب بلاد الفرنجة على التوالى • وأخيرا اضطر لوثر للاستسلام لقوة أخويه الموحدة • وحسمت معـــاهدة فيردون Verdun المهمة النزاع سنة ٨٤٣ م حيث قسمت الامبراطورية بشكل دائم وبشرت بقيام الاطار العام السياسى لأوربا الحديثة • وسمحت المعاهدة للوثر بالاحتفاظ باللقب الامبراطورى ، بيد أنه لم يكن له أى نوع من السلطة العليا على امالك الخاصة بلويس الجرمانى ، وشارل الأصلع • وحكم لويس شرق بلاد الفرنجة التى أصبحت نواة لدولة المانيا الحديثة • وفى الحقيقة فهو أول ملك على ألمانيا • وأصبح شارل الأصلع ملكا على غرب بلاد الفرنجة التى تطورت الى فرنسا الحديثة •واحتفظ الامبراطور لوثر باقليم متغاير الخواص ، وضيق ، ومستطيل الذى امتد لعدة آلاف من الأميال تجاه الشمال من ايطاليا عبر بور جوندى Burgundy والسك Alsace ، واللورين Lorraine ونيثرلاند Netherlands ، ويشمل أجزاء من الأراضى

التى بها ألمانيا الغربية حاليا وشرق فرنسا · وهذه المملكة الوسطى شملت «العاصمتين الامبراطوريتين» روما وآخين Rome and Aachen ، غير ان حدودها المعرضة للخطر ، والطويلة كان من المستحيل الدفاع عنها من الناحية الواقعية ، وأنها كانت تفتقر الى عناصر الوحدة تماما · وتم تقسيم هذا الاقليم الى أجزاء صغيرة عند موت لوثر سنة ٨٥٥ م بين أبنائه الثلاثة ، حيث ورث أحدهم ايطاليا الكارولنجية ، واللقب الامبراطورى الذى بدأ يفقد أهميته رويدا رويدا · ومن القرن التاسع حتى القرن الثانى عشر ظلت أجزاء مملكة لوثر المتوسطة مصدرا لمنازعات الحدود المريرة التى لا نهاية لها بين المانيا وفرنسا ·

وان الصراعات بين أحفاد شارلمان حدثت مقابل خلفية غزوات الفايكنج ، والهنغار والعرب التى عجلت وعملت لى الزيادة السريعة للاتجاه نحو التفتيت السياسى الناتج عن مواطن الضعف الداخلى · بيد أنه ، حتى بدون الغزوات ، وبدون التقليد الفرنجى الخاص بتقسيم الخلافة ، كان من غير المحتمل أن تظل امبراطورية شارلمان الضخمة ، والتى يصعب السيطرة عليها باقية لفترة طويلة دون أن تصاب بأذى بعد أن زالت عنها سيطرة قبضته الحديدية · وكما حدث ، فان أبسط الوحدات السياسية الناجمة عن معاهدة فيردون Tready of Verdun ، كانت كبيرة جدا - وبعيدة جدا الحقائق الباعثة على اليأس بالمناطق الريفية - الى الحد الذى يجعلها عاجزة عن التصدى بنجاح لغارات البحارة الفاكينج ، والفرسان الهنغار الخاطفة · وخلال القرنين التاسع والعاشر كاد تالقيادة الكاروانجية تتداعى بشكل واضح ولا يوجد توضيح لعدم مقدرة الكارولنجيين المتأخرين أفضل من أسمائهم : شارل البدين ، شارل الساذج ، لويس الطفل ، ولويس الضرير ·

غزوات العرب والهنغار :

ان العرب والهنغار ، والفايكنج الذين قاموا بسلب ونهب الدولة الكارولنجية المتدهورة ، كانوا مدفوعين الى حد ما بالفراغ السياسى المتزايد ، ومكرهين الى حد ما على يد القوى المؤثرة فى أوطانهم · وعانت أوربا من نهبهم على نحو خطير · ومع ذلك كانت قوية فى النهاية الى الحد الذى مكنها أن تظل باقية بعد الغزوات واستوعبت الغزاة · وكما حدث ،

فان غزوات القرنين التاسع والعاشر كانت الأخيرة والتى قدر للعالم المسيحى الغربى التعرض لها · ومنذ حوالى ألف سنة حتى الآن ، حصل الغرب على الفرصة الفريدة فى تطوير نفسه بنفسه ، وحمى نفسه من الاعتداءات الأجنبية التى أضرت كثيرا بالحضارات الأخرى عبر ألف عام الماضية · وكما يقول المؤرخ مارك بلوك Marc Bloch : «وبالتأكيد ليس من غير المقبول الاعتقاد بأن المناعة السياسية ، وغيرها التى من النادر أن يشاركنا مزاياها شعب آخر باستثناء اليابانيين كانت احـــدى العوامل الاساســـية للحضارة الأوربية ··· » (*) ·

ومع ذلك فان شعوب أوربا التى تعرضت للهجمات العنيفة فى القرنين التاسع والعاشر لم يكن لديها سبيل لمعرفة أن الغزو ات ستنتهى فى يوم ما · اذ كتب مؤرخ فرنجى فى منتصف القرن التاسع فى أسلوب من الأسى :

« ان أعـداد السفن فى ازدياد ، فجيش الاســكندنافيين العــرمرم فى تزايد مستمر ، و فى كل مكان صار المسيحيين ضحايا المذابح وعمليات السلب والنهب وحرق ممتلكاتهم وهذا دليل كامل على أن هذه الحال ستظل حتى قيام الساعة ـ فالاسكندنافيون يستولون على كل مدينة يمرون بها دون أن يستطيع أحد التصدى لهم » ·

وفى جنوب بلاد الغال يصلى الشعب من أجل الحماية الالهية ضد العرب « الثالوث الأقدس الأبدى ··· ينقذ شعبه المسيحى من ظلم الوثنين »·

وفى الشمال يصلون ، « بسبب الشعب الاسكندنافى المتوحش ، الذى يدمر ممالكنا نسألك النجاة ، يا الله » ·

وفى شمال ايطاليا يصلون ، « من أجل حمايتنا من سهام الهنغاريين »·

والعرب فى القرنين التاسع والعاشر ، على خــلاف أسلافهم جاؤوا كقطاع طرق مفضلين ذلك على أن يكونوا فاتحين ومستواطنين · فمن أوكار

---

* Marc Bloch, Feudal Society, tr. L.A. Manyon. (Chicago, 1961), p. 56.

قرصنتهم فى افريقيا وأسبانيا وجزر البحر المتوسط كانوا ينقضون على السفن التجارية لنهبها ، ويجمعون الغنائم من المدن الساحلية وكانوا يبحرون عبر الأنهار الى مسافات طويلة داخل البلاد لاحداث الدمار والخراب . واقامت عصابات القرصنة من العرب مخابىء على الساحل الجنوبى لبلاد الغال ، والتى منها انطلق المغيرون ابتغاء السلب والنهب ، وأغاروا على كل مكان خلال المناطق الريفية ، واختطفوا السياح والحجاج الذين كانوا يعبرون ممرات الألب Alpin passes ولم يمتلك ابدا شارلمان اسطولا بحريا قويا . وكذلك احفاده أنفسهم لا حول لهم ولا قوة للدفاع عن سواحلهم .

وفى سنة ٨٤٦ م اغار القراصنة العرب على روما نفسها ، وانتهكوا حرمة كنائسها وسرقوا كنوزها . وحتى سنة ٩٨٢ م هزمت عصابات القرصنة من العرب الملك الجرمانى هزيمة نكراء فى جنوب ايطاليا ، ومنذ ذلك الحين بدأت الاغارات تتوقف تدريجيا . وفى ذلك الحين كان جنوب ايطاليا يعج بالتحصينات ، وتعلم سكانه الدفاع عن أنفسهم بل وبدأوا يتحدون سيطرة العرب على غرب البحر المتوسط .

وأما عن الهنغاريين أو المجر Maggars ،فهم الفرسان البدو الأقوياء الذين أتوا من منطقة السهول الاسيوية ، واستوطنوا الأراضى المعروفة حاليا باسم هنجارى Hungary . ومنذ سنة ٨٠٠ م حتى سنة ٩٥٥ م أثاروا الرعب فى ألمانيا وايطاليا وشرق بلاد الغال . وامتــــدت اغارات جماعات الهنغار فى كل مكان ينشدون طلب القرى الصغيرة الخالية من الدفاعات لسلب ما بها ، متجنبين المدن المحصنة ، ومتفوقين فى ركوب الخيل ، وفى اصطناع المناورات ضد الجيوش التى كانت ترسل للتصدى لهم . ومع ذلك ، فبمرور الوقت ، أصبحوا أكثر ارتباطا بالأرض وتخلوا عن الترحل وبذلوا عناية بمزارعهم . وتخلوا عن الكثير من طباعهم البدوية الهمجية .

وفى سنة ٩٥٥ م هزم الملك أوتو Otto الكبير ملك ألمانيا ، جيشا هنغاريا كبيرا فى موقعة لتشفيلد Lechfeld . وأنهى الاغارات الى غير رجعة . وفى مدى نصف قرن اعتنق الهنغار المسيحية ، واندمجوا فى المجتمع الأوربى المسيحى .

الفايكنج :

كان الفايكنج أو الاسكندنافيون هم أكثر الغزاة جميعا اثارة للخوف. وخرج هؤلاء المحاربون البحريون الذين نشروا الذعر والرعب من سكنديناڤيا Scandinavia وهى نفس الأرض التى أفرزت الكثير مـــن المتبربرين الجرمان نحو أوربا منذ قرون قبلهم • ومن ثم فان الغزاة الجرمان فى عصر الرومان والفايكنج فى القرن التاسع كانت لهم الخلفيات العرقية المتشابهة • واذا كان الفرد الأوربى فى القرن التاسع ـ والذى كان نتاجـــا لزيجات رومانية ـ كليتية ـ جرمانية لا حصر لها والذى تخلى كثيرا عن مظهـــر الهمجية بفضل الكنيسة وحياة الاستقرار ـ الا أن الفايكنج بدا شـــعبا مغايرا تماما • •

وعلاوة على ذلك ، فكما هو الحال الآن ، كانت الشعوب الاسكندنافية منقسمة الى ثلاث مجموعات تقريبا : الدنمرك Danes ، الســـويد Swades ، والنرويج Norwegans ، وابان العصر الذهبى لتوسع الفايكنج فى القرنين التاسع والعاشر ، ركز الدنمرك اهتمامهم على بلاد الفرنجة وانجلترا بعد أن أفزعهم غـــزو شـــارلمان لسكسونيا Sax ony وغزا النرويج اســـكتلندا Scotland وأيرلندا Ireland ، وشمال المحيط الأطلسى ، واستقروا بهذه المناطق جميعها •

وركز الســـويد على الشرق ـ الشواطىء البلطقية ، وروســـيا ، والامبراطورية البيزنطية • ومع ذلك فان الشعوب الاسكنديناڤية مشتركة فى الخصائص الى حد كبير وأن الفروق بينها ليست واضحة على الاطلاق • ولهذا فمن المناسب أن نعتبر غزواتهم ، واكتشافاتهم المدهشة ، وأعمالهم التجارية الواسعة المدى على أنها حركة دولية ضخمة وفريدة فى نوعها •

ولا شك أن انحلال القيادة الكارولنجية قام بمهمة المغنطيس بالنسبة للفايكنج المغيرين ابتغاء السلب والنهب ، الا أن غزواتهم على الغرب بدأت منذ عصر شارلمان • وأن الأسباب الاساسية لحركتهم الجماعية تجاه الخارج لابد أن تبحث فى اسكنديناڤيا نفسها •• اذ كانت اسكنديناڤيا قبل القـــرن العاشر كتابا منغلقا بالنسبة للمؤرخين • وكانت تعليلاتهم بالنسبة لانطلاقة الفايكنج العنيفة لا تزيد قليلا عن كونها مجرد تخمينات علمية • ومع ذلك ،

فمن المحتمل أن الشعب الاسكندينافى تعرض لحالة من انخفاض مستوى المعيشة الشديدة بسبب الهجرات الى الخارج فى العصر الرومانى الى أن ازداد عدد السكان هناك فى أواخر القـــرن التاسع الى حـــد أن زراعة الاسكندنافيين البدائية لم تعد تفى بسد الحاجة الا بشق الأنفس ٠ ومن المحتمل أن ضغط ازدياد السكان قد تفاقم نتيجة للتطور البطىء للسلطة الملكية المركزية ، وتضيق على الأفراد المفعمين بالقلق وتدفعهم للبحث عن المغامرات والفرص خارج حدود بلادهم ٠ وهناك عامل ثالث وهو تطور تحسينات سفن الفايكنج ، والتى صارت من الضخامة ما يجعلها قادرة على مواجهة العواصف ، وتسير بقوة الشراع والمجـــاديف وقادرة على حمل مابين أربعين الى مائة بحار محارب ، وتسير بسرعة عشر عقد فى الساعة الواحـــدة ٠

وفى تلك السفن المستطيلة هاجم الفايكنج ـ الطوال القامة ، والأقوياء فى العضلات والذين كان شعرهم ضارب الى الحمرة ، ـ موانى شمال أوربا ٠ وأبحروا فى الانهار الى مسافات بعيدة فى الداخـــــل ، يسلبون وينهبون الخيول أحيانا ويركبونها عبر المناطق الريفية لنشر دمارهم بصورة أشد ضراوة ٠

الفايكنج فى العالم المسيحى الغربى :

كانت انجلترا أول من قاسى من هجمات الفايكنج ٠ وفى حوالى سنة ٧٨٧ م وصلت ثلاث سفن مستطيلة الى مجرى النهر على الساحل بمدينة دورسيت Dorest ، وتدفق الفايكنج منها ليقوموا بنهب وسلب مدينة قريبة بعد أن استولوا عليها ٠ ومنذ ذلك الحين فصاعدا تعرضت ممالك الأنجلو ـ سكسون Anglo saxon للعذاب والقلق بسبب اغارات الفايكنج المتواصلة ٠ وفى سنة ٧٩٤ م أباد اللصوص الاســـكندينافيون دير جارو jarrow ، والذى عاش به بيده Bede ومات ٠ وكذلك لقيت المراكز الثقافية الديرية الكبيرة فى نورثومبريا Northumbaria مصيرا مماثلا ٠

وفى سنة ٨٤٢ م نهب الدنمرك مدينة لندن ، وبعد ذلك بسنوات قليلة بدأوا فى اقامة قواعد شتوية دائمة فى انجلترا التى أعفتهم من ضرورة العودة الى اسكندينافيا بعد موسم الاغارات ٠ وفى أواخر سنة ٨٠٠ م

تحولوا من القرصنة العادية الى الاحتلال على نطاق واسع والاستيطان الدائم • واجتاحوا مملكة الأنجلو - ساكسون بعد الأخرى ، حتى أخيرا ءى سنة ٨٧٠ م لم يكن هناك سوى مملكة وسيكس Wessex الجنوبية التى ظلت متحررة من السيطرة الدنماركية - بل أن وسيكس كانت على وشك السقوط قبل الهجوم الدانمركى •

وبالنسبة للملاحين الفايكنج ، كانت القناة البريطانية The English Channel مكانا سهل الاجتياز أكثر من عائق ، وهاجمت نفس الجماعات المغيرة الشواطىء البريطانية والفرنجية دون تمييز • وأقاموا قواعد دائمة عند مصبات الانهار الكبرى ، وأبحروا فيها لينهبوا الأديرة ويخربوا المدن التى ليس بها تحصينات • وتعرضت مدينة أنتورب Antwerp للهجمات المصحوبة بالخراب والدمار فى سنة ٨٣٧ م ، وروين Rouen سنة ٨٤١م ، وهامبورج Humburg ، وباريس سنة ٨٤٥ م ، وآخن A achen عاصمة شارلمان القديمة ٨٨١م • والواقع أن أوربا كانت تحت الحصار •

غير أنه اذا كان بعض الاوربيين قد ركنوا الى الاستسلام المذرى ، فان البعض الآخر ناضلوا بعناد لحماية أراضيهم وتراثهم • اذ أنقذ ملك وسكس الفريد الكبير King Alfred the great مملكته من الغزو الدانمركى ءى أواخر سنة ٨٧٠ م ، وبدأ العمل الشاق الخاص بالتصدى للجيوش الدانيمركية فى انجلترا • وحقق الملك أرنولف King Arnulf ملك شرق بلاد الفرنجة نصرا حاسما على الاسكندنافيين سنة ٨٩١ م فى موقعة دايل Dyle • وبذلك خفف كثيرا من ضغط الفايكنج على ألمانيا ، بالرغم من أنه فى نفس اللحظة كانت الاغارات الهنغارية قد بدأت • واستمر غرب بلاد الفرنجة يعانى لفترة من الوقت ، غير أنه حوالى سنة ٩١١ م أقام الملك شارل البسيط Charle the Simple دويلة حاجزة صديقة من الفايكنج فى شمال فرنسا بفضل معاهدة مهمة جدا مع شيخ قبيلة اسكندينافى يدعى رولو Rollo • وكان الفايكنج من جماعة رولو يمارسون اغاراتهم من مستوطنهم عند مصب نهر السين Seine River •وقرر شارل الذى كان أقل بساطة عما يتضمنه اسمه ، انه اذا ما استطاع أن يجعل رولو صهرا له ، فان المناطق السكنية على نهر السين سوف تثبت تماما أنها قادرة على أن تكون حاجزا فعالا ضد اغارات أخرى وأصبح

رولل مسيحيا · وزوجه شارل البسيط شقيقته ، واعترف روللو ــ على الأقل فى بعض النواحى ــ بعلو منزلة مملكة الفرنجة الغربية · ومن ثم نالت دويلة روللو شرعية فى أعين العالم الغربى المسيحى ، وباتساع رقعة تلك الدويلة رويدا رويدا على عهد روللو وخلفائه صارت تعرف باسم نورثمن Northmen أو « نورماندى » Normandy وبعد فترة قرن ونصف صار النورمان Normans مسيحيين صالحين كالفرنجة سواء بسواء · واستعملوا اللغة والثقافة المسيحية ، ومع ذلك ظلوا محتفظين بكثير من نشاطهم القديم · وفى القرن الحادى عشر قدمت نورماندى أعظم الأقوياء من محاربين ، مشاركين فى الحملات الصليبية ، ورجال الأعمال ، والرهبان·

الفايكنج فى شمال الأطلسى وشرق أوربا :

تشكل فرنسا ، وانجلترا ، وألمانيا جزءا واحدا فقط من الم الفايكنج الكبير فى القرنين التاسع والعاشر · وبحلول منتصف القرن التاسع كان النرويج والدانمرك قد فتحوا الجزء الاكبـــر من أيرلندا Ireland. ومن سنة ٨٧٥ و ٩٣٠ م استقروا فى جزيرة أيسلند Iceland البعيــدة· وكان هناك ثقافة اسكنديناقية وهى التى ظلت باقية لقرون عديدة ، والتى تأثرت قليلا بالاتجاهات العامة للحضارة الغربية · وفى ايسلند ، فان التراث الشفهى الرائع لقصة البطولة الاسكنديناقية ، والمعروفة باسم نورس ساجا Norse Saga ازدهرت وأخيرا تم كتابتها · وربما كان الاسكنديناقيون الذين عاشوا فى أيسلند أعظم البحارة جميعا · واستقروا على الشاطىء جرينلاند Greenland فى أواخر القرن العاشر · وأقاموا مستوطنات مؤقتة على الشواطىء الشمالية لأمريكا الشمالية نفسها فى القرن الحادى عشر ، وبذلك محققين سبقا على كولمبس Columbus بحوالى خمسمائة عــــام ·

وفى الشرق اجتاح الفايكنج من السويد فنلاند Finland وتوغلوا بعيدا تجاه الجنوب عبر روسيا الأوربية لاقــــامة عــــلاقات تجارية مع القسطنطينية وبغداد · وتباهى أباطرة بيزنطة بشكل غير عادى بالجنود المرتزقة الاسكنديناقيين الطوال القامة الذين خدموا فى حرسهم الامبراطورى· وفى روسيا نفسها نصبت أسرة ســـويدية نفســـها حاكمة فى نوفجورود

Novogrod في أواخر القرن التاسع • على سكان البلاد السلافيين • وفي القرن العاشر استولى قائد اسكنديناف من مدينة نوفجورود على مدينة كيف Kive الروسية الاستراتيجية ، والتي صارت نواة للدولة الروسية المنظمة والقوية • ونظرا لتأثر الاسرة الحاكمة في كيف بثقافة رعاياها بعمق شديد ، فانها صارت أكثر سلافية عن كونها في الاصل اسكندينافية • واعتنقوا المسيحية على المذهب البيزنطي في أواخر القرن الحادي عشر ، واتجهوا الى القسطنطينية أكثر من الغرب فيما يتعلق بالأفكار الثقافية والدينية • وبالرغم من ذلك أثبت الاسكندينافيون أنهم قادرون على اقامة الممالك والقضاء على غيرها ، سواء في روسيا أو ايسلند، أو في أي مكان آخر •

غروب شمس العصر الفايكنجي

ان التغيرات في الحكومات الملكية المتمركزة في الدانمارك ، والنرويج والسويد ربما كانت عاملا في عملية دفع الغزاة الفايكنج المفعمين بالقلق ، الى خارج اسكندينافيا ، أدت الى تهذيب روح الفايكنج • ولما كانت اسكندينافيا تزداد تحضرا ، لذلك عرقل ملوكها الأنشطة الرامية الى تجوال الجماعات الحربية المستقلة ، هذا فضلا عن أن الأحوال الاجتماعية ، كانت باعثا على الحياة الخالية كلية من الترحال ، والتي تسودها الرقابة الى حد ما • وحتى أواخر القرن الحادي عشر استمرت بريطانيا تواجه هجمات الاسكندنافيين ، غير أن غزاة القرن الحادي عشر لم يكونوا جماعات من القراصنة ، وانما على الأصح كانوا جيوشا ملكية تحت قيادة ملوك الاسكندنافيين • وأن طبيعة التهديد الاسكندينافي قد تغيرت تغيرا عميقا • وفي أواخر القرن الحادي عشر توقف التهديد كلية • وحوالي سنة ١٠٠٠ م اكتسبت المسيحية مؤمنين بها في كل أنحاء العالم الاسكندينافي : ففي أيسلند ، وروسيا ، بل وحتى في الممالك الاسكندينافية ذاتها ، آمن الاسكندنافيون بدين الرهبان الذين كانوا من قبل يخشونهم جدا • ومنذ ذلك الحين لم تعد اسكندينافيا مستودعا أو مقرا للبرابرة الغزاة ، وصارت جزءا مبدعا في الثقافة الأوربية الغربية •

وحتى في أوج الغزوات لم يكن الاسكندينافيون برابرة تماما بتمام •

اذ أنهم تفوقوا فى التجارة بالاضافة الى القرصنة ، كما أنهم كانوا أعظم الملاحين للعصر • وأدخلوا الى اوربا فن الملاحة وخلاصة القول ، فانهم أدخلوا روح حب المغامرة العالمية للنظرة المحدودة والمحافظة على القديم للحضارة الكارولنجية •

١٠ ـ بقاء أوربا بعد زوال الحصار :

رد فعل الغزوات ـ انجلترا :

ان غزوات القرنين التاسع والعاشر احدثت تغيرات مهمة فى النظام السياسى والاجتماعى لغرب أوربا • وعلى وجه العموم ، اتجهت السلطة السياسية الى الانقسام الى وحدات محلية صغيرة ، لأن الجيوش الملكية البطيئة الحركة المرهقة اتضح أنها عاجزة عن التصدى للغارات الخاطفة • تلك كانت الحالة فى فرنسا • بيد أنها كانت أقل واقعية بالنسبة لألمانيا حيث نجحت الملكية بعد فترة من الضعف النسبى ، فى اجتياز مرحلة استعادة المقدرة على ردع الغزاة بشكل مثير للدهشة • وفى انجلترا ، فمن ناحية التناقض الظاهرى ، كان لضربات الدانمرك المتكررة أعظم نتيجة فيما يتعلق بتوحيد الدويلات الأنجلو ـ سكسون المتعددة فى مملكة واحدة •

وفى أواخر القرن الثامن ، عند بداية غزوات الفايكنج ، كانت انجلترا مقسمة الى وحدات مستقلة بعضها عن بعض منذ فتوحات الأنجلو ـ سكسون • بيد أنه على مر القرون كانت الممالك الصغيرة العديدة تنطوى تحت سيطرة ثلاث ممالك أكبر ـ نورثومبريا فى الشمال ، وميركيا Mercia فى الوسط ، ووسيكس Wessex فى الجنوب • وان الهجمات الدانمركية فى القرن التاسع التى قضت على القوى المنافسة لمملكة وسكس ، أفسحت المجال لمملكة وسكس ، وبذلك سارعت تجاه الاندماج الذى كان بالفعل على الطريق • بيد أنه اذا كان الدانمرك يقدمون خدمة الى مملكة وسكس ، فان كليهما لم يكونا بالحقيقة ابان الأيام الكئيبة فى أواخر القرن التاسع ، حيث عانت انجلترا من دمار ثقيل الوطأة • وأنه لفترة من الوقت بدت انجلترا كما لو كان الدانمرك على وشك أن يهزموا وسيكس نفسها • ومع ذلك ، ففى فترة المحنة اعتلى عرش وسيكس قائد ربما كان أعظم ملوك انجلترا شهرة ، انه الفريد الكبير (٨٧١ ـ ٨٩٩ م) • اذ أنه وضع كل امكاناته لحماية مملكته من الفايكنج ، حيث خاض معركة شرسة ضدهم • بل انه لجأ الى استمالة بعضهم بتقديم الأموال • وفى شتاء سنة ٨٧٨ م ، هاجم الدانمرك بغتة ، وأجبروا الفريد على اللجوء الى جزيرة أثيلنى Athelney الصغيرة ومعه عدد قليل من رفاقه فى مستنقع بعيد • وكانت جزيرة أثيلنى واديا لأعمال الحديد بالنسبة لانجلترا • وفى الربيع التالى سنة ٨٧٨ م

حشد الفريد قواته وهاجم جيشا دانمركيا هجوما ساحقا فى موقعة آدنجتون· وحول هذا النصر الحاسم مجرى الحرب ، لأن القائد الدانمركى وافق على اعتناق المسيحية · وان ينسحب من وسيكس ، وأن يقبل عقد معاهدة سلام « دائم » ، ولم تتعرض وسيكس أبدا لعدوان خطير مرة ثانية · بيد أن الدانمرك الأخرين رفضوا الالتزام بمعاهدة السلام ، لذلك فتح الفريد فى آخر حملاته العسكرية مدينة كينت Kent ومعظم ميركيا Mercia واستولى على لندن ـ التى كانت أعظم مدن انجلترا فى ذلك الحين · وفى سنة ٨٨٠ م منحت معاهدة سلام جديدة وسيكس معظم جنوب وجنوب غرب انجلترا وظل الجزء الشمالى الشرقى من انجلترا ـ Danelaw معاديا ، بيد أن كل الأراضى فى انجلترا الغير خاضعة للدانمرك كانت موحدة تحت قيادة الملك الفريد ·

وعلى شاكلة كل القادة الناجحين فى عصره ، كان الفريد محاربا مقتدرا الى حد كبير ، والواقع أنه كان يفوقهم جميعا · وكان الفريد منظما . لديه القدرة على الابداع بشكل مثير للاعجاب ، اذ نظم التجنيد العسكرى . وأنشأ أسطولا بحريا انجليزيا بعد أن رأى بوضوح أنه لا أمل أمام أوربا المسيحية فى طرد الفايكنج بدون تحديهم فى البحار · وملأ بلاده بالقلاع التى استخدمت كمعاقل دفاعية وملاجىء آمنة يستخدمها المزارعون فى وقت الحرب · وكلما تم تحرير الأراضى التى كانت تحت قرصنة الدانمرك ، والذى حدث شيئا فشيئا ، أقام الفريد حصونا جديدة لتأمين الحدود التى تم استعادتها مؤخرا · وقام الفريد بتنقية واعادة صياغة قوانين شعبه ، وعمل على تنفيذ القوانين بكل حزم ، ومارس السلطة بشكل لم يسبق لأى ملك انجلو ـ سكسونى ، أن سلكه ·

ولم يكن هذا الملك الشهير رجل دولة ومحاربا عظيما فحسب ، وانما كان أيضا عالما ونصيرا للمعرفة · على أن بيئته الفكرية لم تكن تقل نبوغا عن بيئة شارلمان · فأيام بيده Bede ، وبونيفيس Boniface والكوين Alcuin كانت ضمن تاريخ الماضى البعيد · وعلى عهد الفريد ، كانت اللغة اللاتينية ـ مفتاح الثقافة المسيحية ـ غير معروفة تقريبا فى انجلترا ، ومن ويلز Wales ، ومن القارة الأوربية ـ وطلب منهم العمل بنشاط على تعليم اللغة اللاتينية وترجمة التراث الكلاسيكى الى اللغة

الانجلو ـ سكسونية · وشارك الفريد نفسه فى أعمال الترجمة ، مثل كتاب سلوى الفلسفة Consalation of Philosophy لمؤلفه بؤثيـــوس Boethius ، ورعاية الكاهن لأبناء أبرشيته Postoral Care لمؤلفه البابا جريجورى والتاريخ الكنسى لمؤلفه بيده ، كلهـــا ترجمهـــا الفريد الى اللغة القومية · وفى ترجمته لمؤلف بؤثيوس ، أضاف الفريد تعليقا من عنده ، « وفى تلك الأيام لم يكن يعرف المرء شيئا عن سفن للحـــرب مسلحة » · وفى تصديره لكتاب رعاية الكاهن لأبناء أبرشيته أشار الى تلك الأيام بالحنين ، « قبل أن يتم نهب كل شىء واحراق كل شىء ، عندما كانت كنائس انجلترا زاخرة بالكنوز والكتب » · وكانت نهضة الفريد الفكرية أكثر من نهضة شارلمان ، وكانت عملية- انقاذ أكثر منها من كونها انطلاقة ابداعية · كما كان الفريد متواضعا ، ورقيقا عندما وصف نفسه كالفرد الذى يتجول عبر غابة يجمع الأخشاب التى يستطيع غيره استعمالها للبناء·

واستمرت حركة الفرد الاستردادية على يد خلفائه المقتدرين فى النصف الأول من القرن العاشر · ففى منتصف القرن العاشر كانت كل انجلترا فى أيديهم ، وصار ملوك وسيكس هم ملوك انجلترا · وظلت أعداد هائلة من المستوطنين الدانمرك مقيمة فى شمال وشرق انجلترا ـ واستغرقت عملية اندماج العادات الدانمركية والانجليزية أجيالا كثيرة ـ بيد أن الرد الحاسم لملوك وسيكس ضد التهديد الدانمركى بلور وحدة العـــالم ـ الأنجلو ـ سكسونى ، وتمخضت آلام الغزوات عن ميلاد الحكومة الملكية الانجليزية

تجدد الهجوم الدانمركى :

تمتعت انجلترا بالسلام النسبى ، والرخاء الاقتصادى فيما بين سنة ٩٥٥ م الى سنة ٩٨٠ م وذلك بعد مرور جيل على غزو الجز الشمالى الشرقى من انجلترا على يد الدانمرك Danelaw · اذ قامت الأساطيل الانجليزية الصغيرة بحماية الشواطىء ، وبدأت القلاع القديمة فى التطور الى مراكز تجارية ، وانكب رجال الكنيسة ، الذين وهبوا أنفسهم لله ، على أداء مهمة الاصلاح الديرى · غير أن السكان الدانمركيين فى شمال وشرق انجلترا ظلوا تابعين للحكومة الملكية الانجليية الجديدة جزئيا · وباعتلاء الملك الطفل الغير مقتدر اثيلبريد غير المستعد Ethelbred Unready (٩٧٨ ـ ١٠١٦ م) للعرش ، بدأت الغزوات الدانمركية من جديد ·

وتطورت الغزوات الجديدة الى حملة فتح تحت قيادة الحكومة الملكية الدانمركية . واتصف الدفاع الانجليزى بعدم المقدرة ، والخيانة ، والذعر المصحوب بالهرب الجماعى . وفى سنة ٩٩١ م بدأ اثيلريد دفع اتاوة الى الدانمرك ، والتى عرفت فيما بعد باسم ضريبة التاج الدانمركى Danegeld وفى السنوات التالية تطورت ضريبة التاج الدانمركى الى ضريبة أرض ، كانت مفيدة للحكومة الملكية الانجليزية الى حد كبير . بيد أنه بمرور الوقت أصبحت رمزا للاذلال الشديد . وفى سنة ١٠١٦ م هرب اثيلبريد من البلاد كلية ، وفى السنة التالية أصبح الملك كانوت Canute ملك الدانمرك ملكا على انجلترا (١٠١٧ ـ ١٠٣٥ م) .

وذكرت أوصاف كانوت على أنه كان قزما ، وعبقريا بشكل واقعى جداً . وهزم النورويج كما هزم انجلترا ، وضم هذين البلدين الى مملكة الدانمرك . وبذلك صار سيدا على امبراطورية متغايرة الخواص ، وكبيرة ، وتتمركز فى بحر الشمال . ولم يكن كانوت متعطشا للدماء ، اذ كان نتاجـــا للقوى المتحضرة الجديدة ذات الأثر الفعال فى اسكنديناوه Scandinavia فى القرن الحادى عشر ، وأصدر مجموعة قانونية ، وطبق تعاليم المسيحية ، وأطاع القوانين . ونظرا لتخصيصه معظم وقته لانجلترا ، فانه ألقى بنفسه ، كملك انجليزى بين أحضان تراث وسيكس Wessex القديم . واحترم وأيد الأعراف القديمة للبلاد ، وأغدق العطاء على الأديرة بسخاء . وبالرغم من خلفيته الدانمركية ، فانه كان أفضل بكثير من العاهل الانجليزى اثيلبريد Ethelbred ، وكان عهده استمرارا للماضى ، الى حد كبير ، اذ أضاف رونقا وبهاء للتاج الذى كان قد زيفته أسرة الفريد . وازدهر الدين ، وازدهرت الثقافة كما كان الحال من قبل : « وغنى الرهبان الى ايلى Ely بمرح عندما مر عليهم الملك كانوت » .

على أن امبراطورية كانوت الانجليزية النرويجية الدانمركية الضخمة تفككت بشكل ميؤوس منه ، ولم يقدر لها البقاء بعد موته سنة ١٠٣٥ م . وعندما مات آخر أبنائه سنة ١٠٤٢ م ، انتقلت المملكة الى ادوارد المعترف Edward the Confessor سلميا ، أحد أفراد أسرة وسيكس القديمة الذى تربى فى المنفى فى نورماندى Normandy .

وكان ادوارد المعترف قائدا عاجزا ، ورجل ادارة عاديا ، بيد أنه

كان رجلا تقيا بكل صدق · ونجح فى كسب محبة شعبه على الرغم من عدم مقدرته السياسية · ونتج عن تمسكه الدينى بعفة النفس قيام منازعات على الخلافة عند موته ١٠٦٦ م · ومهد السبيل للفتح النورماندى · وعندما غزا وليم الفاتح William the Conqueror «دوق نورماندى» انجلترا وفاز بتاجها سنة ١٠٦٦ م ، فانه ورث مملكة مزدهرة لها تراث قانونى وسياسى منظم وقوى _ مملكة ظلت مقسمة بسبب الاختلاف فى العادات ، بيد أنها تدين الاحترام العميق للسلطة الحاكمة · وعلى الرغم من أن اثيلبريد الغير مستعد كان على العرش فان أسرة وسيكس أدت دورها على مايرام · اذ قام خلفاؤه بتشييد بناء فسيح وقوى بالأخشاب التى كان قد جمعها الفريد ·

ردود فعل الغزوات _ النظام الاقطاعى الفرنسى :

كانت الغزوات على انجلترا دافعا على الاتجاه صوب توحيد التاج الملكى . وأما فى فرنسا ، فان الغزوات شجعت على تفتيت السلطة السياسية الى وحدات محلية صغيرة · ويمكن تفسير هذا التناقض الظاهرى الى حقيقة أن فرنسا ، على عكس انجلترا ، كانت كبيرة جدا الى الحد الذى يصعب على الفايكنج اخضاعها · وبالرغم من استقرار الكثيرين من الفايكنج فى نورماندى ، فان تهديد الاسكنديناقيين الرئيسى لفرنسا جاء على شكل حملات للسلب والنهب أكثر منها كجيوش فاتحة · وكانت المسافات شاسعة جدا ، والمجتمعات بدائية جدا ، ومن العسير السيطرة على قوات حراسة الحدود الوطنية بالقدر الذى يسمح للملك أن يتولى قيادة الدفاع عن مملكته · وآلت المسئولية العسكرية الى السادة الاقطاعيين المحليين الذى انعقد عليهم الأمل فى حماية المناطق الزراعية من هجمات الفايكنج الخاطفة والمرعبة ، وأصبح الكارولنجيون الفرنسيون ضعافا بشكل متزايد الى أن انتقل التاج فى نهاية الأمر سنة ٩٨٧ م الى أسرة جديدة _ أسرة كابيه Capetians . وخلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر قدمت أسرة كابيه بعضا من أشهر ملوك فرنسا بيد أنه حتى ذلك الحين كانت الأسرة الجديدة من الضعف مثل الأسرة القديمة · فبعد سنة ٩٨٧ م ، كما كان الحال قبلها فاق النبلاء الملوك · وبرغم كل ذلك ، يستطيع المرء القول أن الملكية الفرنسية ظلت باقية فى تلك السنين الكئيبة ·

وشهد عصر الفايكنج ميلاد الاقطاع فى فرنسا · وبمعنى صحيح كان الاقطاع نتاجا لرد فعل فرنسا تجاه الغزوات · ومع ذلك ، كان هناك احساس آخر بأن فرنسا قد اتجهت منذ أمد بعيد تجاه النظام الاقطاعى · ان جذور الاقطاع امتدت على نحو عميق، اذ أن أحد هذه الجذور كان الالتزام الشهير بالاخلاص والولاء والخدمة العسكرية التى كان يقدمها المحارب للسيد الاقطاعى ـ وهو الذى ميز العلاقة بين السيد الاقطاعى الذى يقطع لقاء تعهد المقطع بتقديم المساعدة العسكرية اليه منذ أواخر عهد الميروفنجيين ، وأوائل عهـــد الكارولنجيين ، وفى أوائل عهـــد الكوميتـــاتوس Comitatus الخاصة بالبرابرة الجرمان · وهناك أصل آخر للاقطاع وهو مفهوم ظهر فى أواخر الامبراطورية الرومانية المتأخرة والعصور الوسطى الباكرة وهو الخاص بحيازة الأرض مقابل تأدية الخدمات للشخص الذى منح الأرض · وعرفت الأرض الزراعية التى حصل عليها المستأجر لقاء تقديم خدمات باسم « الأرض المقطعة » benefice .

وخطا شارل المطرقة Charles Martel خطوة هامة نحو الاقطاع ، وذلك بربطه بين أنظمة الأرض المقطعة ، وحالة المقطع ، ووضعه ، والخدمات المفروضة عليه · وقام بعمليات مصادرة لممتلكات الكنيسة بشكل ثقيل الوطأة، ومنح تلك الأراضى الزراعية التابعة للكنيسة لأفصاله العسكريين · وهناك أسباب عديدة لهذه الخطوة · اذ كانت السيولة النقدية غير متوفرة على امتداد العصور الوسطى الباكرة ، وكان من المستحيل تقريبا بالنسبة لحاكم أن يقدم الأجور الى جنوده · وفى غالب الأحوال كان السيد الاقطاعى الفرنجى يطعم ويأوى أتباعه فى داخل منزله · والواقع أن ، (الفارس المقيم فى بيت السيد الاقطاعى « استمر طوال العصر الاقطاعى ، بيد أن هؤلاء المحاربين الأفضال ، أظهروا رغبة متزايدة وملحة بشكل دائم للحصول على الأرض ، نتيجة لتزايد أهميتهم العسكرية ، ولذلك منحهم سنـــادتهم الاقطاعيون الأراضى الزراعية ـ اقطاعات ـ مقابل ولائهم وخدماتهم ·

وارتبط هذا الاتجاه بالثورة العميقة فى فن تنظيم القوى الحـــربية وتحريكها للقتال الفرنجى ، الذى حدث حوالى سنة ٧٣٠ م · فقبل هذا التاريخ كان الفرنجة جند مشاة فى أغلب الأحوال · ومنذ ذلك الحين فصاعدا أصبح استخدام الفرسان مهما أكثر ، اذ على مدى قـــرن ونصف أصبح استخدام الفرسان مهما بكل مافى الكلمة من معنى · وكان المحارب الفرنجى

الذى لا ينازعه أحد فى ذلك الحين ، هو الفارس الذى يمتطى صهوة جواده ، ومدرع بالدرع ، والذى كان أكثر فعالية عن جندى المشاة بكثير ، وان كان أكثر نفقات فيما يتعلق بالتكاليف والانفاق عليه • اذ كان الفارس يحتاج الى فرس مدرب تدريبا حسنا ، ودرع ثقيل ، وأسلحة ، وعدد من الرجال الذين يسهرون على خدمته ، ويستغرق تدريبه عدة سنوات • ولهذا السبب كان اتجاه السيد الاقطاعى الى منح أفصاله الفرسان أراضى زراعية مقابل خدماتهم بشكل مستمر • وبالطبع لم يكن الفارس يعمل فى حقوله ، وعلى الأصح كان يديرها ، ويحصل على ايراد الاقطاع ، الذى كان فى أغلب الأحوال عينا لا نقدا ومن المزارعين •

وكان المقطع الحربى الكارولنجى من الناحية التقليدية فارسا • ولما كان فن الحرب الفروسية له الهيمنة فى الحرب ، لذلك انتشرت عادة المقطعية vassalage انتشارا واسعا • وفى عصر شارلمان تعهد أقطاب الفرنجة الكبار بالولاء لامبراطورهم ، وبذلك اعترفوا بأنهم أتبـــاعه وأنه سيدهم الاقطاعى • وزيادة على ذلك ، فان هؤلاء الأتباع الملكيين ، كان لهم أتباع يدينون بالولاء لسادتهم الاقطاعيين المباشرين أكثر من ولائهم للامبراطور • ووافق شارلمان نفسه على هذه الحال ، وشجع حرية مملكته فى أن تكون جماعة من الأتباع المقطعين التابعين للسادة الاقطاعيين الكبار • وفى زمن الحـــرب قام أتباع الأتبـــاع أو الأتبـــاع الأدنى Sub vassals بالانضمام الى فرق سادتهم الاقطاعيين العسكرية التى بالجيش الملكى • وكانت الاتجاهات التى لا تدين بالولاء بالكامل للسلطة العليا واضحة فى ذلك النظام • مع ذلك كان هدف شارلمان وجود قوات للخدمة مترابطة • ونظرا لعدم وجود الموارد المالية الكافية للانفاق على جيش محترف يدين بالولاء له ، فانه كان مضطرا الى الاعتماد على هذا النظام الهرمى من السلطة والولاء الذى كان يعوزه الاستقرار •

ونتيجة لغياب شخصية شارلمان القوية ، وتحت ضغط الغزوات بدأ التسلسل الهرمى الواهن يتفتت الى عناصره الأساسية • واتجه موظفوا الأقاليم القدامى الذين عملوا فى عهد شارلمان ، وحكام الدوقيات والنبلاء ، والحكام العسكريون لمناطق الحدود يساندهم أتباعهم المقطعين ، الى اغتصاب الحقوق الملكية ، والدخل الحكومى من ضرائب الى ماشابه ذلك ، وأقاموا العدل ، وجمعوا الضرائب دون الأخذ بعين الاعتبار للارادة الملكيـــة •

وبمرور الوقت بنوا القلاع وتحملوا كل المسئولية من أجل الدفاع عن مناطقهم. ويقى هؤلاء الأقطاب الاقطاعيون أتباعا لملك فرنسا من الناحية الاسمية فقط ، بيد انهم تحولوا بسرعة الى درجة من القوة الهائلة التى لا يمكن للتاج من اجبارهم على الطاعة ، كونوا لهم أتباعا أدنى ، أو أتباعا لأتباع الأتباع . وربما تدرجت العلاقة بين السيد الاقطاعى وتابعه المقطع الى حوالى عشر أو عشرين مستوى ، وذلك ابان أوج قوة عصر الاقطاع . ومن النادر وجود تابع اقطاعى لم يكن سيدا اقطاعيا للبعض الذين ظلوا أتباعا أقل فى المستوى الاقطاعى .

ووصفت النتائج النهائية لتلك التطورات « بالفوضى الاقطاعية » . والى حد ما كان اختيار هذا التعبير صادقا الا انه لا يصح أن يحملنا على الاعتقاد أن الاقطاع ليس سوى « شيئا سيئا » . والواقع أن وجود حـــالة عدم الاستقرار فى عهد الامبراطورية الكارولنجية ، وكذلك الحالة الباعثة على اليأس فى فرنسا فى عصر الفايكنج ، كل ذلك كان دافعا لظهور الاقطاع كاجراء واقعى للتوفيق والعلاج لحقائق العصر التى لا سبيل الى انكارها . ويجب ألا ننسى أنه فى الوقت الذى استسلمت فيه أوربا الرومانية للغـزاة البرابرة فانها ظلت باقية برغم زوال الغزاة الذين استوعبتهم فى النهاية .

ووصل الاقطاع الفرنسى ذروته فى القرنين العاشر والحادى عشر . وكان الاقطاع الحربى هو نمط الاقطاع الفرنسى ، فالسيد الاقطاعى كان يمنح تابعه المقطع الأراضى الزراعية فى مقابل الولاء والخدمة ـ وكانت خدمة عسكرية فروسية فى المقام الأول. وعرف هذا الاقطاع العسكرى باسم اقطاعه fief . وكان هذا النظام الاقطاعى استجابة منطقية لمتطلبات الدفاع المحلى ، واستمرار قدر ما من سلطته السياسية على الأقل ، وندرة الأموال التى حتمت منح الأرض مقابل الخدمة بدلا من دفع الأجور المالية . لذلك كان السيد الاقطاعى الكبير يمنح الأراضى الزراعية ـ الاقطاعية ـ الى تابعه المقطع . ويقوم التابع المقطع بدوره بمنح قطعة أرض زراعية من الأرض التى حصل عليها من السيد الاقطاعى الكبير ـ اقطاعة أخرى الى تابعه المقطع . وهكذا استمرت عملية منح الاقطاعات باستمرار الى الأدنى فالأدنى منه . ونتيجة ذلك وجود أرستقراطية قائمة على الفروسية ، وصارت الأرض موزعة على شكل مسلسل هرمى ، حيث التزم كل فارس بالولاء والخلاص للأمير الاقطاعى ـ ونعنى بذلك ، يأخذ على نفسه عهدا بالولاء

الشخصى لسيده الاقطاعى المباشر ، الذى يعيش على نتاج الأعمال التى يؤديها الفلاحون التابعون ، الذين يفلحون الحقول فى اقطاعه · وقام كل تابع مقطع بادارة محكمة واقامة العدالة بين هؤلاء الخاضعين له ·

تلك كانت المقومات الأســـاسية للاقطاع · وهو التعبير الذى أسىء استعماله وفهمه · والواقع أنه من الصعب جدا تعريف الاقطاع ، واذا مارغبنا فى تلخيص موضوع منح الاقطاعات بشكل كامل ، فاننا لن نجد افضل من أن نكرر تعريف المؤرخ الفرنسى مارك بلوش Marc Bloch أعظم العلماء المحدثين دراسة للاقطاع فى العصور الوسطى :

« الفلاحون أتباع فى النظام الاقطاعى ، وتقدم الخدمات مقابل الحصول الحصول على قطعة ارض زراعية (ونعنى بها الاقطاعية fief) بدلا من منح راتب ، الذى كان غير وارد · وفيه ســـيادة لطبقة من المحــــاربين المتخصصين ، والتزامات للطاعة والحماية · وفى نطاق الطبقة المحاربة ، اتخذ النمط المميز الذى أطلق عليه جماعة المقطعين ، والسلطة فى النظام الاقطاعى متفتتة ـ ومؤدية حتما الى الفوضى ، وفى غمرة هذا كله ، فان الأنماط الأخرى من الارتباطات ، والأسرة والدولة قدر لها البقاء ··· ـ تلك كانت على مايبدو المقومات الأساسية للاقطاع الأوربى » ·

وبوجود هذا التعريف فى الحسبان ، فربما يكون من المفيد التأكيد على بعض الأحوال التى ليست من الاقطاع فى شىء · اذ ان الاقطاع لم يكن نظاما متماثلا بشكل عام وشامل · ونظرا لظهور الاقطاع فى فرنسا فى عصر الفايكنج ، فانه اتخذ أشكالا مختلفة وكثيرة عندما انتشر فى أنحاء أوربا · وفى شمال فرنسا نفسها فانه تنوع من اقليم الى آخر الى حد بعيد · كما أن الاقطاع لم يشمل كل الأراضى الزراعية على الاطلاق لأنه حتى فى أوج الاقطاع ، لم يكن كثير من ملاك الأراضى مدينين بالالتزامات الاقطاعية ولم تكن تربطهم أية روابط اقطاعية· اذ كان النظام الاقطاعى المتسلسل أو الاقطاع الهرمى « يكتنفه الغموض : حيث كان فى امكان التابع الاقطاعى الواحد الحصول على العديد من الاقطاعات من عدة سادة اقطاعيين ، كما كان فى

* Bloch ; Feudal Socieyt, p. 446.

امكان السيد الاقطاعى الحصول على اقطاعة من تابعه الاقطاعى ، وبتلك الوسيلة واضعا نفسه فى مركز اجتماعى شاذ لكونه تابعا اقطاعيا لتابعه الاقطاعى . وأما عن مدى الغموض الممكن حدوثه فى النظام الاقطاعى . فان ذلك يتضح عند دراسة وثيقة نمطية لذلك العصر :

« أقر أنا حنا من تول John of Toul ، اننى تابع مقطع للسيدة : بيتريك Lady Beatrice ، صاحبة الاقطاع ، كونتس تروى Countess Of troyes ، وتابع لابنها ثيوبولد Theobald كونت شامبين Champagne ، ضد كل شخص حيا كان أم ميتا ماعدا ولائى واخلاصى لسيدى انجوراند من كوسى Lord Enjurand of Coucy صاحب الاقطاع ، وحنا من أركيز Lord John of Arcis وكونت جراندبر (Count of grandpre) ، واذا ماحدث أن كونت جراندبر كان فى حالة حرب ضد الكونتيس وكونت شامبين ، فانى سأقوم بمساعدة كونت جراندبر بشخصى ، وسأساعد كونت وكونتيس شامبيين وذلك بارسال الفرسان اليهم الذين أنفق عليهم فى الاقطاعية Fief التى حصلت عليها منهما » .

وهناك الكثير جدا عن النظام الاقطاعى !

ولم يكن الاقطاع ، فى ذروته ، مرتبطا بمهمة الفارس ذات الطابع البطولى ، أو القلعة المتعددة الأبراج أو المرأة المستقيمة التى يدين لهـا الفارس بالولاء The Lady fair . اذ لم يكن الفارس فى القرون التاسع والعاشر والحادى عشر محاربا على مستوى عال من الكفاية والمقدرة ، فكان درعه عاديا ، ولم يكن جواده مدربا تدريبا كافيا ، وقلعته ليست سوى برج خشبى غير قوى ، مقامة فى أعلى ربوة ترابية ، وأما عن المرأة التى يدين لها بالولاء فلم تكن الا ساقطة فى متناول اليد . وتطور نظام الفروسية بعد فترة من الوقت . وبلاشك ليس قبل اضمحلال أسس النظام الاقطاعى القديم عند ظهور النهضة التجارية والنظام المالى وظهور حكومات ملكية قوية . وحينئذ فقط تم تطويع الاقطاع ليصبح فروسيا . وحينئذ فقط سعى الفارس الى اخفاء فائدته الاجتماعية المتدهورة بالاتجاه الى استعمال

الدرع المصقول والأربطة والزى المزركش ، والعبارات المهذبة ، والقلاع المجهزة بكل الوسائل المريحة ٠

ولم يكن الاقطاع حربيا كلية ٠ اذ لم يكن التابع المقطع ملزما بتقديم الخدمات الحربية فحسب ، وانما كان عليه أن يقوم بتأدية مجموعة متنوعة من الالتزامات الاضافية ايضا ٠ ومن بين تلك الالتزامات واجبه فى الانضمام الى حاشية سيده الاقطاعى فى جولاته بالريف ، وعليه أن يقدم الخدمة فى ساحة القضاء الخاصة بسيده الاقطاعى اذا ماطلب منه ، وأن يقدم الطعام والمأوى والاستضافة الى سيده الاقطاعى وحاشيته ابان زياراتهم المتكررة الحدوث فى فترات قصيرة ، وبشكل أكثر مما ينبغى تماما ، وأن يقدم الأموال الى سيده الاقطاعى فى مناسبات معينة ومتنوعة ، وأن يساهم فى دفع فدية سيده الاقطاعى اذا ماقدر له الوقوع أسيرا فى معركة ٠ وصارت الاقطاعة وراثية فى تاريخها الباكر ، بيد أن السيد الاقطاعى احتفظ بحق مصادرة الاقطاعة اذا ما مات تابعه المقطع دون ورثة ٠ واحتفظ بحق الاشراف واستثمار الاقطاعة فى حالة وجود قاصر ، وأن يمارس سلطة حق الرفض Veto اذا مارغبت أرملة حائز الاقطاعة الزواج ٠ وفى مقابل تلك الحقوق ، كان السيد الاقطاعى مجبرا على حماية وتأييد مصالح أتباعه المقطعين ٠ ان جوهر الاقطاع هو مفهوم الحقوق والواجبات المتبادلة ، ونتيجة لذلك لعبت وجهة النظر الاقطاعية دورا أساسيا فى توجيه أوربا العصور الوسطى بعيدا عن الأوتوقراطية والاستبدادية ٠

واذا ماحاولنا وصف الاقطاع بدقة ، يمكن القول أنه لم يكن نظاما يشمل كل المجتمع من القن الى الملك ٠ وبالرغم من أن الاقطاع مرتكز على عمل المزارعين ، فان اطاره العام شمل طبقة المحاربين من السادة الاقطاعيين والأتباع المقطعين فحسب ٠وباختصار ، فهناك بون شاسع بين التابع المقطع والقن ٠ واستمر حوالى ثمانين أو تسعين فى المائة من السكان يفلحون الأرض تحت مرتبة طبقة المحارب الاقطاعى ٠ وفى كتاب عن هذا النوع لنا أن نناقش أسلوب حياة المزارع بتفصيل تام عن « المزرعة التقليدية فى العصور الوسطى » بيد أن النظام الزراعى كان من الناحية الواقعية مختلفا اختلافا بينا ، واذا ماناقشنا المزرعة التقليدية فى العصور الوسطى، فان ذلك سيكون عديم الجدوى ، كما لو كنا نناقش عملا تجاريا أو صناعيا

امريكيا تقليديا • اذ تكشفت الزراعة فى العصور الوسطى عن اختلافات لا حصر لها • اذ تراوحت بين مزارع صغيرة الى عزب كبيرة موزعة بين حقول المزارعين ومجموعات الحقول التى يمتلكها السيد الاقطاعى • وتفاوت المزارعون أنفسهم مابين عبيد وأحرار ، بالرغم من أن الغالبية العظمى منهم فيما بين القرنين التاسع والعاشر شغلوا حالة متوسطة بالنسبة لهذا التفاوت، وعرفوا باسم الأحلاف أو الأقنان ، الذين كانوا مرتبطين بالأرض على مثال الأقنـــان الرومانيين Roman Coloni ، وعليهم ســداد التزامات متعددة ، كانت فى الغالب عينية وليست نقدية ، الى سيدهم الاقطاعى صاحب المزرعة ، الذى كان تابعا اقطاعيا من فئة الفرسان • وكان طبيعيا أن يقوموا بالفلاحة عنده أيام محددة كل أسبوع فى حقول السيد الاقطاعى • بيد أنهم لم يكونوا عبيدا مملوكين • فمن الناحية القانونية لم يمكن بيعهم أو انتزاع حقولهم التى ورثوها • فبعد دفعهم الالتزامات للسيد الاقطاعى يصبح ماتبقى مما أنتجوه ملكا خاصا لهم ، على أنهم كانوا فى وضع لا يحسدون عليه •

وان حالة الفوضى العامة الاقطاعية فى القرنين التاسع والعـــاشر ، تفتيتها الشديد لسلطة السيادة وبحروبها الخاصة المستمرة ، افسحت المجال رويدا رويدا لطريقة للحكم والادارة خاضعة للنظام الى حد ما ، وذلك عندما قامت شخصيات كبرى من أصحاب الأقاليم من أمثال كونت أنجو Count of Anjou أو دوق نورماندى duke of Normandy ، بتوســيع حدودهم على حساب الجيران الأضعف ، وشددوا من قبضتهم على اتباعهم الاقطاعيين وأتباع أتباعهم • غير أنه لم يبدأ ظهور الملوك الفرنسيين فوق مستوى أقطاب الاقطاع الكبار قبل القرن الثانى عشر حيث استطاعوا فرض سلطتهم الحقيقية على المملكة • فقد كان عصر الاقطاع فترة خسوف حقيقى للتاج الفرنسى •

ردود فعل الغزوات _ المانيا :

كان رد فعل غزو انجلترا هو اتحاد المملكة ، أما رد الفعل فى فرنسا كان ظهور الاقليمية الاقطاعية • غير أن رد الفعل فى المانيا اختلف عما حدث فى انجلترا وفرنسا ، نتيجة للسمة الخاصة للغزوات التى واجهتها المانيا من ناحية ، وللأحوال الفريدة التى سادت المانيا نفسها من ناحية ثانية • فالمملكة

الفرنجية الشرقية ـ التى تطورت مباشرة الى الدولة الألمانية فى العصور الوسطى ـ كانت معرضة لغزوات الفايكنج ، بيد أن التهديد الحقيقى أتى من الفرسان الهنغاريين بالشرق . واثبت الملوك الكارولنجيون المتأخرون ـ خلفاء لويس الألمانى ، أنهم غير جديرين بالتصدى لغارات الهنغاريين . فكما حدث فى فرنسا ، انحدرت السلطة الحقيقية الى أيدى كبار الشخصيات فى الدولة . غير أن تلك الشخصيات الكبيرة لم تكن من طبقة الموظفين الكارولنجيين الذين يحملون لقب دوق أو كونت . فمعظم ألمانيا ظلت خارج السيطرة الفرنجية حتى الفتوحات الكارولنجية فى القرن الثامن ، ونتيجة لذلك قام النظام الفرنجى فى الادارة المحلية على أسس غير سليمة . اذ ظل الشعور القبلى القديم عند السكسون Saxons ، والبافاريين Bavarians ، والسوابيين Swabians ، قويا . وفى العقود الحرجة فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر استغل الأستقراطيون الطموحون هذه الثغرة القبلية ، وفرضوا سيطرتهم على المناطق القبلية القديمة . واستعمل هؤلاء الانتهازيون لقب دوق ، وصارت الأقاليم التى تحت حكمهم تعرف باسم الدوقيات القبلية Tribal Duchies . وحاول هؤلاء الأدواق « القبليين » السيطرة على الهيئات الكنسية المحلية ، والاستيلاء على الملكيات الزراعية الكارولنجية فى وقياتهم ، ثم اغتصاب السلطة الملكية . كما أنهم تحملوا مسئولية التصدى للهتديد الهنغارى .

وفى أوائل القرن العاشر كان هناك خمس دوقيات قبلية مهمة ـ سكسونى Saxony ، بافاريا Bavaria ، سوابيا Swabia فرانكونيا Franconia ، ولورين Lorraine . واندمجت كل من سكسونى ، وسوابيا ، وبافاريا فى الدولة الكارولنجية من الناحية الظاهرية فحسب فى حين ان فرانكونيا ولورين كانتا فرنجيتين بقوة أكثر من وجهة النظر والتنظيم .

والواقع أن الأدواق القبليين الخمسة كان من الممكن أن يصبحوا سادة ألمانيا ، غير أن طموحاتهم لم تحقق نتيجة لعاملين مرتبطين ارتباطا وثيقا ، (١) فشلهم فى كبح جماح الهنغاريين ، (٢) وظهور قوة الحكومة الملكية الألمانية فى عهد أسرة جديدة مقتدرة . وكانت الأسرة الكارولنجية قد انتهت فى ألمانيا سنة ٩١١ م بموت الملك لويس الطفل . وخلفه أولا دوق فرانكونيا

ثم دوق سكسونى سنة ٩١٩ م ـ أو سلسلة من الملوك المشهورين واللامعين الذين بنوا سلطتهم الملكية عند هيمنتهم على دوقية سكسونى القوية ٠

وناضل الملوك السكسون بكل قوة من أجل فرض نفوذهم على الدوقيات القبلية ٠ وكانت دوقية سكسونى فى ذلك الحين تحت سلطة الحكومة الملكية ، كما امتدت سيطرة الملوك السكسون على فرانكونيا بسرعة أيضا ٠ غير أن دوقيتى سوابيا وبافاريا الجنوبيتين والشبه مستقلتين ظلتا تمثلان مشكلة ـ كما أن النصر الحقيقى لحكومة السكسون الملكية تحقق فى عهد أوتو الأول Otto I (٩٣٦ ـ ٩٧٣ م) ، ثانى وأعظم ملوك السكسون ٠

وكرس أوتو الأول أو أوتو الكبير ، كما كان يطلق عليه هذا اللقب فى غالب الأحوال ، قدراته المتعددة لتحقيق أهداف ثلاثة بصفة دائمة : (١) الدفاع عن ألمانيا ضد الغزوات الهنغارية (٢) اقامة سلطة ملكية على الدوقيات القبلية الباقية (٣) امتداد السيطرة الملكية الجرمانية لتشمل المملكة الوسطى الغير مستقرة والمنهارة التى كانت معاهدة فيردون Treaty of Verdun ، قد جعلتها من نصيب الامبراطور لوثر Lother سنة ٨٤٣ م ٠ ولقد شاهدنا من قبل كيف بدأت المملكة الوسطى المتغايرة الخواص فى الانقسام اربا اربا بعد موت لوثر ٠ وبحلول منتصف القرن العاشر كانت هذه المملكة الوسطى قد أصبحت مناطق سياسية متقطعة الأوصال ومضطربة ٠ فاستولت ألمانيا على أجزاء منها ، واستولت فرنسا على أجزاء أخرى ، بيد أن المناطق الجنوبية ـ بورجوندى Burgundy وايطاليا احتفظت باستقلال غير واضح المعالم ٠ ولما كانت كل من دوقتى سوابيا وبافاريا لديهما أفكار بشأن السيطرة على تلك الأقاليم ، لذلك سارع أوتو الكبير ، وكان له السبق على القوى المنافسة له ، وقاد جيوشه صوب ايطاليا سنة ٩٥١ م ، واتخذ لقب « ملك ايطاليا » ٠

ومنذ سنة ٩٥١ فصاعدا ، توالت الأحداث سريعا ٠ اذ كان أوتو الكبير مضطرا الى مغادرة ايطاليا على عجل لقمع ثورة خطيرة فى ألمانيا ٠ ومكنه نجاحه على الثوار من توطيد سلطته على ألمانيا بشكل أقوى من ذى قبل ، وفى سنة ٩٥٥ كسب أوتو الكبير معركة العصر الحاسمة ، عندما قضى على الجيش الهنغارى قضاء مبرما ، عند ليشفيلد Lechfeld

حيث أنهى نهائيا ، وعلى نحو حاسم تهديد الهنغار على جناح السرعة ٠ وخدمت موقعة ليشفيلد كدليل قوى للسلطة الملكية ـ واثبات لادعاء الملك ، أنه هو المدافع الحقيقى عن ألمانيا وليست الدوقيات القبلية ٠ اذ تم دحر الهنغاريين ، وظلت ألمانيا الشرقية مفتوحة أمام التغلغل الشرقى التدريجى للثقافة المسيحية ٠ وانتهى عهد الدوقيات القبلية وسادت الحكومة الملكية ٠ وفاق أوتو الكبير معاصريه كأقوى ملك للمغرب والأقوى منذ عهد شارلمان ٠ وانتهت الغزوات على ألمانيا ، والتى بدأت بنهوض الدوقيات القبلية بالمساهمة فى احياء السلطة الملكية ٠

الامبراطورية الالمانية :

بعد موقعة ليشفيلد ظل أمام أوتو الأول عمل « مهم فى حاجة الى الانجاز ٠ فمنذ رحيل أوتو الأول عن ايطاليا استولى على عرش ايطاليا أحد الثوار الذى استمر فى مضايقة البابا ٠ وردا على استغاثة بابوية ـ والتى توافقت كثيرا مع السعى وراء تحقيق مصالحه الشخصية ـ عاد أوتو الى ايطاليا بالقوة ، وهزم المغتصب ، واسترد التاج الايطالى ٠ وفى سنة ٩٦٢ م نادى البابا بأوتو الأول كامبراطور رومانى ووضع التاج الامبراطورى على رأسه ٠ وان هذا الحدث التاريخى المهم ، وليس تتويج شارلمان سنة ٨٠٠ م ، يشكل البداية الحقيقية للنظام المعروف فى العصور الوسطى باسم الامبراطورية الرومانية المقدسة ، واذا كانت أحداث سنة ٩٦٢ م حافلة بذكريات سنة ٨٠٠ م ، الا أن امبراطورية أوتو الأول اختلفت عن امبراطورية شارلمان اختلافا كبيرا ٠ وقبل كل شىء لم يقم أوتو الأول وخلفاؤه على العرش الامبراطورى بأى ادعاءات عالمية بشأن امتداد نطاق سلطتهم على فرنسا أو باقى العالم المسيحى الغربى ٠ والواقع أن الامبراطورية الرومانية المقدسة فى العصور الوسطى لها جذورها فى أعماق الأراضى الألمانية ، وأخضع معظم الأباطرة المصالح الامبراطورية وفقا لمصالح الحكومة الملكية الجرمانية ٠ فمنذ ظهور الامبراطورية الرومانية المقدسة سنة ٩٦٢ م وحتى زوالها الذى تأخر طويلا حتى أوائل التاسع عشر ظلت ظاهرة ألمانية بصفة أساسية ٠

ان الكتيف الجرمانى لامبراطورية أوتو الأول وفقا للظروف وضح من الناحية السلوكية بناء على حقيقة أنه وكذلك غالبية خلفائه على مر القرنين

التاليين لم يبذلوا جهدا حقيقيا من أجل اقامة سيطرة محكمة على ايطاليا . فعندما زحفوا صوب جنوب الألب لم ينجحوا سوى بالاعتماد على أذهان الايطاليين » ، وعندما عادوا الى ألمانيا لم يتركوا خلفهم نظاما اداريا حقيقيا ، وانما اعتمدوا كلية تقريبا على التحالف المتقلب مع بعض الأقطاب الايطاليين. والحقيقة أن الأباطرة الجرمان فى العصور الوسطى لم يتمكنوا من الاستقرار عبر جبال الألب على الاطلاق .

وكانت الأحوال مختلفة تماما فى ألمانيا . فهناك تأخر ظهور الاقطاع لأكثر من قرن بعد تتويج أوتو . وصار كبار الأقطاب أتباعا اقطاعيين للملك. بيد أنه لم يكن لهم أتباع اقطاعيين تابعين لهم كما جرت العادة . وكانت الكنيسة هى الادارة الرئيسية التى استغلها أوتو الأول وخلفاؤه فى ادارة شئون الدولة . وفى فترة وجود بابوية ضعيفة سيطر الملوك الجرمان على الكنيسة داخل حدود مملكتهم . وشددوا قبضتهم على تنظيم التعيينــات الكنسية المهمة .

وانتزع أوتو الأول سلطة تنظيم الكنيسة بنجاح فى الدوقيات المختلفة من الأدواق الذين لم تعد لهم سلطة ، وبمعنى أدق كان الأساقفة الكبار ورؤساء الأديرة رجالا تابعين للملك . وجعل هؤلاء الرجال الكنسيون من أنفسهم نوابا ملكيين مثاليين . ولم يكن فى مقدورهم جعل أراضيهم الزراعية وراثية ، فعند موت أسقف أو رئيس دير اعتاد الملك اختيار خليفة له ومن ثم ضمن أوتو الولاء والمقدرة السياسية للمديرين الملكيين الكنسيين . وبعـد سنة ٩٦٢ م نجح الملك الألمانى فى تعيين البابوات الى حد ما . وكان لابد وأن يأتى وقت يثور فيه رجال الكنيسة على معاملة اليد العليا تلك ، غير أنه فى عهد أوتو كان الوقت مازال بعيداً .

وان مركز أوتو السامى كمالك لكنيسة الامبراطورية كان يحىى بالتأييد العرفى والنظرى . اذ كان أوتو يعتبر اكثر من مجرد ملك علمانى . كما كان ملكا وقســا Rex et Sacredos معترفا به دينيا بعد أن تم مسحه بزيت البركة المقــدس فى الحفل الذى لازم تتويجه . وكان نائبــا لله Vicar of God والرمز للمســيح الملك Christ the king — ـ « القائد الطبيعى » للكنيسة فى امبراطوريته . وفى السنوات الأخيرة من

عهده بدأت سلطته السـياسية على الكنيسة والدولة تتوافق مع طموحاته العظيمـة .

ووفر عهد أوتو الرائع الدافع للنهضة الفكرية الفعالة التى وصلت الى أوجها فى عهد خليفتيه أوتو الثـانى (٩٧٣ - ٩٨٣ م) . وأوتو الثالث (٩٨٣ - ١٠٠٢ م) . وقدمت « النهضة الأوتوية » سلسلة من العلماء ، ورجال الادارة المقتدرين ، ومن أعظمهم جيربيرت من أوريلاك gerbert of Aurillac ، رجل الكنيسة الشهير - وهو البـابا سيلفستر الثـانى Sylvester II فيما بعد (ت ١٠٠٣) . وزار جيربيرت أسبانيا وعاد بمعلومات شاملة عن العلوم الاسلامية . وكان التراث الفكرى الاسلامى قد بدأ فى الانتقال الى العالم المسيحى الغربى أخيرا . وتمتع جيربيرت بذاكرة موسوعية ولو أنها لم تكن مبدعة . فكأستاذ للأدب الكلاسيكى ، وعلم المنطق، والرياضيات ، والعلوم ، أدهش معاصريه بتدريسه الإعتقاد اليونانى - العربى أن الأرض كروية . وانتشرت شائعات أنه أحد السحرة ، وأنه على علاقة بابليس وان كانت هذه الاشاعات تضاءلت عند اعتلائه كرسى البابوية . والواقع أن جيربيرت لم يكن ساحرا ، وانما كان رمزا باكرا للنهضة الفكرية المهمة التى كانت أوربا على وشك الخضوع لها - انه كان بشيرا للعصـور الوسطى العالية .

ولم يعد خلفاء أوتو الكبير فى حالة من القلق من جراء الدوقيات القبلية أو الهنغاريين ، غير أنهم كانوا مجبرين ، ككل الرعية على التغلب على المشكلات الجديدة ، وأن يدبروا الحلول الجديدة . وفى سنة ١٠٢٤ م انقرضت سـلالة السكسـون الحـاكمة وحلت محلهـا أسرة فرانكونيـة Franconian Family عرفت باسم سـلالة سـاليان الحـاكمة Salian dynasty (١٠٢٤ - ١١٢٥ م) . وأفسح الدوقات القبليون المجال الى طبقة أرستقراطية اقليمية الراغبة فى الاسـتقلال والتى كلفت الأباطرة الكثير . ومع ذلك ظلت سـلالة سـاليان قادرة على المحـافظة على قوتها .

أوربا قبيل العصور الوسطى العالية :

وبحلول سنة ١٠٥٠ م كانت كل من انجلترا وألمانيا مستقرة نسبيا

ومنظمة تنظيما حسنا • أما الحكومة الملكية الفرنسية فكانت ضعيفة ولم تتمكن من الاتجاه صوب السيطرة على فرنسا الا فى مدى قرن آخر • هذا فى الوقت الذى تمكنت فيه الامــارات الاقطــاعية مثل نورمـــاندى Normandy ، وفـــلاندر Flanders ، وأنجـــو Anjou من التقدم بخطوات حميدة تجاه التماسك السياسى • واذا كانت الحروب ظلت قائمة ، الا أنها بدأت تقل نتيجة لتحرك أوربا تجاه الاستقرار • وقبل كل شىء انتهت الغزوات ــ وانتهى الحصار • فالعالم المسيحى الغــربى استوعب العالمين الهنغارى والاسكنديناقى ، وأما الاسلام فكان فى موقف دفاع فى ذلك الحين • كما أن عودة الرخاء الاقتصادى ، والزيادة فى انتاج الطعام ، وازدياد تعداد السكان ، ونشاط التجارة ، وزيادة فعالية النشاط الفكرى كل ذلك جميعا بشر بمجىء عصر جديد • وكانت الحضارة الغــربية فى مستهل تقدم سريع مبدع ، وممتاز وهو الذى قدر لها أن تحول العــالم بشكل جوهرى •

الجدول الكرونولوجى لعصر الحصار وآثاره

انجـــلترا :

حوالى ٧٨٧ الغارة الدانمركية الأولى •

٨٧١ ـ ٨٩٩ عهد الفـــريد

٨٧٨ موقعة ادينجتـــون •

حوالى ٩٥٤ اســترداد أراضى الجـــزء الشـــمالى الشرقى من انجلترا كلية •

٩٧٨ ـ ١٠١٦ عهـــد اثيلريد •

١٠١٧ ـ ١٠٣٥ عهد كانوت •

١٠٤٢ ـ ١٠٦٦ عهد ادوارد المعترف •

١٠٦٦ غزو النورمان لانجلترا •

فرنســـــا :

٨١٤ ـ ٨٤٠ لويس التقى •

٨٤٠ ـ ٨٧٧ شارل الأصلع •

٨٤٣ معاهدة فيردون •
٩١١ الاعتراف بنورماندى •
٩٨٧ أسرة كابيه تحل محل الأسرة الكارولنجية •

ألمــانيا :

٨١٤ ـ ٨٤٠ لويس التقى •
٨٤٠ ـ ٨٧٦ لويس الجرمانى •
٨٤٣ معاهدة فيردون •
٨٩١ أرنولف يهزم الفايكنج •
٩٣٦ ـ ٩٧٣ عهد أوتو الكبير •
٩٥٥ أوتو يهزم الهنغاريين فى ليشفيلد •
٩٦٢ تتويج أوتو امبراطورا •
٩٧٣ ـ ٩٨٣ عهد أوتو الثانى •
٩٨٣ ـ ١٠٠٢ عهد أوتو الثالث •
١٠٠٣ صوت جيرميرت من أودريلاك •
١٠٣٩ ـ ١٠٥٦ عهد هنرى الثالث •

Suggested Readings :

The asterisk indicates a Paperback edition.

General Histories of the Early Middle Ages.

Margaret Deanesly, A History of Early Medieval Europe, 476-911. (2nd. ed., Methuen) An excellent, Accurate and highly detailed text. H. St. L.B. Moss the Birth of the Middle Ages (* Oxford) A brief, thoughtful survey running from the Principate through Charlemagne.

J.M. Wallace — Hadrill, the Barbarian West (* Horper) Still more condensed; the discussion of the Carolingian — Renaissance is especially illuminating.

William C. Bark, Origins of the medieval World (* Anchor) Apovoctwe interpretive study.

Robert Lautoche, The Birth of Western Economy (A splendid up To-date account of early medieval economic trends).

M. L.W. Laister, Thought and Letters in Western Europe, A.D. 500 to 900 (reo. ed., Methuen).

The best intellectual history of the period.

Christopher Dawson, The Making of Europ (*Meridian) A brillant analysis of early medieval Culture by A distinguished Catholic scholar.

Byzantium :

N.H. Baynes and H. ST. L.B. Moss (Eds.), Byzantium, An Interoduction to East Roman Civilization (*Oxford). An anthology of essays by Scholarly specialists, Organized Topically. Two short General accounts of Byzantime history and Civilization, available in paperback are highly recommended :

T.M. Hessey, The Byzantime World (Haper).
Steven Runciman, Byzantime Civilization (* Meridian).

G. Osterogorsky, History of the Byzantine State (Blanckwll).
Longer and More detailer than the above Works, this is the best single volume history of Byzantium.

The West Before The Carolingrans :

T.M. Wallace — Hadrill, The long — Haired Kings (Barnes and Nable) A collection of illuminating essays on the Merovinian Period.

A.F. Havinghurst (Ed.) The Pirenne. Thesis analysis, Criticism and Revision, and (* Heath). An excellent approach to one of the central problems in early medieval history through experts from the writing of contending historians for a fuller account of Pirenne's thesis see :

Henri Pierenne, Mohammed and Charlemagne (* Meridian).

Islam :

G.E. von Grunebaum, Medieval Islam (2nd., university of Chicago Press). A learned and original Work, the best on the subject.

P.K. Hitti, History of the Arabs (St. Martin's Press). Broad yet full; a monumental work, or a good interduction to Hitti's work, see :

P.K. Hitti, The Arabs; A short History (* gateway) Two other Two useful surveys in paperback are :

H.A.R. gibb, Mohhamedanism : An historical Survey (* Mentor).

Bernard Lewis The Arabs in History (* Arrow Books).

Carolingian and post — Carolingian Europe :

H. Fichtenau, The Carolingian Empire (* Harper) The best English Language Work on the subject.

P.H. Sawger, The Age of the Vikings (St. Martin's Press). A rather technical, highly significant repraisal of the Viking age.

Marc Blanch, Feudal Society (M. of Chicago Press). A masterly Work, Challengingly written and boldly original in its conclusions.

Lynn White, Jr., Medieval Technology and social Change (* Oxford). An important and provocative pioneering work which defies categorization. Beautifully written and opulently annotated.

Geoffrey Barraclough, The origin of Modern Germany (* Capricon). Incorporates recent scholarship in medieval German constitutional history.

Sidney, Pointer, French Chivalry (* Cornell). Short, Witty and Perspective.

F.M. Stenton, Anglo-Saxon England (2nd ed., Oxford). A massive Masterpiece.

H.R. Loyn, Anglo Saxon England and The Norman Conquest (St. Martin's Press). An authoritative recent Work Emphasizing economic and social history. Carl Stephenson, Medieval Feudalism (* Cornell). A brief, Lucid, Well- Organized account.

Sources :

Norman F. Cantor (Ed.), The Medieval World (* Macmillan). A good recent Collection of medieval sources.

Einhord, Life of Charlemagne, tr. S.E. Turner (* Ann Arbor Paperbacks) A short, resonably trust-worthy biography by Charlemagne's secretary.

Bede, A History of the English Church and People, Tr. Leo Sherley — Price (* Penguin).

القسم الثالث : العصور الوسطى العالية

الازدهار الأول للثقافة الأوربية

١١ ـــ الثورة الاقتصادية والحدود الجديدة ·

ـــ العصور الوسطى العالية ١٠٥٠ ـ ١٣٠٠ م ·
ـــ المدن والتجارة ·
ـــ تدهور الاقطاع ·
ـــ تطور الحياة الزراعية ·
ـــ الحدود الجديدة ·
ـــ أســـبانيا ·
ـــ صقلية وجنوب ايطاليا ·
ـــ الحروب الصليبية (الحروب الدينية المسيحية التى باركتها الكنيســـة) ·
ـــ التوسع الألمانى تجاه الشرق ·

١٢ ـــ الامبراطورية والبابوية :

ـــ الخلفية التاريخية للصراع ·
ـــ حركة الاصـــلاح ·
ـــ الخلاف على تقليد المنصب الدينى ·
ـــ عصر فردريك بابا روما (١١٥٢ ـ ١١٩٠ م) ·
ـــ علو نجم البابوية فى العصور الوسطى ·
ـــ فريدريك الثانى (١٢١١ ـ ١٢٥٠ م) ·
ـــ فشل الامبراطورية فى العصور الوسطى ·
ـــ البابوية بعد انوسنت الثالث ·

١٣ ـــ انجلترا وفرنســـا :

ـــ الحكومة الملكية الأنجلو ـ نورمانية ·
ـــ هنرى الثانى ١١٥٤ ـ ١١٨٩ م ·
ـــ ريتشارد وحنا ·

ـــ هنرى الثالث وادوارد الأول ٠

ـــ أسرة كابيه الباكرة ٠

ـــ لويس السادس والسابع ٠

ـــ فيليب أوغسطس (١١٨٠ ـ ١٢٢٣ م)٠

ـــ لويس الثامن (١٢٢٣ ـ ١٢٢٦ م) ٠

ـــ القديس لويس (١٢٢٦ ـ ١٢٧٠ م) ٠

ـــ فيليب الثالث (١٢٧٠ ـ ١٢٨٥ م) ٠

ـــ فيليب الوسيم ((١٢٨٥ ـ ١٣١٤ م) ٠

١٤ ـــ الأبعاد الجديدة للمسيحية فى العصور الوسطى :

ـــ الكنيسة فى العصور الوسطى العالية ٠

ـــ الأزمة البندكتية ٠

ـــ الحياة الرهبانية الجديدة ٠

ـــ الطوائف التى لا تؤمن بالمذهب الكاثوليكى ومحكمة التفتيش٠

ـــ الرهبنة التى تعيش على الصدقات ٠

١٥ ـــ الفكر والآداب والفنون :

ـــ القوى المحركة لثقافة العصور الوسطى العالية ٠

ـــ الانتـــاج الأدبى ٠

ـــ فن العمارة : من أوائل القـــرون الوسطى الى فن العمارة القـــوطى ٠

ـــ ظهور الجامعات ٠

ـــ الطب والقـــانون ٠

ـــ الفلسفة والعـلوم ٠

١١ ـ الثورة الاقتصادية والحدود الجديدة :

العصور الوسطى العالية : ١٠٥٠ ـ ١٣٠٠ :

كثيرا مايقال أن التاريخ نسيج متصل · بيد أن الفكر البشرى فى مقدرته أن يكون على مستوى الواقع التاريخى بتقسيمه الى وحدات كرونولوجية تحكيمية ـ بتقسيمه الى أجزاء من صنع المؤرخ نفسه · وبهذا المفهوم فان كل « فترة » تاريخية هى نوع من الزيف ـ وتحد لاستمرارية التطور البشرى · ومع ذلك اذا لم نعد الأدوار التاريخية ، واذا لم نستعمل لفظ العصور ، واذا لم نخضع الماضى الى نوع من الاطار الكرونولوجى ، المنهجى ، فاننا لن نستطيع أن نجعل التاريخ مفهوما للفكر البشرى · ومن ثم يتحدث المؤرخ عن « العصور القديمة الكلاسيكية » ، وعن « العصور الوسطى الباكرة » ، وعن « العصور الوسطى العالية » وعن « عصر النهضة الأوربية » ·· الخ · ولاريب أن تلك التقسيمات جميعها هى أكاذيب تاريخية ، غير أنها أكاذيب ضرورية ـ أكاذيب بيضاء · اذ بدونها يصبح التاريخ ذا مغزا غير كامل · اننا لن نستطيع أن نتقدم فى دراستنا بدون « الفترات التاريخية » ، بيد أنه لا يصح أن ننسى أبدا أن هذه الفترات التاريخية هى من صنعنا · ويجب ألا يغيب عن نظرنا أبدا تصور هذه التقسيمات ·

وينطبق تعبير العصور الوسطى العالية على الزيادة الثقافية الكبيرة فى أواخر القرن الحادى عشر ، والثانى عشر ، والثالث عشر · ومع ذلك لم يحدث حدث مثير سنة ١٠٥٠ م يشير الى حلول فترة تاريخية جديدة ، ولم يحدث تغير عنيف سنة ١٣٠٠ م يحدد نهـــايتها · اذ أن التحول من العصور الوسطى الباكرة الى العصور الوسطى العالية كان تدريجيا وغير منتظم · بل ان هناك جداول حول ظهور العصور الوسطى العالية فى ألمانيا منذ القرن العاشر فى عهد أسرة أوتو ، وأنها تأخرت فى فرنسا حتى القرن الثانى عشر عندما استيقظت حكومة كابيه الملكية من سباتها · ومنذ غزوات الفيكنج ، والهنغاريين والعرب الآخذة فى الضعف ـ وذلك قبل سنة ١٠٥٠ م بعقود كبيرة ـ كانت أوربا تنبض بنشاط قوى خلاق · ومع ذلك فعندما نتحدث بوضوح ، يمكن القول أن مجال وقوى النهضة لم تكونا واضحتين حتى نهاية القرن الحادى عشر · وبنهاية القرن الثانى عشر كانت تجارة أوربا النشطة ومدنها تموج بالحركة ، والقوة الفكرية ، والقدرة على الابداع السياسى ،

والتوسع العسكرى ، والحماس الدينى المتزايد ، كل ذلك لم يدع مجالا للشك أن قوى جديدة هائلة كانت ذات أثر فعال • الأمر الذى يمكن المؤرخ من القول أن عصرا جديدا قد ظهر فجره •

على أن أسباب اليقظة الثقافية الهائلة التى حدثت فى العصور الوسطى العالية مركبة الى الحد الذى يصعب فيه تحديدها بدقة أو وضعها فى قائمة يحسب الأهمية • فنهاية الغزوات وزيادة الاستقرار السياسى من العناصر الأساسية • وعرفنا ان سكان أوربا بدأوا فى الازدياد بشكل مثير للانتباه ، وأن انتاجها الزراعى كان فى ارتفاع مستمر • ويصعب القول أن زيادة الانتاج الزراعى أدى الى زيادة عدد السكان أو العكس بالعكس • بيد أن الانتاج ماكان له أن يزداد كما حدث بدون التطورات الثورية فى العلوم التطبيقية ؛ فنظام الحقول الثلاثة ، الذى انتشر فى معظم أنحاء أوربا الشمالية ، الطاحونة الهوائية ، والطاحونة المائية (بحلول سنة ١٠٨٦ م كان هناك اكثر من خمسة آلاف طاحونة مائية فى انجلترا وحدها) ، والمحراث الثقيل ذو العجلات ، وحدوة الحصان وطوق عنقه ، تلك الأشياء التى حولت الخيل من حيوان فعال لجر الأثقال ، وأطقم الخيل التى تجر عربة واحدة ، جعلت من الممكن استخدام الخيل والثيران فى مجموعات كبيرة لجر المحاريث والانطلاق سريعا بالعربات الثقيلة • تلك الأشياء والعديد من الاختراعات المتصلة بها وفدت الى الغرب رويدا رويدا عبر القرون ، بيد أنه كان لها تأثير مؤكد وقوى على الازدهار الاقتصادى الكبير فى العصور الوسطى العالية •

المدن والتجارة :

صاحب ازدياد الانتاج وعدد السكان نهضة تجارية كبيرة وتجديد النشاط العام فى الحياة بالمدن • وتبعا لذلك أصبحت المدن الجديدة مراكز لثقافة موجهة بقوة مثيرة للاعجاب • كما كانت الاتصالات الانسانية الحسية الناشئة عن الحياة بالمدينة حافزا للفكر والفن • فالكاتدرائية والجامعة واللتان كانتا أعظم المعالم التذكارية للعصور الوسطى العالية هما ظاهرتان تنتسبان الى المدينة • كما ان النظام الديرى الفرنسيسكانى ربما كان أعظم المؤسسات الدينية واكثرها فعالية كان نتاجا للعصر الجديد ، وتلك المؤسسة التى نذرت نفسها للعمل التبشيرى بين السكان الجدد للمدن

قبل كل شيء • وعـــلاوة على ذلك كانت المـدن أيضـا مراكز للعمـــل التجارى والصناعى فى المقام الأول • وظل الاقتصاد الأوربى فى العصور الوسطى العالية زراعيا بشكل اساسى ، بيد أن المدن كانت عوامل دفع للعصر ثقافيا واقتصاديا • وفى تلك المدن وقفت كل من عبادة الله وعبادة المال وجها لوجه ، وفى أحوال كثيرة عملتا متعاونتين •

كانت هناك مدن فى أوربا منذ العصور القديمة • غير أن المدينة ذات الطابع العسكرى من الناحية الادارية فى عهد الامبراطورية الرومانية أفسحت المجال بمرور الوقت للمدينة الكاتدرائية التى كانت اكثر تخلفا فى العصور الوسطى الباكرة • وكلتيهما اشتركتا فى شيء خطير : كلتيهما كانتا اقتصادية وطفيلية تعيش على دماء وجهد وضرائب الأقـــاليم الريفية ، وكلتيهما كانتا تستهلك اكثر مما تنتج • ومن ناحية أخرى عبرت المدن فى العصور الوسطى العالية عن شيء جديد بصفة أساسية • ومع وجود قليل من الاستثناءات كانت المدن مراكز تجارية حقيقية ، حققت مكاسبها بأسـاليبها الخاصة ، وعاشت على نتاج أنشطتها التجارية والصناعية • واذا كانت تلك المدن صغيرة ، وموحلة ، وتسودها الأمراض ، وغالبـا ماتمزقتهـا الصراعات الداخلية ، الا انها كانت أولى مدن غرب أوربا بالمعنى الحديث للكلمـــة •

وظهرت تلك المدن بشكل متواتر مع الزيادة السريعة للتجارة • وفى غالب الأحوال بدأت تلك المدن كضواحى للمدن الكاتدرائية الأقدم او للقرى المتواضعة المقامة خارج أسوار بعض القلاع العديدة التى أقيمت فى قوربا خلال القرنين التاسع والعاشر • وأطلق على تلك القلاع بصفة عامة الكلمة الألمانية بورج Burgh ، وبمرور الوقت صارت هذه الكلمة تطلق على المدينة نفسها أكثر من القلعة التى كانت سببا فى وجودها • وبحلول القرن الثانى عشر صارت كل بورج burgh or borough مركزا تجـــاريا مدنيا يسكنه سكان البورج burghers or burgesses ، وهم الذين شكلوا طبقة جديدة فيما بعد عرفت باسم الطبقة البورجوازية bourgeoisie

وفى نهاية القرن الحادى عشر كانت المدن تتطور بسرعة فى كل أنحاء أوربا • وكانت تلك المدن أكثر كثافة فى فلاندر Flanders ، وشـــمال

ايطاليا ، حيث الفرص الهائلة للتجارة الدولية • وكانت مدينة البندقيـــة Venice أعظم مدن ايطاليا والتى كانت مستعمرة بيزنطية لفترة طويلة • بيد أنها كانت فى ذلك الحين جمهورية مستقلة ، استطاع تجارها تحقيق ارباح طائلة نتيجة للتجارة مع القسطنطينية والشرق • وهناك مدن ايطالية ساحلية أخرى تبعت البندقية فى ايجاد أسواق مربحة من شرق البحـــر المتوسط فى الحال مثل جنوه genoa ، وبيـــزا pesa وأمـــالفى Amalfi ، كما أن نتائج تلك التجارة الواسعة المدى جلبت حياة جديدة نشطة لمدن الأجزاء الداخلية فى ايطاليا مثلا ميلان Milan ، وفلورنسا Florance • وخلال العصور الوسطى العالية تم طرد المسلمين من البحار ، وسيطر التجار الايطاليون على البحر المتوسط •

وفى الوقت نفسه ازدادت مدن الفلاندر ثراء من تجارة الشمال ـ من التجارة مع شمال فرنسا والجزر البريطانية ، وأراضى الراين ، وشواطىء بحر البلطيق • وكانت أراضى الفلاندر نفسها اقليما عظيما لتربية الماشية ، وصارت مدنه مراكز لانتاج صناعات الأقمشة الصوفية • وبمرور الوقت أنتجت المدن الصناعات الصوفية أكثر مما تستطيع أن تقدمه الأغنـــام الفلمنكية ، وذلك لأنه منذ القرن الثانى فصاعدا بدأ التجار فى استيراد الصوف من انجلترا بكميات ضخمة • وفى ذلك الحين كانت أراضى الفلاندر، أعظم مركز للصناعات فى أوربا اذ كانت صناعة النسيج أعظم مشروعات العصر الصناعية •

وأضاف نمو المدن والتجارة للمجتمع طبقة سكانية بالمدن الجديدة ، والتى كانت من قبل طبقة زراعية تقريبا على وجه الحصر ، وتجمعت طبقة التجار هذه من المتشردين ، والأقنان الهـاربين ، وصغار النبلاء الراغبين فى اكتساب المال واختزانه وبصفة عامة من فائض ازدياد السكان المفاجىء • وفى تاريخ باكر بدأ هؤلاء التجـــار الطموحون فى الانضواء تحت راية النقابات لكى يحموا أنفسهم من الضرائب التى قد تصل الى حد المصادرة ، ومن عمليات الابتزاز التى مارسها الأرستقراطيون ملاك الأراضى ، والذين أضمروا العداء لهؤلاء التجار • وكانت المدينة فى معظم الأحوال تقريبـا تقع داخل أراضى سيد اقطاعى ـ أحيانا دوقا وربما ملكا ـ ووجد التجار أنه بالعمل الجماعى فقط يستطيعون الحصول على الامتيازات الضرورية

للعمل التجارى : مثل عدم وضعهم فى حالة مشابهة لحالة الأقنان ، وحرية التنقل ، والاعفاء من رسوم عبور الجسور المبالغ فيها ، أو عبور الحدود الاقطاعية ، والحق فى امتلاك العقارات فى المدينة ، والمثول أمام محكمة المدينة ، وحق اتمام العقود التجارية وحرية البيع والشراء ٠

وبحلول القرن الثانى عشر ، أصدر عدد من السادة الاقطاعيين ، الذين اعترفوا بالمزايا الاقتصادية لوجود مراكز تجارية مزدهرة فى أراضيهم ، مواثيق المدن التى تضمن الكثير من حقوقهم ٠ بل ان البعض السادة الاقطاعيين المتميزين ببعد النظر ، قاموا بتشييد المدن ، واصدار مواثيقها بناء على مبادراتهم الشخصية ٠

وفى بداية الأمر كانت مواثيق المدن تختلف عن بعضها البعض الى حد كبير ، بيد أنه بمرور الوقت أصبح من المعتاد تشابهها مع بعضها البعض ، بعد وجود نماذج مشهورة ٠ فالميثاق الذى أصدره ملك انجلترا الى نيوكاسيل فى تاين New Castle) on Tyne ، وكذلك الميثاق الذى أصدره ملك فرنسا الى مدينة لورى Lorris ، تم النقل عنهما مرارا وتكرارا فى كل أنحاء انجلترا وفرنسا ٠ والواقع أن تلك المواثيق حولت الجماعات التجارية الى وحدات لها وجود شبه متمتع بالحكم الذاتى من الناحية السياسية والقانونية ٠ ودفعت تلك الطوائف التى تعيش بالمدن مبالغ طائلة بغية الحصول على مواثيقها ، وواصلت دفع الضرائب المنتظمة الى سيدها الاقطاعى ٠ ولكنهم ـ وهذا مهم بكل مافى الكلمة من معنى ـ فعلوا ذلك كوحدات سياسية ٠ ولم يكن التجار عرضة لمضايقات وكلاء سادتهم الاقطاعيين ٠ وطبق سكان المدن قانونهم فى محاكمهم ، وجمعوا ضرائبهم ، ودفعوا رسومهم الى سيدهم الاقطاعى دفعة واحدة ٠ وباختصار ، فانهم حققوا امتيازا لا يقدر بثمن فيما يتعلق بمعالجة شئونهم الخاصة ٠

ومع ذلك لا يصح أن يستنتج المرء أن المدن فى العصور الوسطى كانت ديموقراطية ، ولو على قدر ضئيل ٠ ان الذين استفادوا من مواثيق المدن هم التجار الأثرياء والصناع المهرة المؤهلين لتدريب الصبيان المهنيين ، وأنهم هم الذين بدأوا عادة فى السيطرة على حكومات المدن كأقلية ضئيلة مهمتها الاستغلال وتحقيق المنافع الذاتية ٠ Narrow oliga riches على السكان الأقل قوة وثروة ٠ وشهدت بعض المدن بدايات لانقسام مثير للانتباه بين

المنتجين على نطاق واسع ، وبين العمال لقاء أجر ، على نمط الرأسمالية الحـــديثة ٠

وفى الواقع يمكن القول أن مدينة العصور الوسطى كانت مسقط رأس الرأسمالية الأوربية ٠ لأنه بمرور الوقت اتجهت المدن الى أن تصبح مراكز للصناعات والتجارة أيضا ٠ اذ تبع التصنيع خطوات التجارة ٠ وبالرغم من أن معظم الانتاج الصناعى حدث فى المحلات الصغيرة ليس فى المصـــانع الكبرى ، فان بعض رجال الأعمال المغامرين استخدموا أعدادا هائلة من العمال لانتاج السلع ــ فى العادة كانت صناعات النسيج ــ على نطاق واسع ٠ ومن الطبيعى ألا يعمل هؤلاء العمال فى مصنع وانما فى محـــلاتهم التى يمتلكونها أو فى منازلهم ٠ ونظرا لأن الملتزم الصناعى كان يرسل مواده الخام الى عماله بدلا من احضار العمال الى المكان الذى به المواد الخام ، لذلك أطلق على هذا الأسلوب فى الانتاج « نظام الانتـــاج المنتشر » Putting out — System — وكمرحلة سابقة على نظام المصنع مباشرة ، فانهـــا كانت مرحلة حاسمة فى تاريخ الرأسمالية الباكرة ٠

على أن الصانع التقليدى فى العصور الوسطى كان يعمـل لحسـابه الخاص فى محله الذى يملكه ويصنع فيه سلعته ، ويبيعها مباشرة للجمهور ٠ ومنذ أوائل القرن الحادى عشر انتظم هؤلاء الصناع المهرة فى نقـــابات حرفية ــ وهى تختلف عن نقابات التجار فى محاولة للحـــد من المنافسة ولحماية سوقهم ، ووضعت النقابات الحرفية شروطا أساسية كاملة ، وقواعد صارمة خاصة بالأسعار والأجور ، ومســـتويات الجودة ، واجـــراءات التشغيل ٠ اذ كان على الشاب الحرفى أن يتعلم حرفته كصبى يتلقى التدريب الحرفى فى محل صانع ماهر مؤهل لتدريب الصبيان المهنيين ٠ وبعد فترة معينة ، أحيانا امتدت الى سبع سنوات ، ينتهى بعدها الصبى من قضاء مدة التدريب المهنى ٠ وربما يصبح صانعا ماهرا مؤهلا لتدريب الصبيان ، اذا ما واتاه الحظ وساعدته أسرته الميسورة الحال ٠ ومع ذلك ، ففى العـادة كان عليه أن يعمل لمدة سنوات كعامل يومى ــ عامل فنى يتقاضى الأجر وفقا لعمله اليومى ، ينتقل من مكان الى آخر ــ بهدف تحسين مهارته وتوفير المال ، الى أن يكون قادرا على استيعاب قدر كاف من التأهيل الحرفى يسمح له بعضوية النقابة وجمع المال لفتح محل خاص به ٠ وقرب نهاية العصور

الوسطى العالية ، بدأ الرخاء الاقتصادى يتضاءل ، وبدأ مجتمع المدينة يصبح أكثر تبلورا ، لذلك أصبح قضاء عمال التراحيل الفنيين أعمارهم دون أن تتاح لهم على الاطلاق فرصة تحولهم الى معلمين مهرة لهم محلاتهم الخاصة بهم أمرا شائعا • وبناء على ذلك صارت المدن مسارح للمشاعر الطبقية المريرة التى تفجرت من حين الى أخر فى شكل صراعات عنيفة وعلنية •

على أن هناك الكثيرون الذين جمعوا ثرواتهم من التجارة والصناعة - وكانت أوربا تعيش فى هرج ومرج من جراء الحياة الجديدة ، وبالنسبة للرجل المغامر الذكى كانت الامكانيات متاحة بشكل ضخم • وفى القرنين الثانى عشر والثالث عشر انتقل التجار بشكل مستمر عبر طرق وأنهـار أوربا • اذ عبر الايطاليون جبال الألب جالبين التوابل وسلع الرفاهية من الشرق الأوسط ، والبلاد الشرقية الى الطبقة الأرستقراطية فى فرنسـا وألمانيـا وحمل التجـار الفرنسيون والألمـان والفلمنكيون Flemish البضائع فى أنحاء القارة الأوربية ، « يشترون بسعر بخس ويبيعون بأسعار عالية » وأمدت سلسلة الأسواق السنوية المقامة على امتداد طرق التجارة البرية التجار الذين قدموا من مناطق نائية ، بفرص ممتازة لبيع بضائعهم • ولكلما زاد نطاق التجارة ، كلما زادت الديون والأعمال المصرفية تبعـا لذلك ، وبحلول القرن الثالث عشر عملت أسر عديدة بالأعمال المصرفية ، وجمعت ثروات ضخمة • ويبدو أمرا متناقضا من الناحية الظاهرية أن الفترة التى غالبا مانظر اليها على أنها تمثل قصة عصر الايمان شهدت ازدياد التجارة على أوسع نطاق وشهدت جمع الأموال • ومع ذلك فان الأموال بنت الكاتدرائية القوطية ودعمت الحملات الصليبية وهى التى مولت المنشات الدينية التى أقامها القديس لويس St. Louis وفجرت الحيوية فى الثقافة الدينية الرفيعة المستوى فى القرن الثالث – انه المال الذى جعل الايمان محاطا بالحماس والغيرة بلا أدنى ريب • وبمرور الوقت قدر للايمان المسيحى أن يكون ضحية لروح الحرص الشديد على المال الذى تفجر فى المدن ، بيد أنه خلال العصور الوسطى العالية أظهر سكان المدن بصفة عامة درجـة من التقوى كانت أكثر حيوية ونشاطا وانفعالا بكثير عما كان عند الفـلاحين والطبقة الارستقراطية • والواقع أن الانطلاقة القوية للتقوى العلمانية بين سكان المدن الأوربية صارت العامل الحاسم فى ارتقاء المسيحية فى العصور الوسـطى •

تدهور الاقطاع :

ان الاقطاع ، المبنى على وضع اليد على الأراضى المملوكة للسيد الاقطاعى عن طريق الوراثة مقابل الخدمة العسكرية كان نتاجا مميزا لمجتمع يعانى من نقص العملة التى ليس من المستطاع دفعها كأجور الى المحاربين. وبظهور النظام الاقتصادى النقدى فى أوربا بدأت العلاقات الاقطاعية الأساسية فى التفكك • وظهر الأثر العميق للعرف الاقطاعى على الفكر الأوربى بوضوح بأساليب مبدعة متنوعة حيث حاولت الطبقة الارستقراطية الأخذ بالنظام الاقطاعى حتى قيام النظم الاقتصادية الجديدة • وانتشر النظام الاقطاعى من فرنسا الى انجلترا وألمانيا ، والى الامارات الصليبية فى الأرض المقدسة وبلاد الشام خلال القرنين الحادى عشر والثانى عشر • ومع ذلك ففى الوقت نفسه بدأ الملوك والأدواق فى اللجوء الى استئجار الجنود المرتزقة فى الأغراض الحربية ، واستخدام القضاة المحترفين والموظفين المدنيين لادارة ممتلكاتهم بشكل متزايد - وأما فى خلال القرن الثانى عشر ، طالب السادة الاقطاعيون أتباعهم الاقطاعيين بدفع ضريبة بدلا من تأدية الخدمة العسكرية فى الجيش الاقطاعى وذلك على عكس ماكان سائدا • ومن الدخل الذى كانت تدره هذه الضريبة - والتى أطلق عليها أحيانا البدلية Scutage - استطاع السيد الاقطاعى استئجار المحاربين المحترفين الذين كانوا أكثر تدريبا ، ونظاما ، وطاعة عن الفرسان الذين تحت أيديهم أراضى زراعية • وظلت الطبقة الأرستقراطية محتفظة بأراضيها وبكثير من سلطتها لعدة قرون تالية ، بل وقادرة على الحصول على المحاربين • على أن فرسان العصر الجديد توقعوا أن تدفع لهم الأجور ، اذ لم يعد يقدمون الخدمة العسكرية على نفقاتهم الخاصة مقابل الأراضى المقطعة اليهم Fiefs . • لذلك ما أن حل دفع الضرائب محل الخدمة العسكرية الشخصية التى كانت واجبا أساسيا بالنسبة للتابع الاقطاعى - وانتشرت هذه الحالة فى كل مكان تقريبا بحلول القرن الثانى عشر - حتى فقد الاقطاع جوهره وروحه •

تطور الحياة الزراعية :

أحدثت الأحوال الاقتصادية والاجتماعية الجديدة فى العصور الوسطى العالية تحولا عميقا فى سكان الريف • ولاريب أن أهم هذه التغيرات شدا للانتباه هو التوسع الهائل فى مساحات الأراضى الزراعية الصالحة

للزراعة . وذلك بعد تحول الغابة البدائية الكبيرة فى شمال أوربا الى مساحات صغيرة من الأراضى المنعزلة ، وتجفيف المستنقعات والأراضى السبخة ، واعدادها كمناطق جديدة للفلاحة . وساعد على انجاز هذه العملية الضخمة تطلع السكان الى حياة أفضل من ناحية ، وتزايد نمو النظام الاقتصادى النقدى من ناحية ثانية . وأمكن ، فى ذلك الحين ، بيع فائض الانتاج الزراعى الى سكان المدن ، وبذلك تحول هذا الفائض الزراعى الى عملة نقدية . وبناء على ذلك كان هناك دافع قوى لدى الزارع على الانتاج أكثر بكثير من مستوى الاستهلاك بأقصر مايستطيع . وهكذا أصبح كل حقل جديد صالحا للزراعة وقادرا على تحقيق الربح .

وهناك تغير ثان لا يقل أهمية عن الأول ألا وهو ارتفاع شأن الفلاح . فامتلاك الرقيق الذى كان نادرا فى العصر الكارولنجى ، اختفى من الناحية الواقعية من أوربا بحلول القرن الحادى عشر . اذ أن الذين فلحوا الأرض كانوا من الأحرار والأقنان فى اغلب الأحوال . وفى الغالب امتلك الرجل الحر حقله الصغير ، بيد أن القن كان موجودا فى المزارع الكبرى بصفة عامة . وفى العادة اشتملت المزرعة الكبرى على حقول الفلاحين وحقول السيد الاقطاعى ـ اراضيه والمبانى المقامة عليها His demesne ـ على أن يذهب كل انتاج هذه المزرعة مباشرة الى السيد الاقطاعى . ومن بين الالتزامات التى يتعين على القن الوفاء بها هو أن يعمل عدة أيام محددة فى أراضى السيد الاقطاعى . وفى العصر الكارولنجى كان السادة الاقطاعيون الذين يمتلكون مزارع كبرى يقومون باستغلال العبيد ، زيادة على الأقنان فى حقولهم الاقطاعية . على أن السادة الاقطاعيين واجهوا عجزا شديدا فى اليد العاملة بأراضيهم نظرا لأن الرق بدأ يختفى رويدا رويدا .

ونتيجة لهذه المشكلة ، ومن أجل مسايرة الاتجاه نحو تحويل التزامات الخدمة الحربية الى التزامات مالية ، اتجه السادة الاقطاعيون الى التخلى عن أراضيهم الزراعية كلية . وقاموا بتأجير الحقول بمزارعهم الكبيرة الى الفلاحين ، كما أعفوا أقنانهم من الالتزام التقليدى الخاص بالعمل بعض الوقت فى مزارعهم الكبرى ، مقابل دفع الأقنان مبلغا محدودا من المال . وفى الوقت نفسه ترجموا الايجار العينى الذى كان يدفعه القن الى ايجار نقدى ـ وبتحرير القن من الالتزام بالعمل ، فانهم حولوه فى الواقع الى فلاح

مستأجر . وبتلك الوسيلة تحسنت أحواله الى حد كبير . وهكذا فان التزامات القن حلت محلها الأسس المالية ، كما حدث تماما لالتزامات التابع الاقطاعي .

ان التخلي عن الأراضي الزراعية التابعة للسيد الاقطاعي كان اتجاها بطيئا وغير منتظم ، وان كان أسرع في بعض المناطق عن المناطق الأخرى . ففي انجلترا ، في القرن الثالث عشر ، نما اتجاه مضاد حيث استصلح كثير من السادة الاقطاعيين أراضي زراعية ، وعملوا على زيادة مساحات أراضيهم الاقطاعية بنجاح . بيد أنه في القارة الأوربية ، اختفى نظام الأراضي التي يقطعها السيد الاقطاعي رويدا رويدا ، ومن الناحية الواقعية ، ورث الفلاح الأرض .

وعندما حول السادة الاقطاعيون الواجبات والخدمات المطلوبة من أقنانهم الى ايجارات مالية محددة ، فانهم فشلوا في تقدير التضخم المالي . اذ ان الازدهار الاقتصادي للعصور الوسطى العالية صاحبة ارتفاع حلزوني للأسعار وتدهور في القوة الشرائية للمال . ومن ثم انخفضت القيمة الحقيقية للأجور التي كان يدفعها الفلاحون للسادة الاقطاعيين . وأبدى كثير من السادة الاقطاعيين في العصور الوسطى المتأخرة أسفهم على الاتفاقات التي عقدها أسلافهم . اذ أصاب الافلاس الناتج عن التضخم المالي أكثر من سيد اقطاعي . بيد أن هذا التضخم المالي كان نعمة من الله بالنسبة للفلاحين في العصور الوسطى . ولم يستطع السادة الاقطاعيون سوى القيام بالقليل لتعويض خسائرهم ، اذ كانوا ملزمين في غالب الأحوال بتحسين أحوال الفلاحين التابعين لهم أكثر فأكثر لمنعهم من النزوح للمدن ، أو الى الأراضي المستصلحة حديثا . وأصبح الطلب شديدا على الفلاح ، كما أن الذين قاموا باستصلاح الأراضي للزراعة من المغامرين الذين حولوا الغابات والمستنقعات الى حقول ، تنافسوا في الحصول على خدمات الفلاح . ونتيجة لذلك شهدت العصور الوسطى العالية ارتقاء أعداد لا حصر لها من الفلاحين من حالة العبودية الى الحرية . وظهرت الوحدات الادارية الريفية الصغير Rural Communes — وهي قرى الفلاحين الذين منحهم السادة الاقطاعيون مواثيق متماثلة تماما مع مواثيق سكان المدن . وعلى المرء أن يكون حريصا حتى لا ينظر نظرة مثالية الى فلاح القرن الثالث عشر ككل — اذ انه ظل في حالة من الفقر والاتسام بالوحشية والهمجية بالنسبة للمستويات الحالية —

ومع ذلك كان الفلاح فى حالة تفوق بوضوح حالته فى عهد الامبراطورية الرومانية أو العصور الوسطى الباكرة . كما أن ثورات الفلاحين التى اثارت الرعب فى أوربا فى العصور الحديثة الباكرة كانت نتاجا لفترة تاريخية سابقة ومختلفة عندما توقف التوسع والازدهار الاقتصـــادى فى العصور الوسطى العالية ليفسح المجال لعصر الركود الاقتصادى وانغلاق الحدود .

الحـدود الجـــديدة :

ان الحدود الممتدة والمفتوحة هى احدى الملامح المميزة للعصور الوسطى العالية . اذ ان استصلاح الغابات وتجفيف المستنقعات يمثل فتحـــا مهما للحدود الداخلية . وكان هذا التوسع موازيا للتوسع الخارجى على امتداد محيط العالم المسيحى الغربى الذى ضم أرض شاسعة من العالم الغربى ، والبيزنطى ، والسلافى فى اطار الزيادة السريعة لحدود الحضارة الأوربية وأضاف الثروة الى الاقتصاد المزدهر .

تزايدت مساحة أوربا الحديثة منذ أن تصدى شارل المطرقة Charles Martel للعـرب سنة ٧٣٣ م . وأدخل شـارلمان نظم الحـكم الفرنجى ، والتعاليم المسيحية فى كثير من أجزاء ألمانيا ، وشيد تحصينات أسبانية حول برشـلونة Barcelona . وعمل استقرار الهنغاريين Hungary والاسكندينافيين . واعتناقهم التعاليم التعاليم المسيحية ، قرب انتهاء القرن العاشر ، على توسيع حدود الحضارة الغربية بعيدا عن المركز الأصـــلى الكارولنجى تجاه الشمال والشرق . وابان القرنين الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر ، تمخضت الزيادة فى السكان عن وجود شباب من الطبقة الاستقراطية الذين لا يمتلكون أراضى زراعية ، والذين بحثوا عن أراضى ومسجد عسكرى على حدود العالم المسيحى . وقدم الفلاحون الأوربيون ـ الذين تزايدت أعدادهم نتيجة للتكاثر ـ طاقات فعالة وقادرة على العمل فى الأرض التى فتحت مؤخرا . وفى الوقت الذى حصل فيه المحارب المسيحى بالحدود على أراضى زراعية جديدة لنفسه ، فانه كان أيضا يدخر كنوزا فى الفردوس ، وذلك نتيجة لجهود ، النضالية من أجل العالم المسيحى الذى اتسع على حساب السلاف الوثنيين فى شرق أوربا والمسلمين بأسبانيا ، وفى صقلية ، وسوريا . ان الأرض ، والذهب ، والخلاص الأبدى ـ كانت كلها مجتمعة المكافآت المغرية على الحدود فى العصور الوسطى .

أســـبانيا :

ولهذا تدفق المغامرون من الفرسان • من كل أنحـــاء العالم المسيحى ــ وبخاصة من فرنسا الاقطاعية ــ أفواجا الى أسبانيا خلال القرن الحادى عشر للعمل على استرداد شبه جزيرة ايبريا من المسلمين ، وبعد سنة ١٠٠٢م تفتت خلافة قرطبة الاسلامية القوية الى مجموعة متباينة الاختـــلاف من الامارات الصغيرة المتناحرة ، وبذلك قدمت للمسيحيين فرصة رائعـــة • ومما يؤسف له أن المسيحيين أنفسهم انقسموا الى ممالك عديدة مما جعلهم يستنفدون جهدا أكثر فى محاربة بعضهم البعض أكثر من الجهـــود التى بذلوها ضد البربر • فأخذت مملكة قشتالة Castile المسيحية زمـــام المبادرة ، واستولت على مدينة طليطلة Toledo ، مدينة المسلمين الكبرى سنة ١٠٨٥ م • وفى سنوات تالية أصبحت طليطلة مركزا مهما للاتصال بين الثقافتين الاسلامية والمسيحية • وفى تلك المدينة تم ترجمة أعمال العــرب العلمية والفلسفية الى اللغة اللاتينية ثم انتشرت تلك الترجمات ، فى كل أنحاء أوربا ، وهى تتحدى الفكر الغربى وتشحذه •

وفى أوائل القرن الثانى عشر ، نازعت مملكة أراجـون Aragon مملكة قشتالة على السيادة ، وأخذت على عاتقهـا مهمة الهجـوم بنفسها على الـــبربر Moors . • وفى سنة ١١٤٠ م صارت أراجون قوية جدا نتيجة لاتحادها مع كاتالونيا Catalonia الدولة الغنية التى كان مركزها برشلونة ــ وهى منطقة الحدود الأسبانية على عهد شارلمان • وخلال الجزء الأكبر من القرن الثانى عشر استغرقت أراجون وقشتالة والممالك المسيحية الأصغر أقواهم جميعا فى محاربة بعضهم البعض ، ومن ثم توقفت حركة الاسترداد من حين لآخر • بيد أنه عام ١٢١٢ م نادى البابا القوى انوسينت الثـــالث Innocent III بشن حرب دينية A Crusade ضــد المسلمين بأسبانيا ، وتقدم ملك قشتالة من مدينة طليطلة ومعه جيش قوى، جمعه من أنحاء شبه جزيرة ايبريا ، وأحرز نصرا حاسما على البربر فى موقعة لاس نافاس دى تولوزا Las Navas de Tolosa

ومنذ ذلك الحين فصاعدا ظلت قوة البربر فى طريقها الى الوهن بشكل مستمر • وسقطت قرطبة Cardova فى أيدى مملكة قشتالة سنة ١٢٣٦ م،

وفى أواخر القرن الثالث عشر انضم البربر الى مملكة غرناطة Granada الجنوبية الصغيرة • حيث ظلوا بها حتى سنة ١٤٩٢ م • وفى ذلك الحين سيطرت مملكة قشتالة على وسط اسبانيا ، وسارت عملية اعادة التنصير بسرعة فى الوقت الذى تم فيه انتقال واستيطان الفلاحين المسيحيين بأعداد هائلة بالأرض التى أعيد فتحها • وفى الوقت نفسه استردت مملكة أراجون جزر غرب البحر المتوسط من المسلمين ، وأقامت امبراطورية بحرية قوية •

وهكذا شهدت العصور الوسطى العالية تنصير كل شبه جزيرة ايبريا تقريبا ، وتنظيمها فى مملكتين مسيحيتين قويتين ، والعديد من الممالك الأقل قوة • ان الحرب الدينية المسيحية Crusede الطويلة ضد المسلمين كانت العامل الرئيسى فى اعادة صياغة الحياة الاسبانية فى العصور الوسطى • وتمثلت نتيجتها القصوى فى ايجاد مزيج قوى من التقوى والوطنية • والهب هذا المزيج حماس القديسين والجنود ، والفاتحين الاسبان الذين فتحــوا المكسيك فى العصر الذهبى لأسبانيا فى القرن السادس عشر الميلادى •

جنوب ايطاليا وصقلية :

من المحتمل أن المحارب الأرستقراطى من نورماندى كان أعظم القوى الحربية نشاطا ، فيما يتعلق بنهضة أوربا فى القرن الحادى عشر — وهم من سلالة الفايكنج الى حد كبير ، بيد انهم تكيفوا فى ذلك الحين مع الثقافة الفرنسية • وهؤلاء الفرسان النورمان ، الذين تحدثوا الفرنسية ، واعتنقوا المسيحية وانخرطوا فى النظام الاجتماعى الاقطاعى ، هم الذين جاهدوا بسلاحهم عبر طول وعرض أوربا : فى استرداد أســـبانيا ، وفى الحروب الدينية المسيحية التى باركتها الكنيسة Crusades بالأراضى المقدسة ، وفى ساحات القتال فى انجلترا وفرنسا ، وفى جنوب ايطاليا وصقلية • وكانت نورماندى نفسها فى حالة من النمو الاقتصادى والاستقرار السياسى ، غير أن ضغوط زيادة السكان دفعت المحاربين النورمان التواقين لجمع المـــال والمحبين للمغامرة الى كل مكان فى عمليات حربية بعيدة •

وفى أوائل القرن الحادى عشر بدأ النورمان يجوبون حظهم فى الفوضى السياسية الشاملة فى جنوب ايطاليا ، اذ ظلت المدن الساحلية — التى كانت من بقـــايا فتوحات جوستنيان — تقـــاوم امارات اللامبارديين القديمة ،

وجمهوريات الموانى النامية مثل نابلى وأمالفى Amalfi • أما جـزيرة صقلية الكبيرة التى تبعد عن الشاطىء تحت سيطرة المسلمين ، وبالأحرى ، كانت مقسمة بين العديد من الأمراء المسلمين الذين بادل بعضهم البعض العداء • وباختصار كانت المنطقة بوتقة ضخمة للفوضى السياسية الاسلامية والبيزنطية والتى كانت ثقافتها مسيحية غربية • ولم يكن هناك استقرار سياسى • وأما وجهة نظر النورمان فكان كل ذلك بشيرا بالخير لهم الى أبعد حـــد •

وفى بداية الأمر عمل النورمان لحساب الأخرى كجند مرتزقة ، بيد أنهم سرعان ماقاموا باقامة الامارات لحسابهم الخاص • وفى أواخر القرن الحادى عشر سقط كل جنوب ايطاليا تحت سيطرة دوق ماهر ومتحجر القلب يدعى روبرت جوسكارد Robert guiscard (ت ١٠٨٥ م) ، الذى نظم المنطقة فى دولة اقطاعية على شكل التسلسل الهرمى وفقـــا للنمط النورمانى • وفتح صقلية شقيق روبرت الأصغر بعد حملة طويلة (١٠٦٠ ـ ١٠٩١ م) ، ونصب نفسه حاكما لها •• وفى ذلك الحين كانت كل منطقة صقلية وجنوب ايطاليا فى أيدى النورمان ، وفى سنة ١١٣٠ م دمج أحـد أقارب روبرت جوسكارد ، وهو روجـر الكبير Roger the great (ت ١١٥٤ م) تلك المنطقة فى مملكة واحدة ، وأصبح أول ملك لها •

وبالرغم من أن مملكة روجر الكبير الجديد ضمت كلا من صقلية وجنوب ايطاليا فقد أطلق عليها ببساطة مملكة صقلية ، وان كانت قد أطلق عليها فيما بعد مملكة الصقليتين Two Sicilies • وحكم روجر وخلفاؤه كل من الشعوب المتعددة بعقائدها المختلفة ، وعاداتها ولغاتها بقوة وتسامح وامتزج التراث الثقافى البيزنطى ، والاسلامى واللومباردى والخاص بشمال فرنسا وتمخض عن بناء ادارى فعال الى أقصى حد • وعرفت مدينة باليرمو Palermo عاصمة صقلية ، بمدينة اللغات الثلاث ، وهى التى كانت ميناء كبيرا ولها قصورا رائعة ، ومبانى مثيرة للاعجاب ، ومنازل تعبر عن حياة الرفاهية • وفى تلك العاصفة عمل العلماء من المسلمين والبيزنطيين ، ومن الغرب تحت رعاية الأسرة المالكة ، وقدموا ترجمات لا حصر لها من النصوص العربية واليونانية الى اللغة اللاتينية ، وقدموا مؤلفات أصلية بجهدهم الخاص • والتقى الشرق بالغرب فى مملكة روجر الكبير المتألقة

بأشعة الشمس ، وعمل كل من الشرق والغرب معا بشكل خلاق حتى جعلا مملكة صقلية أعلى دولة فى مستواها الرفيع فى عصرها ٠

الحروب الدينية المسيحية التى باركتها الكنيسة :

كانت الحروب الدينية التى باركتها الكنيسة أكبر فصول السياسة التوسعية المسيحية الغربية اثارة وادراكا لذاتيتها فى العصور الوسطى العالية ، على الرغم من أنها كانت أكثر أنواع الحروب دواما ٠ وقامت هذه الحروب بالأراضى المقدسة استجابة لوجود أزمة سياسية خطيرة فى الشرق الأوسط ، فقبل قيام تلك الحروب بقليل اكتسحت قبيلة جديدة من أواسط آسيا ؛ وهى قبيلة السلاجقة الأتراك ، بلاد الفرس ، واعتنقت الاسلام ، وجعلت الخلافة العباسية فى بغداد تحت رحمتها ٠ وفى سنة ١٠٧١ م سدد السلاجقة الأتراك ضربة مميتة تقريبا للامبراطورية البيزنطية ، بمهاجمتهم جيشا بيزنطيا هجوما ساحقا فى موقعة منزكرت Manzikert ٠ واستولوا على آسيا الصغرى المستودع الأساسى للطاقة البشرية البيزنطية ٠ وبدأت تتسرب الى الغرب روايات عن الوقائع المتصلة باعتداءات الأتراك السلاجقة الوحشية على حجاج بيت المقدس ٠ واذا كان الامبراطور البيزنطى اليائس قد بلع كبرياءه ، وناشد الغرب المساعدة ، الا أن أوربا ، التى كانت تحت توجيه البابوية كانت راضية عن الحالة التى وصل اليها الامبراطور البيزنطى الى حد أنها رفضت الاستجابة ٠

وتعبر هذه الحروب الدينية المسيحية التى باركتها الكنيسة عن اندماج ثلاثة دوافع مميزة وفقا لمقتضى الحال عن الانسان فى العصور الوسطى — هى الاحساس بالورع ، وحب القتال ، والرغبة الشديدة فى جمع المال ٠ وتشكل كل من الدوافع الثلاثة عنصرا أساسيا ٠ وبدون المثالية المسيحية فلا يمكن على الاطلاق تصور هذه الحروب ، ويضاف الى ذلك أن عامل الاغراء فى امتلاك أراضى جديدة ، وثروة لا حصر لها عززت العمل على تحقيق الحلم الدينى الخاص بتحرير بيت المقدس والأراضى المقدسة من أيدى المسلمين ٠ وقدمت تلك الحروب فرصة رائعة للمقاتل المسيحى من طبقة النبلاء أن تظهر قدراته الفروسية فى خدمة المسيح أو الـرب Lord — وأن يجمع الثروات لنفسه بالاضافة الى ذلك ٠

ووفقا لذلك فعندما دعا البابا أوربان الثانى Urban II النبلاء فى القارة الأوربية الى الاجتماع به سنة ١٠٩٥ م للاشتراك فى حملة صليبية ، واسترداد الأراضى المقدسة ، كانت الاستجابة اجماعية بكل مافى الكلمة من معنى . وفى سنة ١٠٩٦ م كانت الحملة الصليبية الأولى جاهزة . وانطلق الى سوريا وفلسطين جيش دولى عرمرم — ولهذا الجيش قلب ضخم يتكون من الفرسان الاقطاعيين من فرنسا ، ونورماندى ، والنورمان بصقلية . وفى سنة ١٠٩٩ م سقطت بيت المقدس نفسها فى أيدى الصليبيين . ولقد تم انجاز هذه المهمة الضخمة بعد ثلاث سنوات فقط من ادارة الحملات والاشتراك فيها . وتم انتزاع مساحة طويلة من الأراضى على امتداد الشاطىء الشرقى للبحر المتوسط من المسلمين وتوزيعها فى ذلك الحين وفقا للقواعد الاقطاعية ، بين الفرسان المسيحيين . ودعم الصليبيون فتوحاتهم باقامة قلاع منيعة مازالت آثارها تثير اعجاب الرحالة .

وتم تنظيم الأراضى المفتوحة الى أربع امارات صليبية ، كانت مملكة بيت المقدس أكثرها أهمية . وكان ملك بيت المقدس سيدا على الامارات الأربع من الناحية النظرية ، بيد أنه وجد صعوبة فى فرض سلطته خارج مملكته . والواقع أن الفرسان الاقطاعيين الذين استقروا فى الأراضى المقدسة كانوا فى غاية الغرور والولع بالحرب كل لصالحه الشخصى ، ولذلك تميزت الامارات الصليبية منذ البداية بوجود المنافسات والمنازعات الخطيرة .

على أن المسلمين بدأوا يستردون أراضيهم على مر السنين رويدا رويدا . فسقطت بيت المقدس فى أيديهم سنة ١١٨٧ م ، وذلك بعد أقل من مرور قرن على استيلاء المسيحيين عليها . وأرسلت أوربا جيوشا صليبية جديدة الى الشرق . بيد أن ذلك كان على غير طائل . وفى سنوات تالية اشترك بعض ملوك أوربا المشهورين فى حملة صليبية — ريتشارد قلب الأسد Richard the loin Hearted ملك انجلترا ، وفردريك باربا روسا Frederick Barbarrosa ملك ألمانيا ، والقديس لويس St. Louis ملك فرنسا — بيد أن ذلك كله كان دون جدوى على الدوام . وفى سنة ١٢٩١ م سقط المعقل الأخير للصليبيين على الشاطىء السورى فى أيدى المسلمين ، وبذلك انتهت الامارات الصليبية الى غير رجعة .

ومع ذلك كانت الحروب الصليبية أكثر من مجرد فشل ذريع • فطوال الجزء الأكبر من العصور الوسطى العالية سيطر الصليبيون المسيحيون على أجزاء من الأراضى المقدسة • وشحذت أنشطتهم القدرة المبدعة فى أوربـــا وشغلتها لمدة قرنين • وإبان عصر الحروب الصليبية أقام التجار الأوربيون قواعد دائمة فى سوريا ووسعوا دورهم فى التجارة الدولية الى حد كبير • وكان لانتقال جزء كبير من أراضى الامبراطورية البيزنطية الى أيدى المسيحيين الغربيين أثرا جانبيا مدهشا • وحدث هذا كنتيجة للحملة الصليبية الرابعة (١٢٠١ ـ ١٢٠٤ م) التى حولت طريقها الى القسطنطينية بدلا من الأراضى المقدسة نتيجة لسلسلة غريبة من الملابســـات • واستولى الصليبيون على القسطنطينية بعد حصارها سنة ١٢٠٤ م ، ونجحوا فى تحقيق مافشل فى تحقيقه العديدون من قبلهم • وأقاموا حكما لأباطرة غربيين فى المدينة لمدة نصف قرن الى أن حل محلهم حكما يونانيا • وفى الامبراطورية اللاتينية بالقسطنطينية كما حدث فى الأراضى المقدسة وسع الفرسان المسيحيون آفاقهم باقامة علاقات مع الحضارات الأخرى • على أن اكثر تلك الصلات الحضارية فى القضاء على روح التعصب الاقليمى عند النبـــلاء فى غرب أوربا فاق الخصر ••

وأخيرا كانت الحروب الصليبية باعثا على وجود الأنظمة الشبه رهبانية للمحـــاربين المسيحـــيين ـ على سبيل المثـــال ، الفرســـان الـــداوية The Knights Templars والاســـــبتارية The Knights Hospitallers والفرسان التيتونية The Teutonic ـ الذين قدموا امتزاجا للحياة الحربية والمسيحية بشكل لا نظير له • وفى القرن الثالث عشر نقل الفرسان التيتون أنشطتهم من الأراضى المقدسة الى شمال ألمانيا ، ووضعوا أنفسهم فى خدمة الحركة الحضارية المسيحية ـ الألمانية شرقا فى مواجهة السلاف الوثنيين •

التوسع الألمانى تجاه الشرق :

كان شرق ألمانيا لايزال الأمر الثانى لأوربا بخصوص امتداد الحــدود شرقا • ولم يكن التوسع الألمانى تجاه الشرق نتاجا لنشاط سياسة ملكية ، وانما حركة قادتها الارستقراطية المحلية المغامرة ـ اذ نجحوا على امتداد

فترة طويلة تبدأ حوالى سنة ١١٢٥ م حتى حوالى سنة ١٣٥٠ م فى تحريك الحدود الشرقية لألمانيا من نهر الب Elbe الى ماوراء نهر الأودير oder حتى نهر الفيستولا Vistola على حساب السلاف • ودعموا مكاسبهم ببناء عدد لا حصر له من القرى الزراعية وشجعوا هجرات ضخمة تجاه الشرق من الفلاحين الألمان • ونتيجة لذلك فان المناطق الجديدة لم يتم فتحها فحسب • وانما تنصرت وصارت ألمانية الى حد كبير • ونتيجة لهذه الحركة اعتنقت مملكة السلاف البولاندية المسيحية الكاثوليكية ، واندمجت فى بنية العالم المسيحى الغربى •

واتخذت المراحل الأخيرة للجهود الألمانية التوسعية شكل رأس الحربة على يد الفرسان التيتون الذين توغلوا الى حين بعيدا تجاه الشمال الى داخل ليثونيا Lithuania ، ولاتفيا Lativia ، واستونيا Estonia ، بل وقاموا بمحاولة ناجحة لهزيمة روسيا البيزنطية • وابان القرنين الثالث عشر والرابع عشر أجبر الفرسان التيتون على التخلى عن كثير من فتوحاتهم ، بيد أن الكثير من أعمال ألمانيا التوسعية قدر لها البقاء • وشهدت الفترة مابين ١١٢٥ م و ١٣٥٠ م غزو خمسى ألمانيا الحديثة(*) وصبغ تلك المنطقة بالصبغة الألمانية •

وفى أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر توقفت حركة التوسع الأوربية الكبيرة بشكل واضح • وتم فى ذلك الحين الاستفادة من الأراضى الداخلية من غابات ومستنقعات • وبدأت الحدود الخارجية تتمدد فى كل مكان ، وتقلصت كما حدث فى الأراضى المقدسة • على أن الانغلاق فى الحدود واكبه انكماش فى الرخاء الاقتصادى ونضوب فى ثقافة العصور الوسطى العالية • لأن الانجازات الثقافية الرائعة للعصور الوسطى العالية كانت نتاجا لمجتمع الحدود ، الذى يشعر بالتفاؤل ، والبهجة ، وتثير مشاعره عقيدة قوية ، وتدفعه طموحات هائلة ، ويخدعه عالم بدا فيه أن أى شىء من الجائز حدوثه •

(*) قبل الحرب العالمية الثانية •

الجـدول الكرومونولوجى لتغير الحدود الأوربية

أســـبانيا :

١٠٠٢ انهيار الخلافة فى قرطبة ٠

١٠٨٥ الاستيلاء على طليطلة ٠

١١٤٠ آراجون تتحد مع كاتالونيا ٠

١٢١٢ الانتصار المسيحى الكبير فى لاس نافاس دى تولوزا ٠

١٢٣٦ استيلاء قشتالة على قرطبة ٠

صـــقلية :

١٠١٦ بداية تغلغل النورمان ٠

١٠٦٠ ـ ١٠٩١ غـزو صقلية ٠

١٠٨٥ موت روبرت جوسكارد ٠

١١٥٤ موت روجر الكبير ٠

الأراضى المقدسة :

١٠٩٥ الدعوة للحملة الصليبية الأولى ٠

١٠٩٩ استيلاء الصليبيين على بيت المقدس ٠

١١٨٧ الصليبيون يفقدون بيت المقدس ٠

١٢٠٤ استيلاء الصليبيين على القسطنطينية ٠

١٢٩١ طرد الصليبيين من الأراضى المقدسة ٠

١٢ ـ الامبراطورية والبابوية :

الخلفية التاريخية للصراع :

شهدت العصور الوسطى العالية صراعا ملحميا بين البابوية والامبراطورية الرومانية المقدسة ـ وهو خلاف مأسوى سيطر على التاريخ السياسى الأوربى لمدة قرنين · وكانت البابوية تحت قبضة الملك الألمانى أو الامبراطورية الرومانية المقدسة · وبحلول سنة ١٣٠٠ م تحولت الامبراطورية الرومانية المقدسة الى شبح بالنسبة الى عظمتها الأولى كما سيطر الوهن ، على البابوية ، بعد مرور مائتى وخمسين عاما ، وانتابها حالة من الفزع وصارت على شفى حالة من التدهور الذى استمر لفترة طويلة ·

وقبل بداية مرحلة اصلاح البابوية فى منتصف القرن الحادى عشر ، نشأت فجوة بين نظرية البابوية عن المجتمع المسيحى ، وواقع الكنيسة المعاصرة ، فنظرية البابوية وفقا لتقليد ميجل يعود الى ليو الكبير بابا القرن الخامس ، تصورت مجتمعا مسيحيا مقدسا قبل فيه السادة الاقطاعيون والملوك التوجيهات الروحية للقساوسة والأساقفة ، والذى خضع فيه القساوسة والأساقفة الى قيادة البابوية · وادعى البابوات أنهم خلفاء ـ نواب ـ للقديس بطرس · وكما كان القديس بطرس رئيسا لرسل المسيح فقد حاول البابوات أن يبرهنوا على أن البابا ملك للكنيسة الرسولية · وأنه كما أن الخلاص الأبدى أهم بكثير من الجسد لذلك فان السلطة الكهنوتية أعظم بكثير من السلطة العلمانية للسادة الاقطاعيين ، وللملوك وللأباطرة · وأن المجتمع المنظم على مايرام ـ أى المجتمع المسيحى الحق ـ هو المجتمع الذى تسيطر عليه الكنيسة ، وهو الذى يسيطر عليه البابا بدوره · وفى المناخ الفكرى للعصور الوسطى العالية كان لهذه الفكرة أهمية كبرى · وشغلت تفكير العديد من رجال الفكر · كما أنها أمدت البابوية بمكانة فكرية فعالة ، ومقنعة لا يمكن مقاومتها تقريبا ·

ان حقيقة مجتمع منتصف القرن الحادى عشر كانت مختلفة الى حد بعيد · فكانت الكنيسة تحت سيطرة الملوك الأرستقراطيين العلمانيين فى كل مكان تقريبا · فعلى نطاق ضيق عين السادة الاقطاعيون قساوستهم ، واختار الأدواق والملوك أساقفتهم ورؤساء أديرتهم · وكما علمنا استخدم أباطرة

الامبراطورية المقدسة رجال الكنيسة فى ادارة المانيا على نطاق واسع ٠ وفى فرنسا ، قدمت الكنيسة المحاربين من ممتلكاتها الزراعية للجيش الاقطاعى ، والكتبة بالمكاتب القضـــائية ، والمستشارين السياسيين المحنكين للأمراء الاقطاعيين ٠ ولعبت الكنيسة دورا حيويا فى العملية الاجتماعية للقـــرنين العاشر والحادى عشر ، غير أنها كانت دائما تابعة لطبقة الحكام العلمانيين٠ كما أن دورها الروحى والمقدس تعرض للخطر نتيجة لمسئولياتها الادارية المدنية ٠ وتحت تلك الظروف كان من المتوقع أن تتجه الكنيسة الى اهمال رسالتها الدينية ٠ ومن وجهة النظر الروحية فانها كانت لا تؤدى واجبهـا بالقدر الوافى ، وأنها غالبا ماسادها الانحراف ٠ وكثيرا ماتجاهلت كل الأديرة النظام الديرى البندكتى الصارم ٠ وكان لبعض القساوسة خليلات ، والغالبية العظمى منهم كان لهم زوجات ، برغم الشروط القانونية الخاصة بالتبتل الكهنوتى ٠ وكثيرا ماباع السادة الاقطاعيون الوظائف الكنيسية المهمة الى من عرض ثمنا أكثر ٠ وفى العادة قام الأسقف الجديد باسترداد ثمن شراء منصبه باستغلال المستأجرين لأراضى الكنيسة ، وكذلك من هم تحت رياسته بكل قسوة ٠ وعرفت هذه التجارة الرابحة الخاصة بالتعينات الكنيسية بالسيمونية Simoney ٠ واعتبر بعض المصلحين المعاصرين ان السيمونية هى الخطيئة الخبيثة للعصر ٠

ولم يكن الفساد الكنسى أكثر وضوحا فى أى مكان عما كان موجودا فى روما ذاتها ٠ اذ سقطت البابوية فى أوائل القرن الحادى عشر بين الأيدى الملوثة لطبقة النبلاء ، وأصبحت غنيمة تتنازعها الأسر الأرستقراطية القيادية العديدة ٠ وفى سنة ١٠٣٢ م آلت الغنيمة الى شاب فاسق وقليل الخبرة ، وهو البابا بندكت التاسع Benedict IX ، الذى كانت مدة بابويته شائنة ومخزية وفقا للمعايير الرومانية المعاصرة ٠ اذ باع هذا البابا منصب البابوية ، ثم غير رأيه وطالب باسترداده ٠ وبحلول سنة ١٠٤٦ م نافسه شخصان فى الحصول على العرش البابوى ٠ وبذلك ظهر شقاق ثلاثى بالبابوية ٠

حركة الاصـلاح :

تلك كانت أحوال الكنيسة الأوربية عند اقتراب منتصف القرن الحادى عشر ٠ والواقع أن وجود كنيسة تحت سيطرة أصحاب الأملاك العلمانيين

لفترة طويلة صار أمرا فى حكم المقبول · الا أنه عند بداية العصور الوسطى العالية ، خضع العالم المسيحى لتغير متزايد ومهم جدا فى تقوى وورع العلمانيين ، والذى أشار الى ذروة الصراع البطولى والطويل ابان العصور الوسطى الباكرة عند تنصير أوربا · وفى عصر نهضة روحية واسعة الانتشار عميقة بدت علاقة الكنيسة بالدولة القائمة على التعايش فى الفترة الزمنية السابقة وقد جانبها الصواب الى حد بعيد من وجهة نظر الشخصيات التى تتمتع بالفهم العلمى السليم · فالبعض ألزم نفسه بحياة الناسك القائمة على الطهارة والورع ، وانضم البعض الآخر الى التنظيمات الديرية المتقشفة افواجا · ومارس الآخرون المهمة الشاقة الخاصة باصلاح الكنيسة والعالم · وبدأت حركة اصلاح قوية تفرض نفسها على امتداد طول وعرض العالم المسيحى ·

وبصفة عامة انقسم المصلحون الى مجموعتين : (١) المجموعة المحافظة التى سعت الى التخلص من السيمونية ، والتأكيد على ضرورة امتناع رجال الدين عن الزواج ، والرقى بالمنزلة الأدبية لرجال الدين ، دون تحد لتبعية الكنيسة التقليدية للطبقة الأرستقراطية العلمانية - وهى التبعية التى كانت مقبولة بفضل المنح السخية من الأراضى الزراعية والسلطات للأساقفة الخاضعين للطبقة الأرستقراطية العلمانية · (٢) المجموعة المتطرفة التى حاولت اعادة بناء المجتمع على نمط نظرية الحكومة البابوية · وكان المصلحون المتطرفون يحلمون بمجتمع مسيحى مترابط ومثالى لا يقوم العلمانيون بتعيين رجال الكنيسة - مجتمع يحترم فيه الملوك ارادة الأساقفة ، وبه بابوية صالحة لتدير شئون الكنيسة · واذا كان المصلحون المحافظون استهدفوا اصلاح المجتمع ، الا أن المصلحين المتطرفين كانت لديهم الرغبة فى تغييره ·

وكان دير مدينة كلونى البرجندى من أعظم مراكز الاصلاح القائم على المحافظة على التقويم ، وهو دير بندكتى كبير ، وبمثابة جزيرة من الاستقامة منذ انشائه سنة ٩١٠ م · وصارت مدينة كلونى مركزا لمجموعة كبيرة من الأديرة التابعة لها والمنتشرة فى كل أنحاء العالم المسيحى - وهو دير كبير تتبعه مئات من الأديرة الصغيرة وكلها جميعا تدين بالولاء لرئيس دير كلونى · واتسمت الحياة الروحية الكلونية بالعفة دون تزمت · وبدون اللجوء

الى الاجراءات المتطرفة فى التقشف وضعت أديرة كلونى مستوا عاليـــا للأخلاقيات المسيحية فى عهدها ، وحثت الأديرة الأخرى على الانضمام الى مجموعتها الديرية ، وعملت على اجتذاب وصايا الارث القيمة من الطبقة الأرستقراطية العلمانية • وفى منتصف القرن الحادى عشر كانت مجموعة أديرة كلونى قوية وثرية • وازدادت مثلها العليا قوة نتيجة للاحساس بعلو المنزلة ـ وربما أيضا نتيجة للاحساس بالارتياح للنجاح الروحى والقبول الاجتماعى • وعمل النظام الديرى الكلونى على زيادة نشاط الـحركة الأوربية تجاه الاصلاح بيد أن هذا النظام الديرى قبل الهيمنة العلمانية على النظام الاجتمــاعى •

وأيد حركة الاصلاح المحافظ على القديم العديد من الحكام الأكثر استنارة ثقــافية وروحية أيضا ، ومن بينهم الامبراطور هنرى الثـــالث Henry III ملك ألمانيا الذى انتمى الى قبيلة الصـــــاليين Salii الفرنجية التى سكنت مناطق الراين الواقعة قرب بحر الشمال • وتدخل هنرى فى ايطاليا سنة ١٠٤٦ م ، بعد أن وقع فى نفسه الشعور بالاشمئزاز نتيجة للصراع العنيف الثلاثى ، الذى قام بين البابا بندكت التاسع صاحب السلوك المخزى وبين منافسيه ، ولذلك قام بعزل البابا بندكت ومنافسيه ، وعمل على رفع مستوى القيادة البابوية بتعيينه سلسلة من البابوات الذين كان لديهم المقدرة على الاصلاح • هؤلاء البابوات الذين تم تعيينهم بقــرار امبراطورى • وبرهنوا على نشـــاطهم الفعـــال ، قاموا بحملة قوية ضد السيمونية ، وزواج رجال الدين ، وسافروا الى كل مكان فى أوربا ، وعقدوا المجالس الدينية المحلية Synods ، وعزلوا رجال الكنيسة ، الذين ارتكبوا الآثام • وعملت الامبراطورية فى تعاون مع البابوية من أجل رفع المستوى الأدبى للكنيسة الأوربية •

ومع ذلك ، فبرغم نجاح هذه الحركة الاصلاحية ، فقد كان هناك الذين شعروا بأنها غير كافية • اذ اعتقدوا أن الشر الحقيقى يكمن فى الســيادة العلمانية على الكنيسة ، وأن هيمنة هنرى الثالث على البـــابوية ، برغم نواياها الحسنة ، كانت المثل الواضح لكارثة اجتماعية شديدة • وواتت المصلحون المتطرفون فرصتهم ، عند موت هنرى الثالث فجأة سنة ١٠٥٦ م ، تاركا خلفه ابنا قاصرا وملكة وصية ضعيفة ، وفى ذلك الحــين أصــبح

كثير من الكردالة ـ الرؤســـاء الكهنة المكلفون بادارة شئون الكنيسة ـ مفتونين بمفاهيم الاصلاح المتطرف وقبل كل شيء بالنظرية القــائلة بتحرر البابوية من سيطرة كل من السلطة الامبراطورية والسلطة الارستقراطية ٠ وعند موت هنرى الثالث كان آخر البابوات المعينين قد تم سنة ١٠٥٧ م ، حيث بدأ الكرادلة فى انتخاب البـــابوات المصلحين بمعرفتهم ٠ وفى سنة ١٠٥٩ م أصدروا وثيقة مهمة وجريئة ، عن الاستقلال وهى المعروفة بقرار الانتخاب البابوى Papal Electin Decree ، الذى قرر أنه منذ ذلك الحين فصاعدا سيكون موافقة الأباطرة والعلمانيين الرومان على المرشح الذى ينتخبه الكرادلة مجرد موافقة شكلية ٠ وفى السنة التالية عارضت كل من الامبراطورية والأرستقراطية الرومانية هذا الاعلان الثورى ، بيد أن الكرادلة انتصروا فى النهاية ٠ وانتزعت البـــابوية حريتها من السلطة العلمانية ٠ وخطت الحكومة الملكية البابوية خطوتها الأولى ٠

الخلاف على تقليد المنصب الدينى :

كانت الخطوة التـــالية أكثر صعوبة ٠ اذ لم ينتج عنهـــا الا الغـــاء السيطرة العلمانية على الكنيسة ٠ وذلك فى وقت كانت فيه الكنيسة تمتلك ثروة طائلة ، ربما كانت تشمل ثلث الأراضى الزراعية فى أوربا ، وأن تحقيق ذلك الهدف بالكامل لابد أنه أصاب السلطة العلمانية بالشلل وأحدث تغييرا كاملا فى المجتمع الأوربى ٠ ومع ذلك اعتقد المصلحون المتطرفون أنه بتحقيق ذلك الهدف فحسب ٠ ففى الامكان الوصول الى مجتمع مسيحى مترابط بكل حـــق وصدق ٠

وتفجر الخـــلاف العنيف على التعينات العلمانية بشكل جـــدى سنة ١٠٧٥ م ، عنـــدما أصـــدر جريجـــورى الســـابع Gregory VII (١٠٧٣ ـ ١٠٨٥ م) ، أعظم بابوات الاصلاح ، قرار الحرمان واللعنة ضد قيام العلمانيين بتعيين رجال الكنيسة ٠ وجرت التقـــاليد على أن الأسقف أو رئيس الدير الذى تم اختياره لأول مرة على يد السيد الاقطاعى العلمانى أن يتقلد منصبه بمنحه خاتما وعصا الرعاوية ، رمزا لزواجه بالكنيســـة وواجبه الرعاوى تجاه رعيته المسيحية ٠ وهاجم البابا جريجورى الســـابع هذه العادة الخاصة بقيام العلمانيين بتقليد رجال الكنيسة لمناصبهم على انها تمثل رمزا خطيرا للسلطة العلمانية على رجال الكنيسة ٠ على أن تحريم

وحظر هذه العادة كان تهديدا خطيرا لكل حاكم فى العالم المسيحى وبصفة خاصة بالنسبة للامبراطور الرومانى المقدس ، الذى اعتمد نظامه الادارى على سيطرته على الكنيسة الألمانية · وفى عهد البابا جريجورى السابع نما الصبى القاصر ابن هنرى الثالث الى مرحلة الرجولة الكاملة وأبدى مايدل على كونه قويا على مثال والده · فأعلن رفضه للقرار الصادر ضد تعيين العلمانيين رجال الدين ، بارساله خطابا شديد اللهجة والتحدى الى البابا جريجورى السابع ورد عليه البابا برسالة مروعة وبشكل لم يسبق له مثيل بالنسبة لسلطته الروحية ، اذ أعلن حرمانه كنسيا وعزله عن منصبه وباتخاذه هذا الموقف ، تنكر البابا جريجورى السابع للمفهوم المقدس التقليدى عن الحكومة الملكية المفوضة دينيا · ومن وجهة نظر جريجورى السابع ، فالملك ليس نائبا عن الله فى الأرض وفقا للفهم العملى السليم ، وأنه مجرد شخصية علمانية مكلفة بحفظ النظام فى المجتمع المسيحى · وأنه من حق البابا ، الملك الروحى الأعلى للعالم المسيحى أن يقرر اذا ماكان الحاكم صالحا للحكم من عدمه · ولم تكن تصرفات جريجورى الا تصرفات ثورية ، لأنه باصداره قرار الحرمان ضد تقليد رجال الدين مناصبهم على يد العلمانيين وعزله ملك ألمانيا ، فانه وضع النظرية البابوية موضع التنفيذ فى صيغتها المتطرفة Radical Form ، وهز أعماق النظام القائم بعنف ·

وهز قرار عزل هنرى الرابع الذى أصدره البابا جريجورى ألمانيا من الأعماق وأطلق العنان لرد فعل أرستقراطى قوى كان قد استفحل منذ زمن بعيد ضد سياسات المركزية التيمارستها السلالة الصالية الحاكمة Salian dynasty (نسبة الى الصاليين Salii وهم قبيلة من الفرنجة سكنت فى مناطق الراين الواقعة قرب بحر الشمال) · ورفض كثير من الألمان ، ورجال الكنيسة والعلمانيون على حد سواء خدمة ملك محروم كنسيا · واتخذ الأرستقراطيون الكبار الخطوة الثورية الخاصة بتحديد انتخاب ملك آخر بدلا من هنرى ، متحدين التقليد العلمانى المتأصل فى النفوس والخاص بالملكية الوراثية بناء على المبدأ المتعارف والمصيرى الخاص باتباع نظام الملكية بالانتخاب ·

ولما كان هنرى شديد الحاجة الى الاحتفاظ بعرشه ، لذلك ذهب الى ايطاليا يلتمس عفو البابا · ففى يناير ١٠٧٧ م ، وفى قلعة كانوسا

Canossa بمدينة توســكانى Tuscany ، تقابل الرجلان ، فيما ربما كان ، أكبر لقاء مسرحى وغير متوقع فى التاريخ الوسيط • اذ كان هنرى الرابع عارى القدمين ، وذليلا ، ومرتديا ، ثياب التوبة الرثة ، فى الوقت الذى أعلن فيه جريجورى السابع ضمن قرار الادانة أن تغير قلب هنرى انما كان أمرا يدل على النفاق والانتهازية ، وأن من واجبه الكهنوتى أن يعلن الصفح عن آثم نادم • وأخيرا الغى البابا جريجورى قرار حرمان هنرى ، وعاد الملك الى ألمانيا بعد أن وعد باصلاح أحواله ، واجراء تغييرات واسعة لسلطته •

وعلى مر القرون صارت كانوسا رمزا لانحدار مكانة الملك الى أبعـد حد أمام سلطة الكنيسة • وربما كان ذلك صحيحا • غير أنه بالنسبة الى الظروف السياسية الفورية كان ذلك نصرا ــ وأمرا لا بديل له ــ بالنسـبة لهنرى الرابع • وان كان ذلك لم يمنع مجموعة من النبلاء الألمان من انتخاب ملك منافس ، كما أن ذلك لم يعمل على اعادة الحكومة الملكية المركزية القوية التى كانت فى عهد هنرى الثالث ، غير أنه أنقذ عرش هنرى الرابع • وبعد أن استرد هنرى الرابع الحل بتناول القربان ، صار قادرا على استخدام كل طاقات الدعم المركزة ، وكبح جماح القوى التى لها نزعة اقليمية تحت سلطة الأمراء ، لفترة من الوقت • ومع ذلك ، ما أن ازدادت قوته حتى تجاهل وعوده فى كانوسا ، واستمر فى تأييد تعيين رجال الدين على يد العلمانيين• وفى سنة ١٠٨٠ م أصدر البابا جريجورى السابع قرار حرمان ضد هذا الملك الذى استخف بالأمور للمرة الثانية ، غير أن هذا السلاح الروحى الفعال فقد قوته بسبب كثرة استعماله • وفى أوائل سنة ١٠٨٠ م عاد هنرى الرابع الى ايطاليا ، وفى هذه المرة كان معه جيشه من خلفه • وابان حالة الفوضى التى حدثت بعد ذلك اضطر جريجورى السابع الى الفرار من روما واللجوء الى النورمان فى جنوب ايطاليا • وفى سنة ١٠٨٥ م مات جريجورى ، وهو مفعم بالشعور بالمرارة والايمان الراسخ بالفشل ، وكانت آخر كلماته : « انى قد أحببت العدالة وكرهت الظلم ، ولذلك فانى أموت فى المنفى » •

وبرغم فشل جريجورى السابع فى تحويل أوربا الى ماكان يعتقد أنه مجتمع مسيحى حقيقى ، فان نظريته عن الحكومة البابوية احتفظت بقوتها • وفى الحال انتقلت البابوية التى صلحت أحوالها على يدى البابا المقتدر

أوريان الثـانى Urban III (١٠٨٨ - ١٠٩٩ م) ، والذى كان رئيسا سابقـا لدير كلونى Cluny ، والذى تولى القيادة المعنوية لأوربا بدعوته للحملة الدينية (الصليبية) الأولى التى باركتها الكنيسة · وجعل أوريان الثانى وخلفاؤه حياة هنرى الرابع السىء الحظ جحيما لايطاق بعد أن حرضوا على قيام حركات التمرد ضده فى ألمانيا ، والعمل على الاقلال من سلطة الحكومة الامبراطورية · وفى سنة ١١٠٦ م ، مات هنرى الرابع معانيا من الام بنفس القدر الذى كان يعانيه البابا جريجورى السابع · اذ قام فى النهاية ابن هنرى الرابع ووريثه ، بقيادة جيش من الارستقراطيين الأعداء ضد والده · وعند موت هنرى الرابع بدت الامبراطورية الجرمانية على انها قد أصيبت بالانهيار الشديد من حوله ··

وتمتع هنرى الخامس (١١٠٦ - ١١٢٥ م) بعهـد أكثر سعادة عن والـده ؛ وذلك لأنه تخلى عن صراع والده من أجل استعادة السـلطة الامبراطورية الكاملة كما كانت موجودة فى منتصف القرن الحادى عشر ، وعملت الطبقة الارستقراطية النازعة الى الاستقلال على تدعيم مكاسبها التى حققتها ابان فترة الفوضى العامة السابقة ، ولم يستطع هنرى الخامس ان يفعل شيئا فى هذا الصدد ·

وقرب نهاية عهد هنرى الخامس ، توصل الى تسوية لحل المنازعات مع الكنيسة حيث تم وضع حد للخلاف على تقليد المنصب الدينى · وكان قد تم تسوية هذا الخلاف فى كل من انجلترا وفرنسا من قبل ، حيث كان الصراع بين الكنيسة والدولة أقل عنفا بكثير عما كان موجودا فى ألمانيا · وبمرور الوقت مالت البابوية والامبراطورية الى التحرك بعض الشىء عن موقفيها المتباعدين اللذين تمسكا بها ابان مدة وجود جريجورى السابع على العرش البابوى · وأخيرا تم تسوية الخلافات بين البابوية وهنرى الخامس لتنظيم شئون الكنيسة فى اتفاقية ورمز Concordat of Worms سنة ١١٢٢ م· ووافق هنرى الخامس على أن طقوس تقليد المنصب الدينى لن تتم على يدى العلمانيين ، غير أن البابا خول للامبراطور الامتياز المهم الخاص بوضع الرموز الخاصة بالأسقف الجديد والمتعلقة بنطاق سلطته الاقليمية والادارية · ومنذ ذلك الحين فصاعدا صار انتخاب الأساقفة ورؤساء الأديرة يتم وفقا لمبادىء القانون الكنسى ، بواسطة رهبان الدير أو قوانين الكاتدرائية ، بيد

أنه للامبراطور الحق فى حضور تلك الانتخابات ، وأن يصدر القرار الأخير فى حالة حدوث خلاف · ومكنت تلك الاحتياطات الامبراطور من أن يحتفظ بقدر كبير من السيطرة الواقعية عند تعيين رجال الكنيسة الألمانية · والواقع أن التوفيق بين السلطة الملكية والانتخاب وفقا للقانون الكنسى ظهر بوضوح فى الميثاق السعيد الصادر فى القرن الثانى عشر فى عهد هنرى الثانى ملك انجلترا عندما قال لرهبان ونشستر Winchester ، « انى أطلب منكم أن تجروا انتخابات ، ومع ذلك فانى أمنعكم من انتخاب أى شخص آخر غير ريتشـــارد Richard ، رجل الدين التابع لى ، ورئيس شمامسة بوابيه "Poiters .

ولم يكن هناك منتصر حقيقى فى مسألة الخلاف على تقليد المنصب الدينى ـ فالكنيسة حققت غرضـــها ـ وتم تعيين رجـــال الدين على يد العلمانيين ـ بيد أن الملوك ظلوا يمارسون سيطرة حقيقية على كنائسهم · كما أن نظرية الحكومة البابوية المالكة لمجتمع مسيحى ظلت دون تحقيق ·

ومع ذلك ، فان ميزان القوى البابوى ـ الامبراطورى تغير بشـــكل أساسى منذ منتصف القرن الحادى عشر · اذ كانت البابوية فى ذلك الحين قوة عظمى ، فى الوقت الذى تدهورت فيه سلطة الامبراطورية تدهورا شديدا · وابان نصف قرن من الفوضى السياسية بين بداية الخلاف على تعيين رجال الدين فى سنة ١٠٧٥ م ، وموت هنرى الخامس فى سنة ١١٢٥ م ، وصل الاقطاع الى ألمانيا · وفى تلك العقود الخاصة بالنزاع المدنى ظهرت طبقة أرستقراطية جديدة وقوية · وأصبح كبار ملاك الأراضى الطموحين سلطة كبيرة ، وبنوا القلاع وانتشرت أراضيهم الزراعية ، واغتصبوا الحقـــوق الملكية · وأجبروا الفلاحين الأحرار على أن يصيروا أقنانا لهم · وكانت الحكومة الملكية عاجزة عن وضع حد لهذه العملية المنذرة بتفتت الدولة ·

وفى شمال ايطاليا مارس الأباطرة سلطتهم التقليدية على يد الأساقفة اللومبارديين ـ الموالين للامبراطورية ، والذين كان لهم حقوق قانونية كبيرة على مدنهم وعلى الأقاليم الزراعية المحيطة · وابان الفوضى الناجمة عن الصراع البابوى الامبراطورى تبنى سكان المدن التجارية الآخذة فى النمو ـ والذين كانوا أتقياء ، ولديهم ميل شديد للاستقلال فى السهل اللومباردى ـ قضية الاصلاح البابوى ، وثاروا ضد السيطرة البابوية والأسقفية ، وأقاموا

وحدات ادارية صغيرة شبه مستقلة أو نظام المدينة ـ الدولة • وبحلول سنة ١١٢٥ م كانوا قد قضوا على سلطة الأساقفة اللومبارديين قضاء كاملا، وأضعفوا السيطرة الامبراطورية الى الحد الذى كانت فيه أقل بكثير من الناحية الشكلية • لقد أصبح الاقليم النورماندى أقساما ادارية صغيرة على نسق الادارات المدنية •

وفى ألمانيا وايطاليا على حد سواء ، كانت السلطة الامبراطورية تتراجع أمام زوبعة النزعة الاقليمية المحلية ، والتى غزتها حالة الورع الشعبى الذى بلغ مداه فى ذلك العصر • وهكذا فقبل عقد اتفاقية ورمز بكثير كان قد بدأ سقوط امبراطورية العصور الوسطى •

عصر فردريك بربااروسا (١١٥٢ ـ ١١٩٠ م) :

انقرضت السـلالة الحاكمة السـالية برحيل هنرى الخامس سنة ١١٢٥ م • وخلال الربع التالى للقرن جنت ألمانيـا الحصـاد المرير للنزعة الاقليمية للأمراء • وتجاهل النبلاء الكبار مبدأ تولى عرش الملك بالوراثة ، وعادوا الى المبدأ الانتخابى الذى كانوا قد التزموا به فى عهد كانوسـا Canossa • وكان اختيارهم يقع على رجل من دم ملكى على الدوام ، غير أنه لم يكن الوريث المباشر على الاطلاق • وفى عقود الاضطرابات الواقعة بين ١١٢٥ م و ١١٥٢ م قامت منافسة كبيرة بين أسرتين قويتين وصلتا الى السلطة ابان فترة الفوضى الناجمة عن الخلافات الخاصة بتعيين رجال الدين : أسرة ويلف من ساكسونى Welf of Saxony وأسرة الهونشتوفين من سـوابيا Hohenstaufens of Swabia وفى سنة ١١٥٢ م انتخب الأمراء ملكا قويا هونشتوفيا موهوبا ، وهو فردريك باباروسـا (صاحب اللحية الحمراء) ، دوق سوابيا ، الذى أخذ على عاتقه اعـادة احيـاء ، وبناء الحكومة الملكية الألمانية •

أدرك فردريك باربا روسا جيدا أنه من المستحيل اعادة بناء الامبراطورى القوى الذى كان على عهد هنرى الثالث • لذا كان هدفه تسخير القوى الاقطاعية الجديدة فى عصره لصالح الملكية • ومن الناحية الواقعية ، عمل على أن يمد الأمراء الكبار بالملكة نفوذهم وامتيازاتهم على حساب السادة

الاقطاعيين الأصغر ، بيد أنه فى الوقت نفسه أجبرهم على الاعتراف بسيادته الاقطاعية فى كل أنحاء المملكة • بمعنى آخر ، فقد نجح فى جعل أقطاب الاقطاع الذين تولوا القيادة أتباعا اقطاعيين له ـ مستأجرين بشكل رئيسى وبذلك كان السيد الاقطاعى الأعلى على قمة النظام الهوسى الاقطاعى •

غير أنه يتضح جيدا من الحالة التى يرثى لها للملكية الفرنسية الباكرة، كانت السيادة العليا الاقطاعية أمرا سريع الزوال اذا ماكان السيد الاقطاعى الأعلى يفتقر الى السلطة والموارد المالية ليدعم مركزه • ولذلك شرع فردريك باربا روسا فى زيادة الدخل الحكومى وزيادة مساحة الأراضى تحت سلطته المباشرة •

ويحتاج الملك الاقطاعى الى جزء مركزى ملكا خاصـــا له • وتحت السيطرة الملكية تماما وهى أراضى واسعة تابعة للقصر الملكى مباشرة تقوم بعمل توازن مع الاقطاعات الكبيرة التى يمتلكها أكبر أتباعه الاقطاعيين فى مملكته • وعمل فردريك على زيادة مساحات الأراضى الزراعية التـــابعة للقصر ، وتركز معظمها فى سوابيا ، وذلك بوضعه الكثير من الأديرة الجديدة والمدن الآخذة فى النمو تحت نطاق سلطته الامبراطورية • على أن النقطة الأساسية فى سياسته البـــارعة هى اقامته سلطة امبراطورية على مدن لومباردى الغنية ، وبوضع لومباردى تحت سيطرته ، بدخلها الوفير الذى غذى خزانة الامبراطورية • فلم يستطع أحد من السادة الاقطاعيين الألمان أن يتحـداه •

على أن سياسة باربا روسا تجاه اللومبارد جلبت عليه عداء البابوية التى كانت تخشى على الدوام من تدعيم السلطة الامبراطورية فى ايطاليا • والواقع أن البابوية استرجعت ذكريات البابا جريجورى السابع باعلانها حرمان وعزل الامبراطور • واختصت البابوية لنفسها بحلفاء فى المدن اللومباردية المستقلة استقلالا قويا ، والتى عقدت العزم على تقديم جزء من ثروتها والتنازل عن شيء من تمتعها بالحكم الذاتى قدر استطاعتها • وكانت نتيجة ضغوط باربا روسا المثيرة للغضب الشديد ، وتشجيع البابوية أن قامت تلك المدن بتكوين اتحاد عرف باسم الحلف اللومباردى Lombard League وأنشأوا جيشا قويا ربط بين المدن لمقاومة الامبراطورية الرومانية المقدسة • وانتهى النضال المرير الذى طال أمده وتورط فيه كل من باربا روسا والبابوية

واللومبارد ، بنصر شامل للجيش اللومباردى فى معركة لينجانو Lengano سنة ١١٧٦ م · واستسلم باباروسا بأقصى درجات الكياسة التى قدر عليها ، مانحا استقلالا فعليا للمدن اللومباردية فى مقـــابل اعترافهم بالســيادة الاقطاعية العليا للامبراطورية التى شابها شىء من الغموض وتعانق البابا والامبراطور والدموع فى عينيهما ، ووعد باربا روسا أن يكون ابنا مطيعا للكرسى البابوى الرومانى من ذلك الحين فصاعدا ·

خسر باربا روسا معركة غير أنه لم يخسر الحرب على الاطلاق وترك لومباردى بمفردها على نحو خطير ، ونقل عملياته العسكرية جنوبا الى اقليم توسكانى ، واقام سلطة ادارية على هذا الاقليم الغنى الواقع شمال الولايات البابوية مباشرة · وفى الوقت نفسه رتب زواجا مصيريا بين ابنه ووريثة المستقبل لملكة النورمان فى جنوب ايطاليا وجزيرة صقلية ــ وهو الزواج الذى وضع تلك المملكة الغنية فى حظيرة الامبراطورية فى النهاية · وكانت البابوية ضحية لتفوقه عليها فى حيله التى اتسمت بالدهـــاء الشديد · ، كما كانت البابوية فى خطر شديد من جراء محاصرته لها وامساكه بتلابيبها · وفى سنة ١١٨٠ م عمل باباروسا على تدعيم سلطته فى ألمانيا بالقضاء التام على أكبر وألد أعدائه من بين أتباعه الاقطاعيين وهو ويلف دوق ساكسونى Welf duke of Saxony وكان هذا الامبراطور البعيد النظر فى أوج قوته سنة ١١٩٠ م عندما مات ابان قيادته لجيشه تجاه الأرض المقدسة للمشاركة فى الحملة الصليبية الثالثة ·

وبذل باربا روسا جهدا مضنيا حتى لا يتعرض للخضوع لطريقة انتخاب الملك المتبعة وذلك باجباره الأمراء قبل موته على اختيار ابنه هنرى السادس، وفى سنة ١١٩٠ م اعتلى هنرى السادس عرش الألمان دون صعوبة ، وفى سنة ١١٩٤ م طالب بحقه فى مملكة صقلية بكل مافى الكلمة من معنى ، وفى ذلك الحين كانت الولايات البابوية جزيرة محاطة تماما بالامبراطورية الرومانية المقدسة ، ولا حول ولا قوة للبابوية فى تغيير الموقف · وبفضل فى الموارد المالية الضخمة من جنوب ايطاليا وجزيرة صقلية كانت الخزانة الامبراطورية عامرة بالأموال · كما أن الأراضى التابعة للدولة فى هذا العهد الامبراطورى لم يسبق لها الاتساع على ذلك النحو ·

ولولا أنه كان على الامبراطور أن يظل يقظا على الدوام أمام القوى الطارد ذات النزعة الاقليمية ، وقبل كل شيء أمام الطموحات التى لا حد لها لأتباعه الاقطاعيين الكبار الألمانيين ، كان من الممكن أن تمتد حدود الدولة إلى حد كبير جدا . وظل الأمر مثيرا للتشاؤم المشكوك فيه اذا ماكان الانسان بمفرده لديه المقدرة على حكم ايطاليا وألمانيا فى وقت واحد . ولن يكون فى مقدرتنا معرفة اذا ماكان هنرى السادس قادرا على انجاز هذه المهمة ، لأنه مات قبل الأوان سنة ١١٩٧ م ، تاركا العرش لوريثه الطفل فردريك الثانى . وان المشاكل التى واجهتها الامبراطورية سنة ١١٩٧ م كان من الممكن أن ترهق أقدر القادة ، حتى أن القيادة الامبراطورية فشلت فى هذه الفترة العصيبة . وأخيرا جاءت فرصة البابوية .

- علو نجم البابوية فى العصور الوسطى :

فقدت البابوية من روح الاصلاح المتحمس السابق ، وذلك ابان القرن الثانى عشر عندما تطورت إلى مؤسسة ادارية معقدة وضخمة ، وتدفقت الموارد المالية على خزانة البابوية من كل ولايات العالم المسيحى الغربى ، حيث قطع الأساقفة مسافات شاسعة فى الذهاب الى الحبر الرومانى لتقديم الطاعة الروحية . وكانت سلطة البابوية على الكنيسة قد تزايدت الى أبعد حد منذ منتصف القرن الحادى عشر . وذلك عندما اقترب حلم الحكومة البـــابوية من أن يتحقق ، وتم تفسير النظرية التقليدية الخاصة بسيادة بابوية على المجتمع المسيحى وزادت تعظيما على يد فئة جديدة من الدارسين للقانون الكنسى ، كنتيجة للزيادة الكبيرة فى الثقافة والمذهب العقلى . وانكب هؤلاء العلماء الكنسيون على دراسة القوانين الكنسية القديمة وكل ماهو متعارف عليه فى الكنيسة للكشف عن أدلة جديدة لصـــالح القضية البابوية . واذا كان كثير من البابوات المصلحين فى القرن الحادى عشر من الرهبان ، فان الغالبية العظمى من بابوات أواخر القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر كانوا ممن درسوا القانون الكنسى .

وكان انوسنت الثالث Innocent III (١١٩٨ - ١٢١٦ م) أعظم هؤلاء البابوات الدارسين للقانون الكنسى ، الذى اعتلى العرش البابوى فى العالم التالى لموت هنرى السادس . انه هو الذى اغتنم فرصة اعتلاء طفل عرش امبراطورية مترامية الأطراف . كان انوسنت الثالث يمثل تاريخ

أعظم البابوات قوة ــ اذ أنه كان ارستقراطيا واثقا من نفسه ، ومهيبـــا ، ودبلوماسيا ماكرا ، ومتقد الذكاء ، وتقيا دون تكلف ، ومع ذلك بعيدا عن الاسترسال مع العاطفة الدينية الجياشة التى سادت القوم فى عصره . ولما كان البابا أنوسنت الثالث متأثرا للغاية بنظرية الحكومة البابوية فى اشد صورها المتشددة ، لذلك فانه فرض ارادته على ملوك العالم المسيحى ، ونجح فى تأليب كل ملك على الآخر تحقيقـــا لمصلحته الشخصية ببراعة شديدة . وانتهى الصراع الطويل مع حنا John ملك انجلترا بشأن تعيين رئيس أساقفة مدينة كانتربرى Canterbury بالخضوع الكامل للسيادة البابوية والاعتراف بسلطانها على انجلترا . وفى فرنسا عطل انوسنت الثالث اقامة الطقوس الكنسية مؤقتا ، وأصدر قرار الحرم الكنسى ضد ملك فرنسا لاجباره على طلاق زوجته الثانية . ودعـــا الى حملة صليبية جديدة الى الأراضى المقدسة ، ودعا ايضا الى حملات صليبية ضد المسلمين المغـــاربة Moors بأسانيا ، وكذلك ضد مجموعة قوية من الطوائف المسيحية التى لا تدين بمذهب الكنيسة عرفت باسم الالبجنسيين Albingensians وباختصار ، فانه مارس سيطرة معنوية على العالم المسيحى لا يضـــاهيه فيها أى بابا من قبل أو من بعد .

وكانت المانيا ابان فترة توليه البابا انوسنت الثالث ممزقة نتيجـــة للصراع المرير على العرش بن أسرتى ويلف Welf والهوهنشـــــتوفن Hohenstaufen . وفى بداية الأمر ساند انوسنت أحد المنافسين ضد الآخر . وأخيرا اختار فردريك الثانى الطفل الوريث لأسرة هوهنشتوفن - وانتزع انوسنت وعودا كثيرة من فردريك الثانى ، وجعله يقسم على أن يفصل مملكة صقلية عن الامبراطورية ، وأن يذهب على رأس حملة صليبية ، وأن يسير وفقا للتعليم الروحى للبابوية . الا أنه ما أن مات انوسنت حتى أعلن فردريك صراحة ، أنه سيطرح جانبا نصيحة البابا . وسيتصرف كما يحلو له . وهكذا وقع أنوسنت في سوء تقدير شديد الخطورة عند اختيـــاره فردريك الثانى .

فردريك الثانى (١٢١١ ــ ١٢٥٠ م) :

تعرض فردريك الثانى ، الذى تربى فى صقلية للولاء المتعدد . وشب

متقد الذكاء ، غير متدين ونزاعا للشك ، واهتم بحريمه ، واقتنائه الحيوانات المفترسة المجلوبة من عدة أماكن · فاقت اهتماماته بخلاص روحه · وأصاب معاصريه بالانبهار واستحق اسم « أعجوبة العالم » Stupor Mundi اذ أن حلمه بتوحيد كل ايطاليا وجعلها مركزا للامبراطورية جلب عليه عداء البابوية الأبدى · والواقع أن بعض رجال الكنيسة اعتبروا فردريك عـــدوا للمسيح شكلا وموضوعا ·

كان فريدريك الثانى رجلا موهوبا ، ومتعدد الاهتمامات ـ ربما كان أعظم نتاج متوهج لعصر اتسم بالابداع بدرجة شديدة · وكان كاتبا له مقدرة فائقة ، وعالما هاويا ، وشديد الشغف بالعالم المحيط به ، بيد أنه فى بعض الأمور كان مؤمنا بالخزعبلات بدرجة شديدة · وبعد فوات كثير من الوقت نفذ وعده فى قيادة حملة صليبية (سنة ١٢٢٨ م) ، غير أنه بدلا من محاربة المسلمين فانه فاوضهم ، وحالفه كثير من التوفيق فى تلك الخطوة حتى أن الطابع السلمى لحملة فردريك الصليبية أصاب الكثير من رجال الكنيسة باعتباره عمـــلا غير مقدس تجـــاه الكفرة infidel (يقصد المؤلف المسلمين !!!) ، وأن نجاح هذا الطابع السلمى عمل على زيادة شعورهم بالغيظ · كما أن فوز هذا المتشكك فى الدين ، والذى لا يتسم بالوقار ، بتاج بيت المقدس كان أمرا ليس فى مقدرتهم تحمله تقريبا ·

حكم فردريك الثانى مملكته فى صقلية حكما مطلقا الا أنه كان على نمط الحـــاكم المطلق المستنير فى عصر النهضة الأوربية ، وأصدر مجموعة قانونية ، وتمسك بالنظام المركزى لأســـلافه النورمان الذين عاشوا فى صقلية ، وعمل على التوسع فى ذلك المجال ، وشجع الزراعة والصناعة والتجارة ، وألغى الرسوم الجمركية الداخلية والمكوس ، وأقام جامعة كبرى فى مدينة نابلى · وكان قد وعد البابا انوسنت الثالث بأنه سوف يفصل صقلية عن الامبراطورية ، بيد أنه لم يبذل أى جهد للوفاء بوعده · وبالرغم من انه حاول أن يسير على نهج سياسة فردريك بارباروسا فى تقوية الأراضى الزراعية التابعة للتاج ، وفرض الالتزامات الاقطاعية على كبار أتبـــاعه الاقطاعيين الجرمان ، فانه قام بذلك بحماس أقل وبالنسبة اليه ، كانت ألمانيا مهمة فى المقام الأول كمصدر للمال وللقوة الحربية حيث تمكن من تنفيذ سياسته القائمة على وضع كل ايطاليا تحت سيطرته ·

وكما حدث اثبتت هذه السياسة فشلها الذريع · اذ أن أعمال فريدريك العدوانية فى ايطاليا اثارت معارضة الحلف اللومبـاردى Lombard League الذى عاد اليه النشاط من جديد ، وكذلك عداء البابوية ، الذى لم يكن هناك سبيل الى تغيره · وتخلى عن الأراضى والحقوق الملكية فى المانيا بطريقة تكان تكون تخليات دون مبالاة تقريبا لكى يظل على سلام مع الأمراء الألمان ويحظى بتأييدهم لحملاته الايطالية المتواصلة والتى لم تكن حاسمة · وفى النهاية ، كان فريدريك الثانى مضطرا الى فرض الضرائب على جزيرة صقلية الى حد أن أوصلها الى حافة الفقر · كل ذلك لمواصلة حروبه التى لا نهاية لها · وفى سنة ١٢٤٥ م ترأس البابا مجمعا عالميـا للكنيسة فى ليـون Lyons حيث تمت ادانة فريدريك الثانى وحـرمانه كنسيا · وتم عزل الامبراطور وانتخاب منافس له بديلا منه ، وتمت الدعوة الى حملة صليبية ليخلص الامبراطورية من طاغيتها الخارج على التعـاليم الدينية · وفى ذلك الحين تفجرت الثورات فى كل أنحـاء الامبراطورية وانفلتت الأراضى والأطيان الملكية فى ألمانيا من قبضته شيئا فشيئا ، واجتاحت حركات التمرد ممتلكاته الايطالية · وفى مواجهة هذه الخلفية التاريخية الكئيبة مات فريدريك الثانى سنة ١٢٥٠ م ·

فشل الامبراطورية فى العصور الوسطى :

والحقيقة أن آمال الامبراطورية فى العصور الوسطى ماتت مع فريدريك الثانى · وخلفه ابنه فى ألمانيا بيد انه مات بعد فترة قصيرة وغير موفقة · ولمدة التسعة عشرة سنة التالية ، ظلت ألمانيا تعانى من فترة خلو العـرش وأصابتها بالشلل التام (١٢٥٤ ـ ١٢٧٣ م) ، حتى أنه لم يعتل العرش فى تلك الفترة امبراطور معترف به · وفى سنة ١٢٧٣ م ظهرت امبراطورية رومانية مقدسة باركتها الكنيسة ، وكانت ضعيفة الى حد كبير تحت رياسة رودلف هابسـبورج Rudolph of Hapsburg ، وهو أول امبراطور لأسرة قدر لها أن تلعب دورا خطيرا فى تاريخ أوربا الحديث · وحاول رودلف أن يعيد بناء الممتلكات ، والأراضى الزراعية الملكية المبعثرة ، وأن يرسى دعائم أسس الحكم الامبراطورى ، بيد أن ذلك جاء بعد فوات الأوان · وكان هدف الحكومة الملكية الوحيد العمل على تقوية وزيادة رقعة أراضى التاج ، وتحويلها تدريجيا الى قلب دولة حديثة · تلك كانت السياسة التى مكنت الحكومة الملكية فى العصور الوسطى من مركز الهيمنة فى فرنسا ،

وأنها كانت نفس سياسة فريدريك بارباروسا التى اتبعها بنجاح فى ألمانيا ٠ غير أنها كانت سياسة أثارت المعرضة المتواصلة لكبر الاقطاعيين ، الذين لم يكونوا راغبين فى أن يروا حقوقهم ـ وأراضيهم التابعة لهم تتناقص على حساب التوسع الملكى ٠ بل على العكس من ذلك ، فانهم كانوا تواقين الى زيادة رقعة الأراضى التابعة لهم على حساب أراضى التاج ٠

وان الحرب الأهلية أبان فترة بابوية انوسنت الثالث ، وتورط فريدريك الثانى فى ايطاليا ، وفترة خلو العرش (١٢٥٤ ـ ١٢٧٣ م) ، أعطت الأمراء الاقطاعيين فرصتهم ، ولذلك ففى سنة ١٢٧٣ م ، كانت أراضى التاج قد تناقصت واعتراها الفساد على نحو يبعث على اليأس ٠ وكانت ألمانيا فى ذلك الحين تندفع بشكل لا رجعة فيه نحو قيام اتحاد كونفدرالى غير مترابط بين الامارات مع وجود الحكومة الانتخابية الضعيفة التى ميزت نظامها الدستورى منذ القرن الرابع عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر ٠ كما أن الفشل الذريع لامبراطور العصور الوسطى ظل مخيما على ألمانيا لمدة ستمائة عام من التفكك المرير ـ وهو ميراث شديد المرارة على النفس الذى ربما قد ساهم فى حدوث كارثتها فى القرن العشرين ٠

وكذلك ايطاليا خرجت من صراعات العصور الوسطى مقسمة تماما ٠ فابان فترة خلو العرش من وجود ملك Interregnum ، نجحت البابوية فى فصل مملكة صقلية عن الامبراطورية بشكل دائم ٠ وفى السنوات التالية صارت صقلية أرضا للصراع بين دعاوى الأسرتين الحاكمتين فى كل من أسبانيا وفرنسا ٠ ففى الوقت الذى كان فيه الاقليم الايطالى فى حالة ازدهار وتنور كانت صقلية متخلفة ، وتعانى من الفقر المدقع والتفكك ٠ وفى ذلك الحين كان شمال ايطاليا فى حالة من الفوضى السياسية ، من جراء وجود نظام المدينة الدولة المستقلة استقلالا كاملا ، والتى حاربت بعضها البعض ـ فلورنس Florance سـاينا Siena والبندقية Venice ، وميلان Milan ، ومدن كثيرة أخرى ـ ومن منافساتهم تكونت الستارة الخلفية لمسرح النهضة الايطالية ٠

البابوية بعد انوسنت الثالث :

اذا ما أراد المرء أن يكون رأيا عن انحلال الامبراطورية الرومانية

المقدسة فى القرن الثالث عشر فسوف يستنتج أن البابوية قد أحرزت نصرا ساحقا • بيد أنه كان نصرا أجوفا لأن قوة البابوية بصفة أساسية فى العصور الوسطى اعتمدت على مكانتها كقوة روحية • وعندما تورط بابوات مثل أنوسنت الثالث على نحو متزايد فى سياسة القوة صار دورها الروحى غير واضح بشكل مطرد • وفى القرن الثالث عشر خضعت رسالة البابوية الدينية العالية الى مصالحها السياسية المحلية باستمرار • وكانت البابوية تكسب معاركها ولكن رويدا رويدا ، وتقريبا على نحو ضئيل الى حد بعيد ، فى الوقت الذى كانت تفقد فيه سيطرتها على قلب أوربا • فقرارات الحرمان الصادرة عن البابوية — والتى غالبا ماكانت لأسباب سياسية — لم تعد سلاحا مرهبا كما كان من قبل • فالدعوة الى حرب صليبية ضد فريدريك الثانى كانت لاشك وسيلة فعالة لمضايقة ذلك الامبراطور المثير للمتاعب ، بيد أن المثل الأعلى لحملة صليبية انحط قدره • اذ أتى الوقت الذى دعا فيه البابا الى حرب صليبية دون استجابة •

وعندما أصبحت البابوية قوة سياسية كبرى ، ومؤسسة ضخمة وجدت نفسها فى حاجة متزايدة لمصادر الدخل •وبحلول نهاية القرن الثالث عشر اكتسبت سمعة بغيضة بسبب جشعها الذى لا حد له • وتذمر أحد المعلقين المعاصرين بالشكوى ، معلنا أن الراعى الأعلى للعالم المسيحى الذى من المفروض عليه هداية رعية المسيح ، قام بجز صوفها • ومن سخرية القدر أن النتاج المالى والسياسى للبابوية فى العصور الوسطى المتأخرة ظهر كنتيجة مباشرة لحلمها القديم الخاص بأن تكون المحرك الروحى لعالم مسيحى قد جرى اصلاح أحواله • وفى القرن الحادى عشر بلغت البابوية أعلى مراتب الشهرة بين فيض غامر من حالة الورع — الجديدة الشاملة التى اجتاحت الشعب • أما فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر فانها كانت بطيئة التفاعل والاستجابة ، بشكل متزايد تجاه الطموحات الروحية المتأصلة فى نفوس المسيحيين الأوربيين نظرا لأنها أصبحت مشغولة فى خضم المشاكل المعقدة للقوى السياسية بشكل مطرد •

وعملت البابوية على اذلال الامبراطورية ، بيد أنها تعرضت للمهانة فى نهاية الأمر على يد القوى المتزايدة للحكومات الجديدة المتمركزة فى شمال أوربا • وبنهاية القرن الثالث عشر كان ثمة مفهوما جديدا عن السلطة العليا

الملكية وبشكل سائد ٠ ووجد ملوك انجلترا وفرنسا بشكل متزايد أنه من الصعب السماح بوجود حـــالات تشبه الاستقلال وتتمتع بمزايا كبيرة ، وتسيطر عالميا على الكنيسة داخل حدود دولهم ٠ وعند محاولة وضع تلك الدول الكنيسة تحت سلطة الملكية تعـرض الملكيين للمعـــارضة البـابوية القـــوية ٠ واذا كانت مسألة وقوف البـــابوية ضد السيطرة الملكية على الكنيسة مسألة قديمة الا أن الخـلاف القـديم اتخذ شكلا جديدا ٠ كما أن ملوك أواخر القرن الثالث عشر الذين بدأت قوتهم فى الازدياد ، وجدوا أنفسهم فى حاجة الى المال بشكل مطرد ٠ وكان هذا صحيحا بعد سنة ١٢٩٤م بصفة خاصة عندما أصبحت انجلترا وفرنسا حبيستين لسلسلة من الحروب الباهظة النفقات ٠ وتبنى الملكان سياسة جديدة خاصة بفرض الضرائب على رجال الدين فى مملكتيهما ، غير أن البابا بونيفس السابع Boneface VII (١٢٩٤ ـ ١٣٠٣ م) ، رد بعنف على ذلك الاجراء باصداره أمرا بابويا يمنع صراحة دفع تلك الضرائب ٠ وهكذا وصلت العـــلاقات بين الدولة والكنيسة الى طريق مسدود للمرة الثانية ٠

وكان بونيفس الثامن دارســا للقانون ـ مقتدرا وان لم يكن عبقريا وشديد الاحترام لذاته وعنيدا ، ورأى وجوب السلطة البابوية المطلقة بدرجة فاقت أفكار انوسينت الثالث بيد انه كان على عدم دراية تامة بالمفاهيم الضمنية للحكومات الملكية الراغبة فى قيام نظام مركزى خاص بكل منهـا بأوربا فى أواخر القرن الثالث عشر ٠ ومما يؤخذ عليه بشدة ، عدم مقدرته على تطويع مفاهيمه الشديدة البعد عن الواقع عن السلطة البـــابوية الى الحقائق الواقعية للسياسة المعاصرة ٠

ووجد البـــابا بونيفس فى فيلب الوسيم Philip the Fair ملك فرنسا (١٢٨٥ ـ ١٣١٤ م) خصما قويا ، ومتحجر القلب ٠ وتجاهل فيلب الأمر البابوى الخاص بعدم فرض ضرائب على رجال الدين ، وأمر موظفيه بنشر الشائعات المفتراه والمخزية فى مملكته ٠ فأصبح بونيفس الثامن مجبرا على الاستسلام على الفور ، وفرض فيلب الضرائب على رجال الدين دون معارضة ٠ غير أن البابا استرد ثقته عند وجود سيل عرم من الحجاج فى روما ابان فترة الغفران Jubilee (فترة محددة كل ٢٥ سنة يمنح فيها البابا الغفران لكل الكاثوليك الذين يؤدون أعمالا دينية معينة) ، سنة

١٣٠٠ م · وسحب البابا تنازله لفيلب الوسيم فيما يتعلق بالضرائب الدينية ، وفى سنة ١٣٠٢ م ، أصدر أمره البـــابوى الشهير Unam Sanctam الذى أكد فيه على مبدأ الحكومة البابوية فى عبارات متصلبة : ··· اننا نصرح ، ونعلن ، ونقرر ، ونوضح لكل انسان ، أن خضوعه لكبير الكهنة رومانى أمر ضرورى بكل مافى كلمة من معنى من أجل خلاصه » · وفى ذلك الحين دعا فيلب الوسيم الى اجتماع على مستوى المملكة واتهم البـــابا بونيفس بكل جريمة لا يمكن تصورها : بدءا من جريمة القتل العمد ، الى جريمة استخدام السحر لأغراض شريرة · وذهبت حملة عسكرية فرنسية صغيرة الى ايطاليا سنة ١٣٠٣ م · واعتقلت البـــابا بونيفس فى قصره فى اناجنـــى Anagni بهدف ارساله الى فرنسا لتقديمه الى المحاكمة · كانت اناجنى المرحلة الثانية لما حدث فى كانوسا Canossa ، ورمزت الى اذلال البابوية فى العصور الوسطى · وفشلت الخطة الفرنسية ــ اذ قام سكان المدن باطلاق سراح بونيفس بعد أيام قلائل بعد القاء القبض عليه ــ غير أن البابا المسن والشديد الاحترام لنفسه مات بعد ذلك بوقت قصير ، بعد أن استشاط غضبا وعانى من الغم الشديد لتجرؤ الجنود الفرنسيين على القاء القبض عليه · وفى ذلك الحين انتهى عصر عظمة البابوية فى العصور الوسطى · وفى سنة ١٣٠٥ م ، انتخب الكاردينـــالات Cardinals (مجلس البابا الذى يرتدى أرواب حمراء وقبعات)، رجلا فرنسيا ، وهو كليمنت الخـــامس Clemen V (١٣٠٥ ــ ١٣١٤ م) الذى انتهج سياسة قائمة على التبعية الذليلة جدا للعرش الفرنسى · واستسلم كليمنت الخـــامس بخصوص مسألة الضرائب الدينية ، وأعلن رفضه لأمر البـــابا Unam Sanctam واتخذ خطوة كانت بمثابة كارثة ، وهى الخاصة بهجر روما ، واتخاذ عاصمةجديدة للبابوية فى مدينة أفينون Avignon على نهر الرون Rhone .

وفى فرنسا بقى البابوات الجزء الأكبر من القرن الرابع عشر تحت سيطرة الملك الفرنسى ، وتعرض استقلالهم للخطار بشكل شديد ، وصارت مكانتهم الروحية تحت رحمة الظروف ·

انه من اليسير أن ننتقد تشدد وعناد بونيفس الثـــامن ، أو ضعف كليمنت الخامس ، بيد ان تدهور أحوال البابوية بشكل خطير فى نهـــاية العصور الوسطى العالية لم ينتج عن مواطن الضعف فىشخصيتهما فى المقام

الأول ٠ فعلى العكس من ذلك ، نجم هذا التدهور عن الفجوة التى ازدادت اتساعا بين الحكومة البابوية ، وحالة الجدب الروحى الذى عانت منه جماهير المسيحيين العاديين ، ويضاف اليهما شعور العداء تجاه الكاثوليكية الدولية من جانب الدول المحلية التى كانت تزداد قوة باطراد ٠ وليس من الانصاف فى شىء ، أن نصف البابوية فى العصور الوسطى العالية بأنه « قد اعتراها الفساد » ٠ ففيما بين ١٠٥٠ و ١٣٠٠ م اعتلى العرش البابوى رجال من أصحاب النوايا الحسنة ، والغايات النبيلة ٠ ولم يقنع البابوات بمجرد القاء اللوم على المجتمع فى عهدهم عن طريق محاولة اخضاعه لسلطان القيم الأخلاقية الحميدة دون الخوض فيما يجرى داخل نطاق ذلك المجتمع ، وانما أقحموا أنفسهم جميعا فى شئون العالم ، وجاهدوا بكل قوة من أجل تغييره ، وتطهيره ٠ ومن المفجع ، أنهم ، ربما على نحو لم يتمكنوا من اجتنابه ، تعرضوا لتلطيخ أيديهم ٠

الجدول الكرونولوجى للصراع البابوى ـ الامبراطورى

١٠٣٩ ـ ١٠٥٦ عهد هنرى الثالث ٠

١٠٤٦ هنرى الثالث يقوم بعزل ثلاثة من البابوات الذى ينافس كل منهما الآخر ٠

١٠٥٦ ـ ١١٠٦ عهد هنرى الرابع ٠

١٠٥٩ مرسوم الانتخاب البابوى ٠

١٠٧٣ ـ ١٠٨٥ مدة جلوس البابا جريجورى السابع على العرش البابوى ٠

١٠٧٥ البابا جريجورى السابع يحرم كنسيا قيام العلمانيين بتعيين رجال الكنيسة ٠

١٠٧٦ البابا جريجورى السابع يحرم كنسيا ويعزل هنرى الرابع ٠

١٠٧٧ هنرى الرابع يعرض نفسه للمهانة والمذلة فى كانوسا

١٠٨٠ الحرمان الكنسى الثانى لهنرى الرابع ٠

١٠٨٨ ـ ١٠٩٩ مدة جلوس البابا أورمان الثانى على العرش البابوى ٠

١١٠٦ ـ ١١٢٥ عهد هنرى الخامس ·

١١٢٢ اتفــاق ورمز ·

١١٥٢ ـ ١١٩٠ عهد فريدريك باربا روسا (صاحب اللحية الحمراء)·

١١٧٦ اللومبارديون يهزمون فريدريك فى اليجنانو ·

١١٨٠ فريدريك يهزم دوق ساكسونى ·

١١٩٠ ـ ١١٩٧ عهد هنرى السادس ·

١١٩٤ هنرى السادس يصبح ملكا على صقلية ·

١١٩٨ ـ ١٢١٦ مدة جلوس البــابا أنوسنت الثـالث على العرش البــابوى ·

١٢١١ ـ ١٢٥٠ عهد فريدريك الثانى ·

١٢٤٥ مجلس ليـــون ·

١٢٥٤ ـ ١٢٧٣ فترة خلو العرش فى المانيا ·

١٢٧٣ ـ ١٢٩١ عهد رودلف من هابسبورج ·

١٢٩٤ ـ ١٣٠٣ مدة جلوس البــابا بونيفس الثامن على العـرش البــابوى ·

١٢٨٥ ـ ١٣١٤ عهد فيليب الوسيم فى فرنسا ·

١٣٠٢ بونيفس يصدر الأمر المقدس ·

١٣٠٣ تعرض بونيفس الثامن للاهانة والمذلة فى آناجنى ·

١٣٠٥ ـ ١٣١٤ مدة جلوس كليمنت الخامس على العرش البــابوى وانتقال البابوية الى أفينون ·

١٣ ـ انجلترا وفرنسا :

الحكومة الملكية الأنجلو ـ نورمانية :

فى الوقت الذى كانت فيه الامبراطورية والبابوية مشغولتين فى صراعاتهما ، كانت فرنسا وانجلترا تتطوران الى دول ذات حكومة مركزية ٠ وقامت حكومة ملكية قوية فى انجلترا فى وقت مبكر عما حدث فى فرنسا ، بل ان انجلترا كانت أكثر نجاحا فى فرض الحدود الدستورية للتاج الملكى ٠ ان الحكومة الملكية الاستبدادية الفرنسية والحكومة الملكية النيابية فى انجلترا امتدت جذورهما فى العصور الوسطى العالية ٠

انتهى العصر الانجلو سكسون من التاريخ الانجليزى عندما ظفر وليم دوق نورماندى بالتاج الانجليزى بانتصاره فى هيستنجز Hastings سنة ١٠٦٦ م ٠ وفى القرون التى تلت ، كانت انجلترا أكثر ارتباطا بالقارة الأوربية عن ذى قبل ، وكان حكامها ملوكا لانجلترا وأتباعا اقطاعيين كبار لملوك فرنسا فى وقت واحد ٠ واستمر ارتباط انجلترا بفرنسا من سنة ١٠٦٦م حتى منتصف القرن السادس عشر ٠ وكان هذا الارتباط سببا فى الاثراء الثقافى لانجلترا ، بيد أنه أدى الى قيام عداوات بين الحكومتين الملكيتين لعدة قرون أيضا ٠

أحدث وليم الفاتح William the Conqueror عددا من التغيرات الأساسية فى مملكته الجديدة ٠ اذ قام بتقسيم الكثير من الأراضى التى فتحها بين المحاربين القادة لجيشه المنتصر ، وبتلك الوسيلة أدخل الى انجلترا طبقة أرستقراطية جديدة من الفرسان تتحدث اللغة الفرنسية ٠ وأقام نظاما اقطاعيا فى انجلترا على النمط النورمانى تقريبا ، وذلك بتحويله معظم أراضى انجلترا الزراعية التابعة للعلمانيين والكنسيين ، الى اقطاعات صغيرة تم توزيعها على أفصال اقطاعيين تابعين للتاج فى مقابل تقديم عدد محدد من الفرسان المزودين بالخيول والمعدات القتالية وتقديم الالتزامات الاقطاعية الأخرى المتعددة ٠ ولكى يتمكن الاقطاعيون التابعون للتاج أو المستأجرون الكبار من حشد العديد من الفرسان وفقا لطلب الحكومة الملكية ، فانهم قاموا باعادة تقسيم أجزاء من اقطاعاتهم الى اقطاعات أصغر مساحة ، وأقطعوها الى أتباع اقطاعيين متفرعين وتابعين لهم لامدادهم بالفرسان ٠

وبمعنى آخر سارت عملية الاقطاع من الباطن على نفس الأسلوب الذى حدث منذ قرون سبقت فى القارة الأوربية الى حد كبير • وكنتيجة طبيعية لقيام الاقطاع فى انجلترا ، أن تم تشييد القلاع فى كل أنحاء البلاد على وجه السرعة •

غير أن الاقطاع فى انجلترا لم يصاحبه انحلال سياسى كما حدث فى بلاد الفرنجة الكارولنجيين • اذ كان ملوك انجلترا النورمان حريصين على الاحتفاظ بمساحات شاسعة فى الأراضى تابعة مباشرة للأراضى الخاصة بالتاج الملكى ليجعلوا أتباعهم الاقطاعيين تحت قبضتهم الشديدة • والواقع أن السلطة الملكية المركزية فى عصر وليم الفاتح وخلفائه الذين تميزوا بالنشاط ـ والتى تقدمت كثيرا عما كان عليه الحال فى عهد الملوك الأنجلو سكسون ـ نمت بمعدل سريع ، ومثير للانتباه • لقد ذهب وليم الى انجلترا ليس كمجرد أحد الغزاه ، وانما كصاحب حق شرعى فى العرش ، اذ أنه ينتمى بصلة القرابة (عن بعد) الى الأسرة الملكية الأنجلو سكسونية وأنه تم تعيينه ـ كما كان يدعى ـ على يد الملك ادوارد المعترف ، الذى كان قد مات دون عقب فى أوائل سنة ١٠٦٦ م •

وسار وليم على نهج ادوارد المعترف كخليفة شرعى له ووعد بالمحافظة على القوانين والتقاليد التى كانت سائدة على أيام ادوارد المعترف• والواقع أنه كان من الطبيعى أن يفعل ذلك لأن كثيرا من تلك التقاليد كانت مفيدة جدا للحكومة الملكية فعلى سبيل المثال تطورت ضريبة التاج الدانمركى danegeld الى ضريبة الأرض الملكية ، وهى ضريبة فريدة ومريحة جدا • ودفعه صدق ولائه لكونه أنجلو سكسونيا الى الحرص على الابقاء على ضريبة التاج الدانمركى بالرغم من أنه لم يتردد فى أن يفرض التزامات مالية عديدة زيادة عليها ومفروضة على المستأجرين الكبار لأراضى الدولة • وكان الولاء الكلى للتاج تقليدا أنجلو سكسونيا يحظى باهتمام وتقدير الملوك النورمان بدرجة تفوق اهتمامهم بضريبة التاج الدانمركى • ومكنهم هذا الولاء الكلى من أن يطلبوا من كل تابع اقطاعى وكذلك أتباع هؤلاء الاقطاعيين الذين لديهم اقطاعات صغيرة أن يقسموا يمين الولاء للتاج فى النظام الاقطاعى الانجليزى • وكان ولاء الفارس لسيده الاقطاعى يلى ولاءه المباشر للتاج فى ذلك الحين • كما كانت الحروب محظورة بين الأتباع الاقطاعيين ،

ولم يكن فى المستطاع بناء قلاع خاصة دون الحصول على ترخيص ملكى . وباختصار اعترى عملية منح الاقطاعات الجديدة اعادة تنظيمها وفقا للتقاليد القوية الخاصة بسيادة السلطة الملكية للأنجلو سكسون تجاه مزيد من المركزية الى حد ما - وقليل من الطرد المركزى - عما كان عليه أحوال الاقطاع فى القارة الأوربية .

وعند موت وليم الفاتح انتقلت مملكته الى ولديه وليم الثانى (١٠٨٧ - ١١٠٠ م) وهنرى الأول (١١٠٠ - ١١٣٥ م) . وكلاهما كان قويا وقاسيا ، وان كان هنرى الأول أكثر مقدرة عن أخيه وليم الثانى . اذ كان هنرى الأول قائدا ماهرا ، ورجلا قانونيا رائعا ، واداريا مبدعا ، واستطاع أن يقضى تماما على حركات التمرد فى انجلترا ، وأن يستغل حالة الرخاء الاقتصادى المتزايدة ، وذلك بانتهاجه سياسة ضريبية مرهقة . ولم يكن رجلا كريما ، ولكن عهده اتسم بالحزم ، والمقدرة العسكرية وهما من المستلزمات الأساسية للحكم الناجح . واتسم أيضا باعتبار الكرم الزايد انما هو ضعف بالغ الخطورة . على أن أعظم خدمة قدمها لرعاياه الانجليز كانت فى فرضه الأمن العام بالقوة وبلا رحمة .

وشهد عهد وليم الفاتح وولديه تطورا مثيرا للانتباه فى المؤسسات الادارية الملكية . فالعملية الفريدة لمسح حيازات الأراضى والمعروفة باسم domesday Book - وهى نتاج اجراء احصاء رسمى وشامل لسكان المملكة تمت بناء على أمر ملكى سنة ١٠٨٦ م - تعلن بمنتهى الوضوح النشاط الادارى لوليم الفاتح . وفيما بين سنة ١٠٦٦ م و ١١٣٥ م أصبح النظام الادارى الملكى أكثر استقرارا ودقة وفعالية . وفى عهد هنرى الأول طاف رجال القضاء التابعين للملك فى كل أنحاء انجلترا ، واستمعوا الى الدعاوى فى المقاطعات المتعددة ، وبتلك الوسيلة وسعوا من نطاق السلطان القضائى للملك فى كل مكان عبر البلاد . واستمرت المحاكم البارونية ، والمحاكم الشعبية القديمة فى المقاطعات ، والمناطق المحلية تؤدى وظائفها . بيد أن اتساع نطاق السلطان القضائى الملكى فى عهد هنرى الأول كان الخطوة الأولى فى عملية مهمة الى حد بعيد وطويلة ، وعن طريقها تفوق القاضى الملكى على القاضى الشعبى والقاضى البارونى ، ثم حل القاضى الملكى محلهم جميعا فى نهاية الأمر .

ان الكفاية الادارية ونظام الحكم المركزى الملكى من أهم الدعامات التى ارتكزت عليها الخطة السياسية للحكم فى عهد هنرى الأول · وقام النبلاء المحليون - الأشراف The Sheriffs - الذين فى خدمة الملك بجمع الرسوم الملكية بطريقة منظمة ، وينقل الأموال الى قسم ادارى خاص بالمحاسبة تميز بالروعة بشكل ملحوظ وعرف باسم خزانة الدولة The Exchequer وبدأ جهاز ادارى ملكى فى الظهور الى الوجود رويدا رويدا · وكانت رغبة الملك فى زيادة الدخل الحكومى بدرجة اكبر هى المحرك لتزايد فعالية خزانة الدولة ، وكذلك اتساع نطاق العدالة الملكية · ذلك لأنه كلما زادت أعداد القضايا التى تعرض على القضاة الملكيين ، كلما زادت الغرامات التى تذهب الى الخزائن الملكية ، وكلما تم مراقبة الاشراف عن قرب ، كلما قل احتمال ذهاب الضرائب الملكية الى أيديهم · ولقد اكتشف النورمان أن الحكومة القوية هى عمل مالى مضمون الربح ·

هنرى الثانى (١١٥٤ - ١١٨٩ م) :

أعقب موت هنرى الأول سنة ١١٣٥ م وجـــود فترة من الاضطراب والصراع الملكى على خلافة العرش · فلم يكن على قيد الحياة بعد وفاته سوى ابنته ماتيلدا Matilda التى تزوجت من جوفرى بلانتاجينيت كونت أنجـــــو Geoffrey Plantagenet count of Anjou وكان هنرى الأول قد رتب لهذا الزواج على أمل التخفيف فى حدة المنافسة المريرة بين القوتين العظميين فى شمال فرنسا : قوة نورماندى Normandy وقـوة أنجـــو Anjou · وباختصار أنجبت ماتيلدا ابنه هنرى الأول حفيدا له قبل وفاته ، وهو هنرى بلانتاجينيت Henry Plantagenet الذى قدر له فى النهاية أن يرث أراضى شـــاسعة تضم أنجو ونورماندى وانجلترا · غير أنه عند موت الملك المسن ، كان حفيده لايزال طفلا ، لذلك استولى ابن شقيقة هنرى الأول ، ستيفن من بلــــو Stephen of Blois (ملك انجلترا ١١٣٥ - ١١٥٤ م) ، على السلطة الملكية الانجليزية · ولمدة عقدين من الاضطرابات والفتن حاول كل من ستيفن وماتيلدا السيطرة على انجلترا فى الوقت الذى عمل فيه البارونات الانجليز على تأليب جانب ضد الآخر ، وذلك تحقيقا لمصالحهم الشخصية ، كما شيدوا القلاع دون الحصول على تصريح ملكى بذلك بل واغتصبوا الحقوق الملكية · أما رجال الكنيسة

وعامة الشعب الذين عانوا كثيرا من ويلات جالية الحرب الدائمة ، فقد استرجعوا ذكريات أيام الهدوء ، وحـــالة السلم ، فى عهد هنرى الأول باشتياق شديد ٠

وابان عهد ستيفن الملىء بالاضطرابات ، نما هنري بلانتاجينيت وصار رجلا مملوءا حيوية ، واستطاع أن يسيطر على أنجو ونورماندى ٠ وســاعد زواجـــه من اليــــــانور من أكـــويتين Eleanor of A quitaine وريثة تلك الدوقية الجنوبية المتغايرة العناصر السكانية والكبرى ـ ساعد على زيادة مساحات الأراضى التى تحت سلطانه بشكل أكثر ٠ وعند موت الملك ستيفن سنة ١١٥٤ م حصل هنرى على العرش الانجليزى بســـلام ٠ وأصبح له سيطرة على مجموعة رائعــــة من الأراضى شـمال وجنوب القناة الانجليزية وهى التى أطلق عليها الامبراطورية الأنجووية The Angevin Empire ولم تكن تلك الامبراطورية مملكة مندمجة ، وانما على العكس كانت خليطا من الدول المستقلة اتحدت معا فى تبعيتها تحت حـــكم رجل واحد ٠ وعلى الخريطة بدت الأراضى التى تحت سيطرة ملك فرنسا صغيرة ومتواضعة بالنسبة الى الامبراطورية الأنجووية ٠ غير أن هنرى الثانى وكذلك أولاده الذين خلفوه وجدوا صعوبة فى حفظ النظام فى كل أنحـــاء أراضيهم الشاسعة والمختلفة ٠ ولاشك أن الامبراطورية الأنجووية كانت مصدرا للقوة والمكانة العالية ، للملكية الانجليزية ، بيد أنها كانت أيضـا عبئا ثقيلا ٠

كان هنرى الثانى نشيطا ، ذكيا ـ قصيرا ، قوى البنية ، وأحمر الشعر٠ واذا كان قد سمى تيمنا باسم جده ، الا أنه حكم وفقا لتقاليد هنرى الأول التى غلب عليها طابع الاستبداد ، وعمل على تقليد هنرى الأول عن عمد ٠ وفى كثير من النواحى كان هنرى الأول صنيعة عصره ـ ونتاجا للصحوة الفكرية الكبرى ، والثقافية لأوربا فى القرن الثانى عشر ٠ اذ كان ملكا مثقفا عاشر العلماء ، وشجع المدن المتزايدة فى النمو ، ورأس عصر الازدهــار الاقتصادى ٠ ولقد عم بلاطه الملكى جلبة شديدة من النشاط المشوب بالقلق، الذى انتقل من مكان الى مكان ، وفى رأى أحد المشاهدين المعاصرين ، « كان صورة كاملة لمكان كله حيوية وحركة » ٠

كانت أهداف هنرى الثانى المحافظة على الامبراطورية الأنجووية ، وتقوية السلطة الملكية ، وزيادة موارد الدولة · وابان عهده الذى استمر خمس وثلاثون سنة نمت الادارة الملكية باطراد وباحكام وفعالية · وتم ازالة القلاع البارونية التى بنيت دون تصريح فى عهد ستيفن ، وتم استرداد الامتيازات الملكية والتوسع فيها · وانهارت العلاقة الاقطاعية القديمة القائمة على تقديم الخدمة مقابل الأرض، تحت ضغط الطموح الملكى ، والاقتصاد المالى النامى ، والقائم على الخدمة مقابل الأجر · ونمت الموارد المالية ، وصار الأشراف تحت السيطرة الملكية الصارمة ، وتطورت الأقسام الادارية المستقلة ، وأصبحت السجلات الشعبية أكثر كمالا وشمولا · وابتهج كثير من الانجليز لعودة السلام والنظام ، بينما كان الآخرون خائفين من التقدم المستمر ، « للحكومة الحاسمة » ·

وأطلق على هنرى الثانى مبتكر القانون الانجليزى غير المكتوب (المبنى على العرف والعادات) · وكما فعل أسلافه ، حبذ هنرى الثانى اتساع نطاق السلطان القضائى الملكى وذلك من أجل العائد المالى الناتج عنها لصالح التاج بصفة أساسية ، وفى بحثه عن موارد مالية شرعية أكثر ، فانه كان قادرا على زيادة سلطات المحاكم الملكية أكثر بكثير عد حدودها السابقة · واشترط قانونه المعروف باسم قانون كلاريندون Assize of Clarendon والصادر سنة ١١٦٦ م على ضرورة اجتماع المحلفين المستجدين inquest Juries المحليين تحت رعاية السلطة الملكية ، لتحديد المجرمين المحليين ، والابلاغ عن المجرمين المجاورين الأشد خطورة · وكان المحلف الذى مارس الاستجواب موجودا من قبل · بيد أنه لم يكن على الاطلاق على مثال هذا النمط المنظم · وعمل ايضا على مد نطاق السلطة القضائية الملكية على الحقول الزراعية الواسعة والتى سادتها المنازعات ، مستخدما المحلفين المحليين للفصل فى قضايا الملاك الشرعيين للأراضى الزراعية المتنازع عليها · وتدخل الملوك السابقون فى المنازعات التى تقع بالأقاليم دون وجود طريقة متماسكة ومنظمة · أما فى عهد هنرى الثانى قام القضاة الملكيون المتجولون بجولات دورية فى المناطق الريفية ، يحملون معهم قانون الملك الى الأعداد الضخمة من الانجليز الذين لم يصل اليهم من قبل · وتعلم رعايا هنرى الثانى الاتجاه الى المحكمة لوجود القاضى العقلانى، العصرى ، السريع فى انجاز مهمته · لذلك كانت فرصة المنافسة أمام القانون

الاقطاعى باجراءاته الطويلة والقديمة قليلة · وعلى ذلك انهار ذلك الخليط من القوانين المحلية والعادات ، الذى جزأ انجلترا لفترة طويلة من الوقت أمام القانون الملكى المنتظم ـ وهو قانون غير مكتوب خضع له كل الشعب الانجليزى · ومن ثم اكتمل الاتحاد السياسى فى القرن العاشر بفضل الاتحاد القانونى فى عصر الملوك الأنجوويين ·

وكان من المتوقع أن يحاول هنرى الثانى مد نطاق العدالة الملكية على حساب المحاكم الكنسية أيضا · وفيما يتعلق بهذا الموضـــوع عارضـــه توماس بيكت Thomas Beckel رئيس أساقفة كانتبرى Canterbury العنيد · لذلك انشغل كل من الملك ورئيس الأساقفة فى نزاع عنيف تركز حول مسألة ما اذ كان يتحتم على رجال الكنيسة المهتمين بارتكاب جرائم الخضوع للسلطان القضائى الملكى أم يقدمون الى محاكم الكنيسة فحسب · ووصلت المسألة الى أقصى درجات العنف سنة ١١٧٠ ، عندما قام أربعة من المؤيدين لهنرى الثانى من الفرسان المفعمين بالتحمس ، باغتيال بيكت فى كاتدرائية كانتربرى دون الحصول على أمر ملكى · وتركت هذه الجريمة المثيرة أثرا عميقا على العصر · وصار بيكيت شهيدا ، ويقال ان معجزات حدثت على قبره ، ولذلك تم ضمه الى قائمة القديسين على وجه السرعة · على أن هذه الحادثة أثرت بشدة على مشاعر هنرى الثانى ، لذلك وجد نفسه مضطرا الى معاقبة نفسه تكفيرا عن خطيئته ، وذلك بالسير حافى القدمين عبر شوارع كانتربرى ، والسماح لرهبان كانتربرى بجلده بالسياط· بيد أن حملته ضد المحاكم الكنسية توقفت من حين لآخر ، وفى نهاية عهده مارست العدالة الملكية انتهاكات خطيرة لسلطة المحاكم الكنسية · ونجح التاج فى وضع الكنيسة الانجليزية تحت قبضته باحكام شديد · وكان هنرى الثانى موفقا بشـــكل ملحوظ فى توجيه انجلترا تجـــاه المركزية الادارية والقانونية ·

ريتشارد وحنا :

خلف هنرى الثانى ابنه الأكبر ريتشار قلب الأسد Richard lion Hearted (١١٨٩ ـ ١١٩٩ م) ، الذى كان محاربا ماهرا ، وشرسا ، وكرس حياته بصفة أســاسية لمشروعين كبيرين : الدفاع عن الامبراطورية الأنجووية ضد التاج الفرنسى والمشاركة فى حملة صليبية ضد المسلمين ·

وكان قائدا ممتازا ، بيد أنه كان رجل ادارة من الدرجة الثانية ، اذ قضى أقل من ستة شهور من مدة حكمه التى امتدت عشر سنوات فى انجلترا . وابان فترة غيابه التى طال مداها ، ثبت صلاحية النظام الادارى الذى أقامه هنرى الثانى ، اذ بفضله سارت الأمور فى انجلترا على مايرام لمدة عشر سنوات تقريبا دون وجود الملك . وفى الوقت نفسه كان ريتشارد مشغولا فى مغامرات رومانسية ، وان كانت فاشلة ، فى الأراضى المقدسة . واستطاع أن يدافع بنجاح عن الامبراطورية الأنجووية ضد الضغوط القاسية التى مارسها ملك فرنسا فيليب أوغسطس Philip Augustus

تغيرت أحوال الامبراطورية المصيرية بوضوح شديد عند اعتلاء الملك حنا John (١١٩٩ - ١٢١٦ م) ، الشقيق الأصغر للملك ريتشارد قلب الأسد . وكان حنا شخصا غامضا - أبدى تفوقا فى بعض النواحى ، وكان ملما بالشئون الادارية ، بيد أنه كان قائدا نزاعا الى الشك والارتياب ، ومجردا من المبادىء الأخلاقية . اذ لم يكن يثق فى أحد ولم يثق به أحد . ونتيجة لذلك فلم يساند شعبه فى فترات الأزمة سوى بفتور .

ووجد حنا فى فيليب أوغسطس ملك فرنسا خصما عنيفا على طول الخط . وانتهز فيليب الفرصة بالكامل بالنسبة لمركزه كسيد اقطاعى أعلى على ممتلكات حنا بالقارة الأوربية . وفى سنة ١٢٠٢م تم استدعاء حنا الى البلاط الملكى الفرنسى للاجابة على الاتهامات التى وجهها اليه أحد أفصاله الاقطاعيين الأكويتيين Aquitainian . وعندما رفض حنا الذهاب الى فرنسا أعلن فيليب اوغسطس مصادرة اراضى حنا فى فرنسا وتقدم لغزو اقليم نورماندى . وسقطت دوقية نورماندى بين يدى فيليب بسرعة (١٢٠٣ - ١٢٠٤ م) ، وذلك لأن أتباعه الاقطاعيين ، ارتدوا عن الولاء له ، بعد أن نجحت محاولة تاثير فيليب عليهم ، الواحد بعد الآخر ، مما اضطر حنا الى الهرب الى انجلترا على نحو مخز . وابان حالة الاضطراب والفوضى الكاملة التى تلت ذلك كان فيليب أوغسطس قادرا على انتزاع أنجو ، ومعظم الممتلكات الباقية فى القارة الأوربية للامبراطورية الأنجووية من قبضة حنا . وظلت الأجزاء البعيدة فقط من اكتويتير Aquitaine على علاقاتها مع الحكومة الملكية الانجليزية . وجلب الملك حنا كارثة عسكرية وسياسية على شعبه

ولمدة العشر سنوات التالية ضمد حنا جراحه ونسج شبكة متقنة من الأحلاف ضد الملك فيليب على أمل استعادة ممتلكاته الضائعة ، بيد أن خططه البارعة ذهبت أدراج الرياح نتيجة لنصر فيليب الحاسم على حلفاء حنا من الفلمنكيين Flemish والجرمان فى موقعة بوفين Bouvines سنة ١٢١٤ م . وفى بوفين ضاع أمل حنا الأخير فى احياء الامبراطورية الأنجووية .

وقضت تلك الكوارث على ماتبقى من مكانة حنا الملكية العالية ومهدت الطريق للثورة البارونية التى صنعت عهدا جديدا فى التاريخ الانجليزى حيث بلغ ذروة هذا العهد الجديد عندما وقع الملك العهد الأعظم Magna Carta سنة ١٢١٥ م . وأصبح لدى البارونات مبررا مقنعا لمعارضة حنا . وأصبح على حنا أن يقلص الاتجاهات المركزية لأسلافه الأنجوويين والنورمان الى حدود جديدة ، وأن يفرض الضرائب على رعاياه ، وهو الشىء الذى لم يحدث من قبل . ويمكن اعتبار رد الفعل البارونى سنة ١٢١٥ م على أنه احتجاج موجه ضد حنا وكمحاولة لابطال الاتجاه نحو الفاشستية Authoritarianism الملكية للمائة وخمسين عاما السابقة . وتم تفسير العهد الأعظم تفسيرين متناقضين : كمصدر رئيسى للحكومة الملكية الدستورية الانجليزية ، وكموضوع رجعى ، ووثيقة رجعية تم وضعها لصالح الطبقة الأرستقراطية الرجعية ذات النزعة الاقليمية على حساب الحكومة الملكية الأنجووية المستنيرة .

والواقع أن العهد الأعظم كان اقطاعيا ودستوريا - اذ كان له اتجاها رجعيا وآخر تقدميا . وخصصت أهم فقراته ليظل الملك فى نطاق التقاليد الشعبية والعرف الاقطاعى . بيد أن المفهوم الضمنى فى المبدأ الاقطاعى التقليدى ان احترام السيد الاقطاعى احترام لحقوق أتباعه الاقطاعيين - فى النظرية الجرمانية القديمة كان على الملك الالتزام بعادات شعبه - كان المبدأ الدستورى المهم لحكومة قانونية . وابان النضال من اجل جعل الملك حنا سيدا اقطاعيا صالحا ، كان البارونات يتحركون سنة ١٢١٥ م ، وربما دون قصد فى اتجاه الحكومة الملكية الدستورية . لأن تلك كانت اللحظة الحاسمة التى بدأ فيها النبلاء الانجليز يمثلون وجهة نظر قومية . وفى الماضى اتخذت معارضة البارونات للسلطة الأوتوقراطية الملكية شكل الاصرار الأنانى على

وجود حكم ذاتى أرستقراطى • بيد أنه فى استطاعة المرء ملاحظة المفهوم الذى ألزم الملك بالحدود القانونية التقليدية فى علاقاته بكل طبقات الانجليز الأحرار فى العهد الأعظم • ولا يصح أن ننخدع اذا ماعلقنا أهمية كبيرة على المبادىء الأساسية ، على هذه الوثيقة العملية ، التى اهتمت فى المقام الأول باصلاح مساوىء السلطة الملكية ، بيد أنه سيكون من قبيل التضليل على حد سواء اذا تجاهلنا المعانى المتضمنة المهمة فى العهد الأعظم بشأن المجموعة القانونية الأساسية التى قلصت وحددت السلطة الملكية •

كانت المشكلة الدستورية الرئيسية خلال السنوات التى تلت العهد الأعظم هى كيفية الزام الملك العنيد على العمل وفقا للاطار القانونى • وان سلسلة من الوعود الملكية لم تكن كافية بوضوح للتحكم فى ملك طموح وضع كل الطرائق والوسائل التى تدار بها الحكومة المركزية فى قبضته • وتابعت لجنة مكونة من خمسة وعشرين بارونا لهم سلطة دعوة الشعب الانجليزى ، اذا ماحاول الملك التعدى على الميثاق Charter « من أجل احتجاز الملك ومضايقته بكل الوسائل المتاحة » • ومن ثم كان الملك مقيدا برادع فج من التمرد البارونى والشعبى - وهو سلاح يائس وغير عملى ضد ملك مجرد من المبادىء الخلقية •

ويبدو أن حنا نفسه لم يكن لديه النية فى الوفاء بوعوده • اذ تنكر للعهد الأعظم فى أول فرصة ، ومات سنة ١٢١٦ م فى غمرة ثورة شاملة • وانتهت الثورة بموت حنا ، وانتقل التاج الى ابنه الذى كان فى التاسعة من عمره ، وهو هنرى الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢ م) ، الذى كان تحت اشراف مجلس من البارونات ابان الفترة السابقة لسن الرشد • وخلال العقود التى تلت ذلك ، أيد نشر العهد الأعظم عدة مرات ، بيد أن أعظم الأعمال فى تلك الفترة الجديدة كانت اقامة مؤسسات سياسة قادرة على الحد من السلطة الملكية الأوتوقراطية بطريقة أو بأخرى ، دون حدوث حركات تمرد • وجاء الحل النهائى لهذه المشكلة فى البرلمان •

هنرى الثالث وادوارد الأول •

كان هنرى الثالث ملكا فظا وغريب الأطوار - متدينا دون أن يكرس نفسه لخدمة الله والدين ، مولعا بالكتب والمطالعة دون أن يكون حكيما •

وأحاط نفسه بالمحاسيب الأجانب ، وكان مولعا بمظاهر الأبهة والعظمة ، وبالمشروعات الأجنبية غير العملية ، وتجاهل نصيحة البارونات ، وفقد ثقتهم رويدا رويدا ٠

ومنذ البداية اعتادت الحكومة الملكية الانجليزية على سياسة اصدار القرارات المهمة وفقا لمشورة المجلس الملكى المكون من النبلاء وكبار الموظفين ٠ وكان تكوين هذا المجلس الملكى Curia regis غامضا على الدوام ، ولم يكن له أى شيء يشابه حق النقض أو الرفض veto للقرارات الملكية ، بيد أن الكثيرين من الانجليز وبخاصة النبلاء ، علقوا أهمية كبرى على حقيقة أن السياسة الملكية كانت تسير وفقا لمشورة البارونات ٠

ومن الناحية التقليدية كانت المجالس الملكية من نوعين ٠ فالمسائل الملكية العادية كانت تبحث فى مجلس صغير يتكون من الملك وكبار موظفى القصر وأى عدد من البارونات يتصادف وجوده فى القصر فى ذلك الحين ٠ غير أنه فى أوقات الأزمات ، أو عندما يعلق موضوعا للبت فيه ، يقوم الملك بدعوة كل النبلاء المهمين فى الدولة الى اجتماع موسع يضم أيضا كبار مستشاريه العاديين ٠ وأخيرا تطور هذا المجلس البارونى الموسع الى البرلمان ٠

ان العامل الأساسى فى تطور المجلس الموسع الى البرلمان كان الاتجاه نحو وجود نواب عن أهل الريف وسكان المدن جنبا الى جنب مع كبار البارونات ، وذلك فى القرن الثالث عشر ٠ ونتج هذا للتحول الملحوظ فى السياسة الملكية ، بصفة خاصة بوضوح بعد العهد الأعظم ، وذلك بدعوة المجلس الموسع بهدف الحصول على الموافقة على بعض الضرائب الجديدة والغير مألوفة ٠ ونظرا لتسرب الثروة تدريجيا الى الطبقات الأدنى من طبقة البارونات ، لذلك وجد الملك ذريعة للحصول على موافقة تلك الطبقات الأقل على الضرائب الملكية الجديدة بدعوة ممثليهم الى المجلس الموسع ٠

ظهرت معارضة البارونات النشطة لهنرى الثالث من حقيقة أن دعوته للمجلس الموسع لم تكن لاستشارة أقطاب الدولة فى الشئون السياسية ، وانما بهدف الحصول على موافقتهم على الضرائب الجديدة فى المقام الأول ٠

واستاء البارونات لمطالبة الملك لهم تمويل مشروعات أجنبية خيالية لم يسبق له أن استشارهم فيها ، فضلا عن أنهم لا يوافقون عليها لذلك اتخذوا شعارا لهم ، « لا فرض لضرائب جديدة دون استشارة » وكانت ردودهم على طلبات هنرى المالية مصحوبة بمزيد من المعارضة ، ولفترة من الوقت، صاروا قادرين على استخدام نفوذهم المالى فى اجبار الملك على قبول نصيحتهم . بيد أنه فى نهاية الأمر ثبت أن الصراع بين الملك والبارونات أصبح من المتعذر تسويته ، ومن ثم نشبت حركة تمرد خطيرة . وفى سنة ١٢٦٤ م هزم القائد البارونى سمعان من مونتفورت (Simon de Montfort) الملك هنرى الثـــالث ولمدة الخمسة عشر شهرا التالية حكم انجلترا من خلال لجنة بارونية مكونة من تسعة رجال بالاضافة الى انعقاد المجلس الموسع لكل البارونات بصفة دورية .

وفى سنة ١٢٦٥ م حشدت الحكومة الملكية قواها وقضت على حركة سمعان من مونتفورت قضـــاء تاما . غير أن مفعول الثورة ظل قائما . واجتازت انجلترا أياما مثيرة أبان وجود الحكومة البـارونية ، وأكثر من ذلك أهمية اتخاذ خطوة مهمة تجاه ظهور البرلمان فمنذ أوائل سنة ١٢٦٥ م دعا سمعان من مونتفرت مجلسا موسعا ـ برلمانا ـ ضم لأول مرة الطبقات الثلاث التى ميزت البرلمانات فى العصور الوسطى المتأخرة . وضم سمعان من مونتفورت الى برلمانه فارسين من كل مقاطعة واثنين من سكان كل مدينة بالاضافة الى البارونات . ومن المحتمل أن دافع سمعان الرئيسى فى الدعوة الى هذا البرلمان هو توسيع قاعدة ثورته ، غير أن البرلمان فى السنوات التالية تمت دعوتها لأغراض كثيرة : لتكون كمحكمة قانونية عليا ولتقديم المشورة الى الملك فى الشئون السياسية المهمة ولاعلان المساندة فى وقت المحن ، وأهم من ذلك كله لاعلان الموافقة على فرض الضرائب الملكية المتزايدة .

وبنى البرلمان الانجليزى على أساس قوى من الحكومة المحلية وكل الطبقات النيابية البارزة الثلاث ـ البارونات سكان المدن وفرسان المقاطعات ـ جلبوا معهم ثروة هائلة من الخبرة السياسية المحلية . وكان سكان المدن الذين شغلوا عضوية البرلمان فى العـــادة شخصيات محنكة فى الادارة الحكومية . وتمرس فرســان المقاطعات على ادارة الكونتيات ، ومحـــاكم الأقاليم ، لفترة طويلة . وبين طبقة النبلاء من البارونات وطبقة الفلاحين ألف هؤلاء الرجال طبقة مستقلة ـ أهل الريف ـ وهم الذين انتموا بجذورهم

الى مقاطعاتهم واقطاعات أســــلافهم الزراعية ، ولديهم خبرة فى الادارة الحكومية المحلية ومناسبين فكريا لتمثيل الكونتيات فى البرلمان ٠

وفى سنة ١٢٧٢ م خلف هنرى الثــــالث ابنه القــدير ادوارد الأول Edward I (١٢٨٢ ـ ١٣٠٧ م) الذى كان أكثر حكمة من والده ٠ وكان ادوارد الأول ملكا قوى الارادة ومستقلا فى رأيه الا أنه كانت لديه الحصافة فى أن يفوز بثقة البارونات ٠ وكان ناجحا فى كسب تأييدهم له ٠ وعلى الرغم من أنه اعتبر البرلمان وسيلة أساسية للحصول على الموافقة على الضرائب الجديدة كما فعل والده ، فانه استخدمها فى أغراض كثيرة أخرى أيضا ٠ ودعا البرلمان بشكل متكرر وأجرى تجارب لا حصر لها على تشكيله ٠ وفى السنوات الأخيرة من عهده أصبح من المعتاد وجود فرسان المقاطعات وسكان المدن ٠ ومع ذلك لم يحدث قبل القرن الرابع عشر أن بدأ الفرسان وسكان المدن عقد الاجتماعات منفصلين عن البارونات وبذلك حدث التقسيم البرلمانى الشهير الى مجلس اللوردات والعموم ٠

وعند نهاية القرن الثالث عشر ظلت القوى الحقيقية للبرلمان غامضة كما ظل تشكيله قابلا للمرونة ٠ وفى أحسن الأحوال كانت تتم مساومات مع الملك للحصول على الامتيازات مقابل المساعدة المالية ٠ ومع ذلك وضعت اللبنة الأولى اذ ان مفهوم العصور الوسطى العميق الجذور الخاص بوجــود حكومة ملكية محدودة السلطات قد ظهر فى شكل مؤسسة قدر لها أن تنمو على مر القرون لتصبح حجر الزاوية فى حكومة ممثلة للشعب ٠ وفى نهاية الأمر أصبح البرلمان الجسر التنظيمى المهم بين النظام الاقطاعى فى العصور الوسطى والديموقراطية الحديثة ٠

شهد عهد ادوارد الأول ذروة كثير من الاتجاهات التى تطورت على امتداد العصور الوسطى العالية ٠ ومن خلال تشريعاته الخلاقة أكمل ادوارد العمل الضخم لأسلافه فيمايتعلق بانشاء نظام ادارى ملكى معقد وفعال وايجاد مجموعة من القانون غير المكتوب الشاملة والدالة على الاستنارة الثقافية والروحية ٠ وكان قائدا ماهرا أضاف ويلز الى المملكة الانجليزية ، وأوشك على أن يهزم سكوتلاند Scotland وحارب الملك فيليب الوسيم بنشاط ، وان كان بشكل غير حاسم ، بشأن الأراضى الانجليزية فى جنوب

فرنسا ، بيد أن أكثر ماثره أهمية فى نهاية المطاف ، كانت سياسته الخاصة بتطوير البرلمان الى أن صار أداة حكومية مكملة · ولذلك فمما يبعث على السخرية أن الملك ادوارد اعتبر البرلمان فى المقام الأول على أنه أداة نافعة لزيادة الموارد المالية الضرورية لتدعيم مشروعاته الواسعة المدى · ولابد أنه كان يصاب بحالة من الذعر لو علم أن أسلافه الملكيين سيكونون فى يوم ما مجرد ملوك من الناحية الشكلية فحسب ، وأن البرلمان قدر له أن يحكم انجلترا ·

أسرة كابيه الباكرة :

اعتلت أسرة كابيه العرش الفرنسى سنة ٩٨٧ م· وكانت انجازات أسرة كابيه فى القرن الأول من حكمهم بسيطة الى حد كبير ، وكان انتصارهم الوحيد فى نجاحهم فى المحافظة على التاج لأسرتهم · واذا كانت أسرة كابيه قد وصلت الى العرش بفضل انتخاب أقطاب الدولة لهم ، الا أنهم سعوا منذ البداية الى أن تتخلص الحكومة الملكية من شخصيتها الانتخابية وجعلوا الحكومة وراثية · وفعلوا ذلك لتهيئة الأمور للورثة من الذكور لاعلان الواحد منهم ملكا قبل وفاة الملك ·

وربما يساعدهم على ذلك حقيقة أن التاج لم يكن شيئا جديرا بالقدر الذى يمكن أن يناضل من أجله الراغبون فى اغتصابه من الشخصيات القوية·

وفى أوائل القرن الثانى عشر كانت أسرة كابيه أضعف من العديد من اتباعهم الاقطاعيين · ففى الوقت الذى كانت تزداد فيه أحوال أتباعهم الاقطاعيين قوة مثل نورماندى وأنجو كانت جزيرة فرنسا التابعة لأسرة كابيه معرضة لمضايقات البارونات الذين مالوا الى التمرد والسلب بوحشية· واذا ما أدرك الكابيون القوة المتاحة للقبهم الملكى فان عليهم القيام بأعمال ثلاثة كبار :

١ - أن يسيطروا على جزيرة فرنسا وأن يعملوا على تهدئة الأحوال بها ·

٢ - وأن يوسعوا قاعدتهم السياسية والاقتصادية باضافة أراضى جديدة الى سلطتهم الملكية ·

٣ ـ وأن يكون سلطانهم على أتباعهم الاقطاعيين الكبار حقيقيا وليس مجرد مسألة نظرية فحسب ٠

وفى غضون القرنين الثانى عشر والثالث عشر اجتهدت سلسلة من ملوك كابيه المشهورين وحققوا تلك الأهداف ٠ ونجح نظامهم حتى استطاعوا السيطرة على كل فرنسا عند مطلع القرن الرابع عشر سواء بطريق مباشر أو غير مباشر وطوروا النظام الملكى البيروقراطى الى أن وصل الى درجة عالية من الكفاية والحنكة ٠ واتبعوا صيغة مرنة وقابلة للتغير ٠ والواقع أن نجاحهم اعتمد على تجمع الحظ والابداع الى حد ما ـ على أن استغلالهم لقواهم بذكاء مكنهم وفقا لطاقاتهم الكامنة التى توفرت لديهم على الدوام كملوك وكسادة اقطاعيين كبار بشكل مدهش فى تجنب الخلافات العائلية التى أنهكت كلا من ألمانيا وانجلترا من حين لآخر ٠ وعلى عكس الملوك الجرمان فقد احتفظوا بعلاقات ودية نسبيا مع البابوية ٠ وواتاهم الحظ فى وجود سلسلة متعاقبة من الورثة المباشرين من الذكور من سنة ٩٨٧ م الى سنة ١٣٢٨ م ٠ وفوق ذلك فنادرا ماتجاوزوا حدودهم اذ تجنبوا المشروعات المتسمة بالمبالغة وسياسة الأعمال المفاجئة التى تنم فى اثارة مظاهر الأبهة والعظمة مفضلين بدلا من ذلك النضال من أجل تحقيق الأهداف الواقعية والمعتدلة ٠ وعملوا على ازدياد سلطانهم تدريجيا وبحذر ٠ وذلك بعقد الزيجات التى تحقق فوائد وبمصادرة الاقطاعات التى يموت أصحابها دون ورثة وكذلك بانتزاع ملكية الأتباع الاقطاعيين الذين لا يلتزون بالواجبات الاقطاعية تجاه الحكومة الملكية ٠ ومع ذلك فان غالبية أسرة كابيه لم تكن راغبة فى السيطرة على كل أراضى أتباعهم الاقطاعيين ٠ والواقع أنهم سعوا الى بناء مملكة لها قلب أساسى من الأراضى الملكية تحيطها الاقطاعات التى تدين بولاء المطيعين ٠

لويس السادس والسابع :

ان أول ملك من أسرة كابيه الذى عمل بجدية نحو تأكيد السلطة فى جزيرة فرنسا هو الملك فيليب الأول Philip I (١٠٦٠ ـ ١١٠٨ م) الذى كان رجلا مغرورا ومبغوضا ، والذى أدرك الحقيقة الأساسية القائلة بأن الحكومة الكابية عليها أن تجعل وطنها قاعدة آمنة قبل الاتجاه الى تحقيق الأهداف الأكبر ٠ كانت سياسة فيليب واقعية وواصلها بنشاط أكثر ابنه

لويس السادس · (١١٠٨ ـ ١١٣٧ م) « البدين » · وعاما بعد عام دخل لويس البدين معـــارك ضد الاقطاعيين الصغار الذين احترفوا السرقة فى جزيرة فرنسا وحاصر قلاعهم الواحدة بعد الأخرى ، وأخيرا أجبرهم على الطاعة · وعند موت لويس سنة ١١٣٧ م كانت جزيرة فرنسا مزدهرة وأكثر نظاما نسبيا ، وبدأت الحكومة الملكية الفرنسية تنطلق بقوة جنبا الى جنب مع كبار الاقطاعيين بها ·

حصل لويس البدين على مساعدة قيمة فى الجزء الأخير من عهده من الأب سوجير Abbot suger رئيس دير القديس دينيس Saint Denis الملكى الشـــــهير ، والذى كان رجـــل دولة موهوبا ومتفانيا فى عمله ، عمل كمستشار ملكى أول من سنة ١١٣٠ م الى سنة ١١٥١ م ، وعمل بكل جد وفعالية على ازدياد نفوذ الملك وتنظيم الجهاز الادارى الملكى ، وترتب على ذلك ازدياد ثروة ومكانة دير القديس دينيس · وقدم سوجير عنصرا قيما من الاستمرارية بين عهدى لويس البدين وولده لويس السابع (١١٣٧ ـ ١١٨٠ م) ، الذى واصل تحقيق أهداف بمهارة لا تقل عن مهارة والده · وكان لويس السابع تقيا ، ودمث الأخلاق ، ووفقا لقول أحد معاصريه « كان ملكا مسيحيا بكل حق وصدق ، وان كان ساذجا الى حد ما » ·

وعندما مات الأب سوجر سنة١١٥١م واجه لويس السابع تهديدا مرعبا وجديدا تعرضت له الحكومة الملكية الفرنســـــية · اذ كانت الامبراطورية الأنجوية فى مرحلة التكوين · وفى سنة ١١٥٤ م ، اكتملت الصورة المنذرة بالسوء عندما اعتلى العرش الانجليزى هنرى بلانتا جينيت كونت أنجــو ودوق نورماندى وأوكوتين تحت اسم هنرى الثانى·وحاول لويس السابع احراج تابعه الاقطاعى القوى غير أن جهوده كانت تفتقر الى الحماس الى الحد الذى جعلها لم يكتب لها التوفيق · ورغم ذلك شهد لويس السابع اتساعا ملحوظا للسلطة الملكية · والواقع أنه كما قال أحد المؤرخين بثقة جديرة بكل اهتمام « ان المكانة العالية للحكومة الملكية الفرنسية توطدت أركانها فى عهد لويس السابع » · اذ ان الاتباع الاقطاعيين للتاج الكبار الذين كانوا خائفين من زملائهم الأنجويين الأقوياء والذين احترموا ورع ونزاهة لويس الساع بدأوا لأول مرة يعرضون دعاويهم امام محكمة سيدهم الاقطاعى الملكى ، ويحيلون منازعاتهم الى حكمه · وحاول رجال الكنيسة

ورجال المدن على حد سواء الحصول على تأييد لويس السابع فى منازعاتهم مع طبقة النبلاء · ولم تكن تلك التطورات نتيجة لمبادرة ملكية بقدر ماكانت نتيجة للاتجاهات الأساسية للعصر تجاه السلام والنظام والنشاط التجارى المتزايدة ، واتجه الفرنسيون بأعداد متزايدة الى ملكهم اللطيف والمتواضع من أجل العون والعدل · وشيئا فشيئا بدأ لويس السابع يتولى مكانته الشرعية كسيد اقطاعى أعلى كعاهل للملكة ·

فيليب أوغسطس (١١٨٠ ــ ١٢٢٣ م) :

وصلت الحكومة الملكية الفرنسية الى مرحلة النضج فى عهد فيليب الثانى « أغسطس » ــ (١١٨٠ ــ ١٢٢٣ م) الابن الموهوب للويس السابع· اذ باصراره المتسم بالشراسة من أجل المحافظة على حقوقه الاقطاعية وبانتهاجه سياسة الانتهازية المتقنة استطاع فيليب أوغسطس العمل على زيادة مساحة الأراضى الملكية الى حد كبير ، وأما فى المناطق التى ليست فى اطار النطاق المباشر للسلطة الملكية فانه حول حالة الفوضى الكاملة فى أراضى الأتباع الاقطاعيين الى نظام هرمى منظم تابع للملك ·

وكان أروع انجازات فيليب أوغسطس تدميره للامبراطورية الأنجوية وامتدت سلطة ملكه على نورماندى وأنجو ، وملحقاتهما · ولمدة عقدين من الزمان تآمر مع الأعضاء الساخطين من الأسرة الأنجوية ضد الملك هنرى الثانى وريتشارد قلب الأسد غير أن جهوده لم تثمر قبل الملك حنا (١١٩٩ ــ ١٢١٦ م) · وفى مواجهة جشع حنا وغدره الذى كان معروفا للجميع ، كان فيليب قادرا على أن يلعب دور السيد الاقطاعى المنصف الذى يعاقب بعدل أى تابع اقطاعى متمرد · وعندما تحرك فيليب أوغسطس ضد نورماندى « فى الفترة مابين ١٢٠٣ ــ ١٢٠٤ م ــ فان عدم شعبية حنا عند الجميع ارتدت الى نحره · وحصل فيليب على الغنيمة التى سعى من أجل الحصول عليها طويلا بسهولة مدهشة · وما أن صارت نورماندى ملكا له حتى آلت اليه الاقطاعات الباقية لحنا فى شمال فرنسا كما تتساقط أحجار الدومينو Dominnoes . · وبعد ذلك بعشر سنوات سنة ١٢١٤ م قضى فيليب على آخر أمل لحنا فى استرداد الأراضى الضائعة باحرازه نصرا حاسما على حلفاء حنا الالمان فى بوفين ·وبعد أن جدد فيليب مصير نورماندى وأنجو كانت بوفين أيضا نقطة تحول فى ميزان القوى بين فرنسا وألمانيا فى العصور

الوسطى العالية • ومنذ ذلك الحين كانت الحكومة الملكية الكابية بفرنسا النامية تحل محل المملكة الجرمانية المتداعية وبذلك صارت فرنسا القوة الأوربية الكبرى فى غرب أوربا •

وفى عهد فيليب أوغسطس وخلفائه حدثت تطورات مهمة فى النظام الادارى الملكى • اذ عاود المجلس الملكى Curia Regis مكانته كمحكمة اقطاعية فى فرنسا وثبت أنه جهاز فعال لتأكيد الحقوق الملكية على الأدواق Dukes والكونتسات Counts حيث حل الموظفون من أبناء الطبقة الوسطى والذين عرفوا باسم « المشرفون الملكيون » baillis محل النبلاء بالوراثة الذين خدموا بشكل تقليدى كرجال ادارة محليين فى الأراضى الملكية تدريجيا • وهؤلاء الموظفون الذين كانت أعمالهم مالية وقضائية وعسكرية وادارية فى وقت واحد كانوا مدينين بوظائفهم للفضل الملكى ولذلك كرسوا أنفسهم لخدمة المصالح الملكية بحماس شديد • وعمل المشرفون الملكيون بشكل متواصل طوال القرن الثالث عشر ، وغالبا ماعملوا على تقليص امتيازات الطبقة الارستقراطية الاقطاعية بأسلوب مجرد من المبادىء الأخلاقية • وعملوا على تقليص امتيازات الطبقة الارستقراطية الاقطاعية بأسلوب مجرد من المبادىء الأخلاقية • وعملوا على زيادة النفوذ الملكى • وتركزت هذه السلطة فى أيدى جماعاتمن الموظفين الاداريينالتى تدينبالولاء للملك والقادرة على الانتقال من مكان لآخر علىوجهالسرعة،دون أدنىاحترام للاقطاع والتقاليد المحلية • وأصبحت بمرور الوقت أداة قوية للاستبداد الملكى • وكان هؤلاء المشرفون الملكيون على نقيض شديد مع الموظفين المحليين فى انجلترا — الاشراف بالمقاطعات — الذين كانوا فى العادة ينحدرون من بين الطبقة العليا المحلية والذين توزع ولاءهم بين الملك الذى خدموه ، والاقليم والطبقة التى انحدروا منها •

لويس الثامن (١٢٢٣ — ١٢٢٦ م) :

تزامنت السنوات الأخيرة من عهد فيليب أوغسطس مع الحرب الصليبية الألبجنسية Albigensian الشرسة فى جنوب فرنسا التى دعا اليها البابا أنوسنت الثالث المعاصر للامبراطور فيليب ضد المؤيدين للتعاليم المسيحية الالبجنسية التى تخالف تعاليم الكنيسة والتى انتشرت بسرعة عن

طريق لانجودوك Langudox وشمال ايطاليا · واذا كان فيليب أوغسطس قد رفض المشاركة الشخصية فى الحرب الصليبية الا أن ابنه لويس التقى اتخذ دورا ايجابيا فى المشاركة بها · فعندما تولى العرش بعد والده سنة ١٢٢٣ م تحت اسم لويس الثامن (١٢٢٣ ــ ١٢٢٦ م) وضع كل موارد الدولة تحت تصرف الحملة الجنوبية · ونجحت الحملة الصليبية فى القضاء على التهديد الالبجنسى للعالم المسيحى الغربى الا أن ذلك ترتب عليه تدمير أجزاء كبيرة من جنوب فرنسا وابادة ثقافة رائعة كانت قد انتشرت من قبل هناك · ومنذ ذلك الحين فصاعدا مال جنوب فرنسا للخضــــوع لســيطرة شمال فرنسا ، وامتدت سلطة الحكومة الفرنسية لتصل الى البحر المتوسط · وربما يبدو مدهشا أن نكتشف أن لويس الثامن الذى ورث سلطة ملكية مترامية الأطراف من والده وعمل على زيادتها بنفسه وأن حوالى ثلث الأراضى الملكية فتحت عنوة كاقطاعات بين الأفراد الصغار من أسرة كابيه وعرفت تلك الاقطاعات التى ظهرت خارج أراضى الملك باسم اقطاعات أفراد الأسرة المالكة appanage · على أن ظهور هذه الاقطاعات لابد وأنه كان بمثابة اشارة الى نمو الحكومة الملكية الكابية لا يمكن أن يفهم ببساطة على أنه عملية طولية لتوسيع مدى الأراضى الملكية · فالكابيون لم يكن لديهم اعتراض على الاتباع الإقطاعيين طالما كانوا مطيعين وخاضعين للسلطة الملكية · والواقع أنه لوجود التسهيلات المحدودة فى المواصلات والنقل فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر بفرنسا كانت المملكة من الاتســاع الى الحد الذى يصعب على الحكومة الملكية ادارتها بطريق مباشر · لذلك فان الاقطاعيين الجدد والذين تربطهم بالتاج روابط عائلية قوية لعبوا دورا أساسيا فى ادارة شئون المملكة وعملوا على تقوية فعالية الحكم الكابى Capetian Rules ·

القديس لويس (١٢٢٦ ــ ١٢٧٠ م) :

مات لويس الثامن ســــنة ١٢٢٦ م تاركا البـــــلاد فى يــد أرملته الاسبانية القديرة والمتدينة والقوية وهى بلانش قشتاله Blanche Castile والتى قامت بدور الوصية على الملك الفتى لويس التاسع (١٢٢٦ ــ ١٢٧٠م) والذى عرف فيما بعد باسم القديس لويس والذى ظل وفيا لوالدته حتى بعد أن بلغ سن الرشد سنة ١٢٣٤م· لذلك استمرت الملكة بلانش شخصية مهيمنة فى الحكومة لعدة سنوات ·

أخذ لويس التاسع عن والدته الورع وعن والده الحزم . وعلى عكس الكثيرين من الملوك القديسين كان لويس التاسع ملكا قويا استبدت به فكرة الزام نفسه بأن يحكم بالعدل والحزم وأن يعلى منزلة الاستقامة الخلقية فى كل أنحاء المملكة الفرنسية . وبالرغم من ورعه الحقيقى بشكل كامل فانه كان شديد التمسك بالايمان القويم ـ كان حرفيا جدا فى تطبيقه التقاليد الدينية اذ قام باضطهاد الطوائف المسيحية التى لا تدين بعقيدة الثالوث الأقدس على المذهب الخلقيدونى وشارك فى حملة صليبية ضد المسلمين . وقال ذات مرة أن الرد الممكن والوحيد تجاه اليهود الذين يسخرون من المعتقدات المسيحية هو أن يقوم المسيحى « بغمد سيفه فى بطونهم الى نهايته». ومع ذلك ففى تأكيده على هذه المواقف فانه كان يعكس صورة عصره فحسب. وكان عهده مختلفا اختلافا كبيرا عن عهد فيليب أوغسطس لأنه لم يوجه حياته تجاه الأهداف السياسية وانما تجاه ماكان يعتقد أنه أهداف دينية اذ كان يؤمن بمحاربة غير المسيحيين فى الوقت الذى يؤمن فيه بالسلام مع الحكام المسيحيين بتحمس وبكل مافى هذه الكلمة من معنى. وبناء على ذلك عقد معاهدات مع هنرى الثالث ملك انجلترا ، ومع ملك أرجون Argon حيث تمت تسوية كل المنازات المعلقة بسلام . وقام لويس التاسع بدور مصلح ذات البين بين الحكام المسيحيين بل أنه استدعى للفصل فى النزاع بين الملك هنرى الثالث وباروناته .

وكان القديس لويس مقتنعا بصفة عامة بالمحافظة على الحقوق الملكية التى أرسى قواعدها أسلافه. ففى الواقع كان المشرفون الملكيون التابعون له والموظفون الآخرون أكثر عدوانية منه فى محاولاته توسيع نطاق السلطة الملكية. وكما عبر أحد المؤرخين المحدثين « فى هذا العهد كان تقدم الحكومة معقدا نتيجة لورع الملك المبجل والسياسة العدوانية التى اتسمت بالصمود والعناد التى مارسها موظفو الملك » . والواقع أن القديس لويس وصل الى حد اقامة نظام المفتشين الملكيين المتنقلين من مكان الى مكان ـ أو المحققين Enquêteurs الذين قدموا تقارير رسمية عن الشكاوى المحلية وساعدوا على أن يظل الوظفين المحليين الطامحين خاضعين للمراقبة . وفى عهد لويس التاسع وصلت ثقافة العصور الوسطى الى قمتها فى فرنسا. وازدهرت الحياة فى المدن فى عهده وشيدت كاتدرائيات قوطية رائعة فى المدن . وهو العصر العظيم للجامعات فى العصور الوسطى. وفى أكثر جامعات

العصور الوسطى شهرة، جامعة باريس، اجتمع فى وقت واحد بعض رجال الفـــكر الممتازين فى أوربا العصـــور الوسطى ـ القـــديش بوفنتور Bonventure والبرتوس ماجنوس Albertus Magnus ، تومـــاس الأكوينى . وخرجت الجامعات رجال اللاهوت المهرة، رجال نظرتهم أكثر علمانية نذروا مواهبهم لخدمة الملك ، واحتلوا المناصب العليا فى الأجهزة الادارية الملكية ٠ وأصبحت الحكومة الكابية راسخة الدعائم وأكثر تعقيدا وفعالية ٠ أما من وجهة نظر طبقة النبلاء الاقطاعية فقد كانوا أكثر استبدادا ٠

فيليب الوسيم (١٢٨٥ ـ ١٣١٤ م) :

مات القديس لويس فى غمرة حملته الصليبية الثانية ٠ وفى عهد خلفائه واصل الجهاز الادارى الحكومى سياساته المركزية دون تحفظ وخلف الملك لويس ابنه فيليب الثالث (١٢٧٠ ـ ١٢٨٥ م) ثم حفيده فيليب الرابع أو « الوسيم » المجرد من المبادىء الأخلاقية والذى سيطر عليه الاحساس بعدم المبالاة (١٢٨٥ ـ ١٣١٤ م) ٠ كان فيليب الوسيم شخصية صامتة وغامضة وورعا تقليديا ، غير أنه كانت لديه نزعة حقيقية فى اختيار كبار الموظفين المقتدرين والمجردين من المبادىء الأخلاقية تماما ، والعدوانيين ـ وبصفة أساسية رجال القانون من الطبقة الوسطى من جنوب فرنسا ـ الذين نذروا أنفسهم لاعلاء شأن الحكومة الملكية الفرنسية باخلاص ملحوظ ٠

كان عهد فيليب الوسيم عصر عدوان ملكى متواصل ضد أراضى الدول المجاورة والبابوية والامتيازات التقليدية لطبقة النبلاء الفرنسية وشن فيليب حربا غير حاسمة ضد الاقطاعات الباقية لادوارد الأول ملك انجلترا فى جنوب فرنسا ٠ وبذل جهدا مضنيا للاستيلاء على أراضى الفلاندر وسجن الكونت الفلمنـــكى Flemish Count وحكم الأقاليم حكما مباشرا على يد مندوب ملكى بيد أنه تعرض للـــهزيمة على يد ثورة فلمنكية دموية سنة ١٣٠٢ م ٠ وواصل بنجاح سياسة التصدى للعدوان الآتى من الشرق ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة وشنت شمل جماعة الفرنسان الداوية الصليبية Crusading order of knights templers الغنية وقضى على سمعتهم بشن حملة من الشائعات المغرضة والمذمومة أثارت الدهشة وصادر ثروتهم ٠ ولقد شاهدنا فى الفصل السابق كيف تصارع مع البابا بونيفس

الثامن وكيف ألقى ممثلوه القبض على البابا لفترة من الوقت وكيف فى نهاية الأمر دبر انتخابات البابا الفرنسى لين العريكة كلمنت الخامس Clement V الذى أقام فى أفينون Avignon . وواصل سياسة نشطة مضادة للاقطاع ضد طبقة النبلاء فى بلاده اذ حد من قوة النظام الهرمى الاقطاعى وألزم كل الفرنسيين بتقديم الطاعة والولاء المباشر له . وكانت كل تلك الانشطة مظاهر للفلسفة السياسية السائدة لعصره اذ كان الملك سيدا لفرنسا علمانيا ودينيا والشخصية المسيطرة فى غرب أوربا . وتصادفنا هذه الفلسفة نفسها فى رجال الدولة الفرنسيين الطموحين فى القرون التالية ، فى الكاردينال ريشليو Cardinal Richelieu ، وفى لويس الرابع عشر Louis XIV فى حين أنها تجردت من زخرفها فى عهدى نابليون ودى جول degoulle . وبرغم ذلك لم يكن الملك قادرا على أن يحكم دون وجود قدر من العون من رعاياه . وجلب انتصار فيليب على البابوية فى مسألة فرض الضرائب على رجال الدين وكذلك استيلائه على أموال الفرسان الداوية أموالا اضافية الى خزانته . غير أن نفقات الحكومة المتزايدة وكذلك الصراعات الحربية أجبرته على البحث عن مصادر جديدة لزيادة موارده المالية وأن يضمن موافقة شعبه على رفض الضرائب غير العادية كما كان الحال فى انجلترا . غير أنه بدلا من دعوته مجلس شعبى عام برلمان لهذا الغرض اعتاد على التفاوض مع المجموعات المختلفة الدافعة للضرائب كل على انفراد .

ومع ذلك ففى عهد فيليب الوسيم انعقد أول المجالس الشعبية الكبرى بممثليها فمنذ سنة ١٣٠٢ م انعقد مجلس الطبقات من حين لآخر بهدف تقديم الدعم الرسمى للملك فى أوقات الأزمات ، وابان الصراع الذى وصل قمته مع البابا بونيفيس الثامن ، أو على سبيل المثال فى غمرة الخلاف مع الفرسان الداوية . واشتمل المجلس على الطبقات الثلاث الكبرى ـ رجال الاكليروس، طبقة النبلاء ، وسكان المدن . واستمر انعقاد المجلس من حين الى آخر ابان القرون التالية بيد أنه لم يصبح أبدا أداة حقيقية للحكومة كما حدث فى البرلمان الانجليزى . وكان فشله نتيجة لمحاولته الحصول على صلاحية شرعية مبكرة وغير موفقة خلال القرن الرابع عشر فى غمرة حرب المائة عام . بل ان مجلس الطبقات فى عهد فيليب الوسيم افتقر الى القوة الدافعة التى تمتعت بها برلمانات انجلترا المعاصرة . ولم يكن لمجلس الطبقات صوت حقيقى فيما يتعلق بالضرائب الملكية . ولذلك لم يكن فى مركز يسمح له بلوم الملك من خلال

الاشراف المتزايد على الانفاق · ولم يكن مجلس الطبقات ثمرة متطورة للمجلس الملكى كما هو الحال فى انجلترا وانما كان منفصلا كلية ولذلك كان هيئة دخيلة الى حـــد ما · ولم تكن هنـــاك فرصة حقيقية للطبقة البورجوازية والطبقة العليا فى الالتحاق بالمناصب العليا كما كان الحال فى مجلس العموم الانجليزى كما ظل الفرسان الفرنسيون عاجزين عن الافصاح عن آرائهم وفئة تابعة للطبقة الارستقراطية لعدم تحملهم للمسئوليات المهمة فى الحكومة المحلية التى وقعت على عاتق فرسان المقاطعات الانجليزية · وقبل كل شىء تخلفت طبقة النبلاء والبورجوازية فى فرنسا تخلفـــا كثيرا عن نظيرتيهما فى انجلترا فيما يتعلق بالوعى القومى أو الشعور بالتلاحم · وفى أواخر القرن الثالث عشر كانت فرنسا كبيرة ومتنايرة العناصر وموحدة تحت السلطة الملكية الى الحد الذى لم يجعل سكانها يتسمون بشعور الانتماء الهادف كشعب ولذلك ظلت نظرتهم اقليمية وأبرشية ·

ومع ذلك فبالرغم من الاختلافات المهمة بين البرلمان الانجليزى ومجلس الطبقات الفرنسى فان المؤسستين اشتركتا فى بعض الأمور · وكلاهما نتاجا للتطور الكبير الذى تمخض عن الحكومة الملكية الاقطاعية والفكرة السائدة فى العصور الوسطى الادارة الحكومية بناء على موافقة المملكة · وتزامن ظهور مؤسسات متشابهة بها ممثلين للشعب فى كل انحاء العـــالم الغربى المسيحى فى الممالك المسيحية فى اسبانيا وفى ايطاليا فى عهد فريدريك الثانى Fredrick II ، وفى الامارات النـــامية فى ألمانيا ، وفى الكوميونات Communes ، والدوقيـــــات Duchies والكونتيــــــات Counties التى لا حصر لها على امتداد طول وعرض أوربا · ومن بين تلك التجارب العديدة ظل البرلمان الانجليزى موجودا حتى أيامنا هذه · بيد أن البرلمان لم يكن مجرد ثمرة لتجربة انجليزية منعزلة وانما كان مظهرا مهما لاتجاه أساسى وواضح فى الحضارة الأوربية ابان العصور الوسطى العـــالية ·

الجدول الكرونولوجي لملوك انجلترا وفرنسا فى العصور الوسطى :

انجـــلترا :

١٠٦٦	الغزو النورماندى لانجلترا ٠
١٠٦٦ - ١٠٨٧	عهد وليم الفاتح ٠
١٠٨٧ - ١١٠٠	عهد وليم الثانى ٠
١١٠٠ - ١١٣٥	عهد هنرى الأول ٠
١١٣٥ - ١١٥٤	الخلاف على العرش ، الملك ستيفن ٠
١١٥٤ - ١١٨٩	عهد هنرى الثانى ٠
١١٨٩ - ١١٩٩	عهد ريتشارد قلب الأسد ٠
١١٩٩ - ١٢١٣	عهد حنا ٠
١٢٠٣ - ١٢٠٤	ضياع نورماندى ٠
١٢١٥	العهد الأعظم ٠
١٢١٦ - ١٢٧٢	عهد هنرى الثالث ٠
١٢٦٤ - ١٢٦٥	ثورة سمعان من مونتفورت ٠
١٢٧٢ - ١٣٠٧	عهد ادوارد الأول ٠

فرنســـا :

٩٨٧ - ١٣٢٨	عهد حكم أسرة كابيه ٠
١٠٦٠ - ١١٠٨	عهد فيليب الأول ٠
١١٠٨ - ١١٣٧	عهد لويس الرابع « البدين » ٠
١١٣٧ - ١١٨٠	عهد لويس السابع ٠
١١٨٠ - ١٢٢٣	فيليب الثانى « أوغسطس » ٠
١٢١٤	معركة بوفين ٠
١٢٢٣ - ١٢٢٦	عهد لويس الثامن ٠
١٢٢٦ - ١٢٧٠	عهد القديس لويس التاسع ٠
١٢٧٠ - ١٢٨٥	عهد فيليب الثالث ٠
١٢٨٥ - ١٣١٤	عهد فيليب الرابع » الوسيم « ٠

١٤ - الأبعاد الجديدة للمسيحية فى العصور الوسطى :

الكنيسة فى العصور الوسطى العالية :

على الرغم من أن العصور الوسطى شهدت بدايات ظهور الأمم ، فان القومية لم تبدأ تلعب دورها فى الفكر الأوربى الا بعد ذلك بكثير . وفى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ظلت الغالبية العظمى من الأوربيين محليين بشكل شديد فى نظرتهم ومعرفتهم عما يجرى بجوار بيئتهم التى كانت غامضة . غير أنه بجانب نظرتهم المحلية كان هناك عنصرا عاليا - وهو شعور بالانتماء الى مصلحة عالية كبرى فى العالم المسيحى ، واذا كانوا غير متحدين سياسيا الا أن الكنيسة وحدتهم ثقافيا وسياسيا . ومن الناحية الواقعية كانت العصور الوسطى العالية أكثر ميلا الى النظام المحلى وأكثر اتجاها الى النظرة الدولية عن العصور الحديثة .

وكانت الكنيسة فى العصور الوسطى العالية سلطة قوية تدعو الى الوحدة . اذ حققت تقدما جديرا بالذكر منذ العصر السابق للعصر الكارولنجى الذى كان نصف سكانه من الوثنيين . وفى ذلك الحين انتشر نظام الأبرشية النشط فى كل أنحاء المناطق الريفية الأوربية لتقديم الأسرار المقدسة والقدر اليسير من التعليم المسيحى الى الفلاحين . وتكونت أبرشيات ومهمات جديدة لرئيس الأساقفة وعملت الأبرشيات القديمة بنشاط أكثر باستمرار . ولم تنجح البابوية نجاحا كاملا فى محاولاتها لايقاف أو وضع حد للسيطرة التى مارسها الملوك الاقطاعيين العلمانيون على أساقفتهم المحليين بيد أنه فى أعقاب الخلاف حول تقليد العلمانيين لرجال الدين Investure Controversy فانها مارست سيطرة حقيقية على الأسقفيات . وآثار نمو النظام الادارى البابوى الفعال حقد الحكومات الملكية الناهضة عليها ومحاولتها محاكاة الكنيسة .

على أن حالة الابتهاج فى العصور الوسطى العالية لم تكن أكثر وضوحا عما حدث من أثر للورع المسيحى فى المجتمع الأوربى والذى تم بشكل سريع . وقدمت أسرار الكنيسة أبعادا دينية جديدة فى حياة الرجل العلمانى الأوربى التقليدى : اذ ان سر المعمودية طهر ميلاده حيث خلص من وصمة الخطيئة الأولى ، ودخل فى زمرة الجماعة المسيحية ، وفى سن البلوغ يتلقى سر التثبيت

Confirmation الذى يستهدف التأكيد على عضويته للكنيسة ٠ ويعطيه نعمـــة اضافية للتغلب على مشكلات المراهقة ٠ ويتم تبجيـــل زواجه بسر الزواج ٠ واذ ما اختار نداء الكهنوت فانه يتحول كنسيا الى كاهن عن طريق سر الكهنوت ، وعند الموت يتلقى سر مسح المحتضر بالزيت المقـــدس extreme unction الذى يعد روحه لرحلتها الى العالم الآخر ٠ ويستطيع طول حياته أن يحصل على المغفرة عن نتائج اللعنة الخاصة بالموت الروحى عن طريق الندم على ما اقترفه من آثام ، وكذلك التوبة وتلقى سر الغفران Penance المريح بكل تواضع ٠ وأخيرا يمكن للمرء أن يشـــارك بانتظام فى السر الرئيسى للكنيســـة ــ القربان المقدس The eucharist اذ يتقبل جسد المسيح فى جسده عن طريق تناول خبز القربان ٠ ومن ثم فان الكنيسة جلبت نعمة الله من خلال أسرارها السبعة لكل المسيحيين كبيرهم وحقيرهم ، فى كل مرحلة حاسمة من حياتهم٠على أن نظام الاسرار السبعة المقدسة أخذ شكله النهائى فى العصور الوسطى العـالية فحسب ، وكان مصدرا هائلا للراحة وتأكيد السكينة وجلب الأمل فى الخلاص ليس فقط للنخبة الورعة ولكن أيضا للغالبية الآثمة ٠كما أن الأسرار ربطت الصلة بالله ليس فقط عن طريق الهدف المحير للطقوس السرية ولكن أيضا عن طريق ممارسة كل المؤمنين الدورية ٠ وبالطبع٠ جعلت الأسرار السبعة المقدسة من الكنيسة وسيلة أساسية بين الله والانسان ٠

ونتج عن تزايد مجال الكنيسة بالاضافة الى القوى النامية للعصر الجديد تعميق لحالة الورع الشعبى فى كل أنحاء أوربا ٠ وشهدت العصور الوسطى تغيرا عميقا فى الاتجاه الدينى من صفته المميزة القائمة على الخوف من الله والرهبة تجاه كل شىء مقدس وسرى ٠ وهذه الصفة هى التى ميزت المسيحية الباكرة الى النزعة العاطفية والحركة النشطة الجديدة ٠ واتضح هذا التحول فى فن العمارة الكنسى حيث تراجع الطراز الرومانسيكى العادى المتبلد الحس أمام الطراز القوطى الممتد الى أعلى والمشدود بالتعبيرات ٠ وهناك تغير مماثل كان واضحا فى الممارسات التعبدية وهو أن لاهوت المسيح ترك ناسوته يعانى آلام الصلب أثناء المحاكمة من أجل خطايا الانسان ٠ وفى العصور الوسطى العالية نالت العذراء مريم مكانة الشفعية الحنونة للأرواح الضائلة اليائسة ٠ ومهما كان الشخص آثما فانه يمكن له التخلص من الخطيئة اذا ماحاز عطف مريم لأنه من هو الابن الذى يستطيع أن يرفض

شفاعة والدته ؟! وهناك أسطور فى ذلك العصر قالت ان الشيطان شكا الى الله من ملكه السماء الشفوقة التى حرمت جهنم من الموعودين بها ان الله القادر فوق عباده أصبح الرحيم الذى عانى فى الجسد ومات فى ألم مبرح ليكفر عن خطايا البشر وليهبهم الحياة الأبدية ·

وعلى مثال كل المؤسسات الانســانية ابتعدت الكنيسة فى العصور الوسطى كثيرا جدا عن مثلها العليا · اذ كان وجود رجال الكنيسة المنحرفين أمرا جليا طوال العصر ووجد بعض المؤرخين متعة فى تقديم الأمثلة والشواهد لأساقفة مالوا الى السرقة وقساوسة اتسموا بالشره وراهبات فاسقات · غير أن مثل تلك الحالات كانت نادرة · على أن موطن الضعف الشديد فى الكنيسة فى العصور الوسطى لم يكن فى الانحراف الفاضح وانما فى الشعور بالرضا الذى أفرز موقفــا سطحــيا واليــا تجاه الحيــاة الدينية المسيحية أحيانا · كان للكنيسة فى العصور الوسطى نصيبا كبيرا من القديسيين بيد أن الايمان العميق كان ضائعا بالنسبة للشئون اليومية للمهمة الرعوية وادارة الأراضى الزراعية المنتشرة فى أماكن كثيرة فى غالب الأحوال ·

الأزمة البندكتية :

كانت النزعة نحو الشعور بالرضا الذاتى مشكلة متكررة فترة بعــد أخرى فى الحياة الديرية المسيحية · وحدث مرارا وتكرارا أن اضمحل شأن المثالية السامية لحركة الاصلاح الديرى ، وتحولت بمرور الوقت وتعاقبه حتى ظهرت فى النهاية حركات احتجاج ضد الانهماك المتزايد فى الشئون الدنيوية على حساب الشئون الروحية فى الحياة الدينية الأقدم فى التطور· وتكررت هذه الدورة مرات عديدة · والواقع أن الحركة البندكتية نفسها كانت احتجاجا على التجاوزات والقصور الموجود فى الحياة الديرية الباكرة· واعتبر القديس بندكت St. Benedict نظامه الجديد وسيلة للانسحاب من العالم وتكريس كل الوقت للاتصال بالله · وعلى الرغم من مثالية المبادىء البندكتية فانها ارتبطت بسرعة بنشر التعليم والتبشير ·

وبحلول القرنين العاشر والحادى عشر صارت الحركة البندكتية كلها مشغولة بالشئون العالمية · وأدارت الأديرة البندكتية الأراضى الشاسعة وجهزت جماعات من الفرسان لخدمتها فى الجيش الاقطاعى ، واتصلت

اتصالا وثيقا بالأمراء العلمانيين فى شئون الدولة • وفى أوائل القرن العاشر ظهرت الحركة الكلونية Cluniac movement والتى كانت بندكتية فى روحها ونظامها كاحتجاج ضد الانهماك فى الشئون الدنيوية على حساب الشئون الروحية والشعور بالرضا الذاتى الذى آلت اليه الحيـــاة الديرية البندكتية المعاصرة ، بيد أنه فى أواخر القرن الحادى عشر توصلت مجموعة الأديرة الكلونية Congregation of Cluny الى تفاهم مع المؤسسات التجارية العلمانية بشكل واضح ، وبدأت تكشف عن نفس آثار الشعور بالرضا الذاتى الذى تمردت عليه من قبل • كانت مدينة كلونى Cluny مزدهرة وتحظى بالتقدير وتوقع فى النفس الشعور بالأمن لذلك ، فانهـــا كانت راضية عن أديرتها الفخمة الخاصة بالرهبان والراهبات كما أنها قدمت منهجا يفسر الأمور المتعلقة بالطقوس الدينية فضلا عن أن حقولها الغنية ساعدت على حدوث التحول الجذرى للمجتمع المسيحى الذى ناضل من أجله البابا جريجورى السابع regory VII .

كانت أهداف البابا جريجورى السابع على كس أهداف القديس بندكت St. Benadic تماما تقريبا ، لأنه فى حين حاول بندكت ايجاد حيـــاة ديرية فى أماكن مقدسة يلجأ اليها المسيحيون عندما يترهبوا حاول جريجورى السابع أن يجعل المجتمع نفسه مكانا مقدسا • اذ لم يكن هدف جريجورى مجرد الانسحاب من العالم فحسب ، وانما الاندماج فيه وتعليمه • فبدلا من ان يكون المسيحيون فى مأمن من العالم فانه عمل على أن يكون العالم كله مكانا آمنـــا للمسيحية • وابان الخـــلاف على تقليد المنـــاصب الدينية Investiture Controversey ، وما تلاه من آثار كان لهـــذين الاتجاهين — الانسحاب من العالم والاندماج فيه — أثر شديد على اصلاح الحياة الديرية •

وبدت علامات الانهاك على الحركة البندكتية فى بداية العقود الأولى من العصور الوسطى العالية • وقدم المدرسون والمبشرون ونساخ المخطوطات والمستشارون السياسيون من الرهبان البندكتيين خدمات للمجتمع لا غنى عنها ، وذلك ابان القرون الطويلة التى سادها الاضطراب فى العصور الوسطى البـــاكرة • وقامت الاديرة البندكتيـــة بدور مراكز للاشـــعاعات الروحية والثقافية فى العالم المسيحى • غير أنه فى القرنين الثانى عشر

والثالث عشر شهد البندكتيون توقفا لاحتكارهم للعملية التعليمية على أيدى مدارس الكاتدرائيات والجامعات بالمدن الجديدة ٠ وخرجت مدارس المدن أعدادا متزايدة من العلماء المدربين الذين فاقوا الرهبان البندكتيين تدريجيا كنساخ المخطوطات كمستشارين للملوك ٠ وبعبـــارة أخمى قلصت القوة الكبرى الناشئة عن قيام المدن الدور التقليدى للحركة البندكتية فى خدمة المجتمع بشدة ٠

ومع ذلك 'حتفظ البندكتيون بممتلكاتهم من الأراضى الشاسعة ٠ ومن النادر أن كان الدير البندكتى ملاذا مقدسا بعيدا عن الشئون الدينية كما آراد القديس بندكت St. Benedict . كما لم يعد الدير البندكتى القوة الدافعة لتنصر العالم كما كان من قبل ٠ ولم تسلك البندكتية فى القرن الثانى عشر طريق الانسحاب من العالم أو طريق الهداية ، وانما فقدت سيطرتها فى ميدان التنافس على الشئون الدنيوية ٠ وبدت الحياة البندكتية للمتدينين الذين سعوا لأسمى درجات الورع فى العصر الجديد مخيبة للأمل ولا تروق لهم ٠

الحياة الرهبانية الجديدة :

سلكت الثـــورة الديرية ضد البندكتية الطريقين المختلفين الخاصين بالانسحاب الشديد من المجتمع والمشاركة المتحمسة فى تنصير هذا المجتمع ٠ اذ ان الدافع تجاه الانسحاب من المجتمع انتشر بين النظام الديرى الكارثوزى Carthusian Order الذى ظهر فى شرق فرنسا فى أواخر القرن الحادى عشر ، وانتشر عبر أنحاء العالم المسيحى فى القرن الثانى عشر ٠ وعاش الكارثوزيون Carthusians فى مجموعات صغيرة بمعـــزل عن العالم الخارجى متعبدين معا فى كنائس صغيرة خاصة بطائفتهم الا أنهم عاشو' كنساك فى صوامع معدة لشخص واحد ٠ ومازال هذا النظام الديرى المتزمت موجودا حتى أيامنا هذه ٠ وعلى عكس الحركات الديمية فان تمسك هذا النظام الشديد بالقيم الروحية من النادر ان اعتراه شىء من الوهن ٠ ومع ذلك فحتى فى جو القرن الثانى عشر المشبع بالتمسك بالقيم الروحية كان النظام الديرى الكارثوزى حركة صغيرة قدمت نمطا للحياة لأقلية فقط من الرجال الأتقياء الذين اتسموا بالبطولة بعد أن نذروا أنفسهم لخدمة الله والدين ٠ ونال النظام الديرى الكارثوزى اعجابا شديدا نظرا الى أنه كان

من النادر الانخراط فى سلكه بسبب ميله الشديد الى الزهد بدرجة فاقت مستوى المسيحى العادى ٠

نجح النظـــام الـــديرى الســـــترشن Cistercian order أكبر الحركات الديريةفى القرن الثانى عشر لفترة من الوقت فى أن يكون نظـاما متقشفا ومقبـولا شـعبيا ٠ المقـر الرئيسى لهـذا النظـام الديرى فى ســـــيتو Citeaux سنة ١٠٩٨ م وهو مكان مقفر ومنعزل فى جنوب فرنسا ٠ وفى بداية الأمر نما النظام الديرى السسترشن ببطء شديد ، ثم تحققت له القوة الدافعة رويدا رويدا ٠ وفى سنة ١١١٥ م كان لهذا النظام الديرى اربع مقرات تابعة ، وفى نهاية القرن صار له خمسمائة مقرا تابعا ٠

وقدم النجاح المدهش للنظام الديرى السسترشن الدليل على الاعجاب الهائل بفكرة الانسحاب من العالم لدى المسيحيين فى القرن الثانى عشر ٠ وعلى مثال النظام الديرى فى سيتو Citeaux تم بناء الأديرة التابعة فى المناطق القفرة البعيدة ٠ وكان الرهبان أنفسهم غلاظ الطباع وسذجا ٠ كما كانت الاديرة فى تباين صارخ بالنسبة لفن العمارة الكلونى المتقن ٠ وكانت الحياة السسترشئية Cistercian قاسية وبدائية ـ وأقل قســـوة عن الحياة الكارتوزية Carthusians ، وان كانت أكثر قسوة من الحيـــاة الكلونية ٠ وسعى السسترشن الى بعث الحياة الصاررمة والبسيطة للبندكتية الأصلية ٠ بيد أنهم كانوا فى الحقيقة أكثر تزمتا من بندكت نفسه ٠ وارتبطت أديرة السسترشن ارتباطا وثيقا ليس عن طريق سلطة رئيس الدير المركزى كما هو الحال فى النظام الكلونى Cluny وانما عن طريق اجتماع لكل رؤساء أديرة الطائفة فى مدينة سيتو Citeaux ٠ وبدون تلك السيطرة المركزية يصبح ارتباط الأديرة المستقلة بالمثل العليا الصارمة والتقشفية ألتى قامت من أجلها أمرا بعيد الاحتمال ٠

كان القديس برنارد St. Bernard الشخصية البارزة الرئيسية فى النظام الديرى السسترثيانى Cistercianism فى القرن الثانى عشر اذ انخرط فى سلك جماعة رهبان سيتو سنة ١١١٢ م وبعد ذلك بثلاث سنوات صـــار رئيســـا لدير كليرفو Claveaux الذى قام بتشييده وهو أحد الأديرة الباكرة التابعة للدير الرئيسى فى سيتو ٠ وكان القديس برنارد رئيس دير

كليرفو المسيحى القيادى لعصره متصوفا ، واسع المعرفة ، وخطيبا دينيـــا شهيرا ، وشخصية مهمة فى الظهور النورانى للنظام الديرى السسترثيانى • وكان نفوذه الأدبى هائلا لدرجة أنه أصبح الوسيط الأوربى القيادى للمنازعات السياسية والكنسية • اذ قام باقناع ملك فرنسا وامبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة بالمشاركة فى الحملة الصليبية الثانية • وأقنع العـالم المسيحى بقبول ترشيحه فى الانتخاب البابوى الذى اتسم بالنزاع الشديد سنة ١١٣٠ م • وفى احدى المناسات نجح فى تسوية الخلافات بين الأسرتين الألمـــانيتين الكبـيرتين المتحـــاربتين وهمـــا : أسرة الويلف Welfs وأسرة الهونشتوفين Hofinsttaufens بل أنه وبخ البابا نفسه : « قبل كل شىء تذكر أن الكنيسة الرومانية المقدســة هى أم الكنـائس ، وليست سيدتهم المسيطرة ، وأنك لست سيدا على الأساقفة وانما أحدهم •••• » واتخذ برنارد موقفا عنيدا ضد احدى الحركات التى ظهرت فى عصره : وهى التصور الاستفزازى الخاص بمحاولة التوفيق بين الايمان الكاثوليكى Catholic Fait والعقل البشرى والذى تعرض له بطرس أبيـــلارد Peter Aberlard فيلسوف القـرن الثـانى عشر الشـهير • وفى خاتمة المطاف فشل برنارد فى أن يوقف اخضاع الايمان للعقل بيد أنه نجح فى أن يجعل معيشة أبيلارد المسكين ضنكا ، وأن يحصل على ادانة رسمية لبعض من تعاليم أبيلارد •

ويثبت مجرى حيـاة برنارد تناقض ظـاهرى كامل بالنسبة للطـائفة السسترثيانية Cistercianism بشكل شديد لأنه على الرغم من نضال تلك الطـائفة لفصل أنفسهم عن المجتمع فانهم اتجهـــوا صـــوب دوامة الشئون العالمية • والواقع أنه بمرور القرن الثانى شر أصبحت كل الحركة السسترثنية مهمته بالشئون الدنيوية باضطراد • وعلى سبيل مثال البيورتان Purtans الأواخـر اكتشـف السسترشن أن فضـيلتيهم المزدوجـتين الخاصتين بالتقشف والعمل الشاق قد أفضيتا الى تكدس مربك للثروة وصدأ ملازم لبساطتهم الروحية • وان جهودهم فى تأمين الأراضى المحيطة بأديرتهم البعيدة وضعتهم فى الطليعة للحـــركة الواقعية على الحدود الداخلية • وأصبحوا روادا فى الفلاحة العلمية وأدخلوا تحسينات جديرة بالملاحظة فى تربيته الخيول والماشية والأغنام • وأصبحت طائفة السسترشن الانجليزية من أكبر منتجى الصوف فى المملكة • وعلى الجملة مارست هذه الطائفة

نفوذا متصاعدا وقويا على الاقتصاد الزراعى والحيوانى الأوربى وقدر لها أن تلعب دورا بارزا فى الاقتصاد الأوربى · وتزايدت ثروة هذا النظام الديرى نتيجة للنجاح الاقتصادى · وأصبحت كنائس الأديرة السسترشن أكثر غنا وتطورت اضطراد وساد حياة طائفة السسترشن المتقشفة والبسيطة حالة ظهرت أنظمة أخرى بهدف المشاركة بنشار فى المجتمع والعمل على تجديده· مثل طائفة الترابيست Trappists التى عـــادت الى النظام الأصلى للطائفة السسترشنية ·

وحــاولت طائفة السسترشنية الانسحاب من العالم وبرغم هدفهم هذا فانهم أصبحوا قوة كبرى فى أوربا فى القرن الثانى عشر · وفى الوقت نفسه ظهرت أنظمة أخرى بهدف المشاركة بنشاط فى المجتمع والعمل على تجديده · فعلى سبيل المثال خضعت القوانين الأغسطينية Canons Augustinian لصرامة النظام الديرى ومع ذلك قامت بتنفيذ الواجبات الكنسية العادية فى العالم بتقديم الخدمات فى الكنـــائس الأبرشية والكاتدرائيات · ووصل الاندماج للنظام الديرى ذروته ونشاطه الدنيوى فى المنظمات الصليبية فى القرن الثانى عشر ــ الفرسان الداوية The Knights Templers والفرسان الاسبتارية والفرسان التيتون The Teutionic Knights والمجموعات المشابهة التى كان مثلها الاعلى هو امتزاج الحيــاة الديرية بالحياة العسكرية من أجل تحقيق امتداد الحدود السياسية للعالم المسيحى الغربى · تلك التنظيمات وجهود أخرى هى التى وجهت النشـــاط الروحى للحياة الديرية نحو تنصير المجتمع ، وكرمز الى التصورات الجريئة والآمال الكبار لحالة الورع الجديدة والمشبعة بشكل عاطفى ، والتى حركت أوربا فى القرن الثانى عشر ·

الطوائف الدينية المسيحية التى لا تؤمن بالمذهب الكاثوليكى ومحكمة التفتيش :

ان موجة الورع التى شـــاعت بين عامة النـــاس أثارت مشـــاكل خطيرة للكنيسة والمجتمع لأنه تمخض عنها وجود فيض من النقد ضد رجال الكنيسة · ولم يكن الأمر تحول رجال الكنيسة الى السلوك السىء وانما يرجع ذلك الى أن العلمانيين بدأوا يحكمون عليهم بمعايير أشد قسوة · وعـــبر الاستياء الشعبى بشأن العمل اليومى للكنيسة عن نفسه الى حـــد ما فى

الانخراط فى الأنظمة الديرية المتقشفة فى القرن الثانى عشر على وجه السرعة • ومع ذلك فان الغالبية العظمى من المسيحيين لم يستطيعوا أن يكونوا رهبانا ، وبالنسبة اليهم بدأت بعض المذاهب المسيحية الجديدة والمخالفة للمذهب الكاثوليكى تشكل مصدر اعجاب كبير لهم •

وازدهرت الطوائف المسيحية التى لا تؤمن بالمذهب الكاثوليكى فى المدن الناشئة فى جنوب أوربا بصفة خاصة • كما فاجأت الثورة المدنية فى القرن الحادى عشر الكنيسة دون استعداد فى حين كانت المدن الجديدة المراكز الحقيقية لحالة الورع التى انتشرت بسرعة بين العلمانيين • وبدت الكنيسة بجذورها فى النظام الاقطاعى القديم غير قادرة على تقديم العون لطبقة سكان المدن الجديدة النشطة والمتعلمة الى حد بعيد • وغالبا ماظهر أساقفة المدن كمستبدين سياسيين وأعداء لاستقلال سكان المدن المتمتعة بالحكم الذاتى أكثر من كونهم موجهين روحيين ملهمين • وغالبا مافشلت الكنيسة فى فهم مشاكل سكان المدن وطموحاتهم أو فى أنتتوقع شكهم المتزايد بخصوص ثروة الكنيسة وقوتها • وعلى الرغم من أن غالبية عظمى من سكان المدن فى العصور الوسطى ظلت على ولائها للكنيسة فان أقلية مثيرة للمتاعب وبصفة خاصة فى الجنوب انضمت الى الطوائف الدينية التى لا تؤمن بالمذهب الكاثوليكى• وفى شجبهم للثروة الكنسية فان تلك الطوائف لم تفعل أكثر مما فعله القديس برنارد والرهبان السسترشن • غير أن العديد من تلك الطوائف الدينية التى لا تؤمن بالمذهب الكاثوليكى تجاوزت الحد بين الاصلاح الأرثوذكسى والخروج على تعاليم الكنيسة الكاثوليكية • وذلك بممارستهم الوعظ دون الحصول على الموافقة الأسقفية أو البابوية ، وأكثر من ذلك أهمية أنهم أنكروا الحق المقصور على جماعة الكهنة بشأن ممارسة الأسرار المقدسة • وكانت الطائفة الولدوية احدى تلك الطوائف وهى التى أقامها تاجر من مدينة ليون lyons يدعى بطرس ولدو Peter Waldo الذى وزع ثرواته على الفقراء سنة ١١٧٣ م وسلك حياة الفقر الرسولى • وفى بداية الأمر عمل ورفاقه فى حدود التعاليم الأرثوذكسية • غير أن اسرافهم الشديد فى عدم رضاهم على رجال الاكليروس والذى نما تدريجيا وكذلك انكارهم للسلطات الخاصة بالقساوسة جلب عليهم لعنة الكنيسة • وظهرت مجموعات بعضها أرثوذكسية والبعض الآخر لا تؤمن بالمذهب الكاثوليكى فى الوحدات الادارية الصغيرة Communes باقليم لومباردى وعرفت باسم المتواضعون Humilati

بالطبع كانت تلك المجموعات مثيرة للمتاعب · غير أنفا فى العادة نجت من طائلة اللعنة طالما أنها لم تلجأ الى حد انكار سلطة الكنيسة · ومع ذلك انكرت طوائف كثيرة سلطة الكنيســـة ، ولذلك انتشرت الطوائف الدينية المسيحية التى لا تؤمن بالمذهب الكاثوليكى عبر شمال ايطاليا وجنوب فرنسا، بل وحتى فى أسبانيا ، وألمانيا فى القرن الثالث عشر ·

وأكثر المذاهب الدينية المسيحية التى لا تؤمن بالمذهب الكاثوليكى خطورة وشهرة فى جنوب فرنسا ذلك المذهب الذى عمل على نشره جماعة عرفت باسم الكاثارى Cathari (الأطهار) أو الالبجنسيين Albigensians نسبة الى مدينة البى Albi حيث كانوا أقوياء بشـــكل بارز · وقدم الالبجنسيون مزيجا من تعلمين (١) اعلان الاحتجاج على الدين بسبب ثروة الكنيسة وسلطتها · (٢) تقديم نظرية لاهوتية دخيلة مستمدة فى الأصل من الثنائية الفارسية · واعترف الالبجنسيون بالهين – اله الخير الذى يحكم عـــالم الروح واله الشر الذى يحـكم عـــالم المـادة · واله العهـد القـ يم Old Testament ، خـــالق العـــالم المادى كان فى نظرهم اله الشر · اما المسيح الذى كان فى اعتقادهم روحانيا بكل معنى الكلمة وله جسد غير حقيقى كان اله الخير عندهم · وركز مذهب الالبجنسيين على الرفض الشديد لكل الامور المادية – الشهوات الجسدية ، الثروة وزخرف الدنيا والزواج – على أمل الهروب فى يوم ما من سجن الجسد أو الصعود الى مملكة الروح الطاهرة · والواقع ان هذه المبادىء الأخلاقية مارستها الصفوة القليلة من الطائفة . أما الأتباع والمريدون فكانوا يأكلون مالذ وطاب ، وينجبون الأطفال، وكانت مشاركتهم فى رفض العالم المادى – عن طريق نقد حياة الرغد التى نعم بها رجال الكنيسة · والواقع أن خصـــومهم اتهموهم بأشنع ألوان الفسوق ، ولا يبدو صحيحا أن بعض أمراء بروفنســـال Provencal جذبتهم تلك التعاليم الجديدة بسبب ممتلكات الكنيسة التى استولت عليها ·

ومع ذلك انتشرت المبادىء الالبنجسية بسرعة عند بداية القرن الثالث عشر ، وشكلت تهديدا مخيفا لوحدة العالم المسيحى وسلطة الكنيسة · ولما أدرك البابا انوسنت الثالث Innocent III خطورة الموقف حاول بكل ما أوتى من قوة العمل على القضاء التام على الطائفة الالبنجسية · وأخيرا دعا هذا البابا الى حملة صليبية سنة ١٢٠٨ م ضد الالبجنسيين وهى

أول حملة صليبية ضد المسيحيين الأوربيين · وكانت تلك الحملة وحشية وشرسة ونجحت فى تحقيق هدفها الا أن ذلك كان على حســـاب تخريب الحضارة النابضة بالحيوية فى جنوب فرنسا · وكما عرفنا تدخلت الحكومة الملكية الفرنسية فى المراحل الأخيرة لتلك الحملة الصليبية · ونتج عن ذلك امتداد نفوذها حتى البحر المتوسط · وكانت تلك الحملة الصليبية حدثا مهما فى تطور السلطة الملكية الفرنسية ونجحت فى وقف الاتجاه نحو الطائفة الدينية التى لا تؤمن بالمذهب الكاثوليكى فى جنوب فرنسا · كما انها كانت نهاية لمرحلة القسوة التى مارستها الكنيسة عندما تعرضت للخطر ·

وفى السنوات التى تلت الحملة الصليبية ضد الالبجنسيين مبــاشرة ظهرت مؤسسة ظلت رمزا مثيرا للاشمئزاز ضد الكنيسة فى العصور الوسطى فى أسوأ أحوالها انها محكمة التفتيش Inquistion · ان اضطهـــان المسيحيين للطوائف التى لا تدين بالمذهب الكاثوليكى يعود الى أواخر القرن الرابع الميلادى الا أن الأفكار المخالفة للمذهب الكاثوليكى لم تشكل مشكلة خطيرة قبل العصور الوسطى العالية للمجتمع الأوربى وجرت العادة على أن مشكلة اخضاع الطوائف الدينية المسيحية التى لا تؤمن بالمذهب الكاثوليكى على الالتزام بالمذهب الكاثوليكى أو معاقبتهم كانت تتم على المستوى المحلى· غير أنه سنة ١٢٢٣ م اقامت البابوية محكمة مركزية دائمة بهدف وضع المعايير للاجراءات وزيادة الفعالية عند قمع الذين يدينون بمذاهب تخالف المذهب الكاثوليكى · واشتملت أساليب محـــاكم التفتيش على استعمال التعذيب والشهادة السرية والادانة وفقا لشهادة شاهدين فقط ، وعدم قبول المستشار القانونى لأقوال المتهم والأساليب الأخرى العدوانية بالنسبة للتراث القانونى الأنجلو - أمريكى ، وان كانت غير جديرة بالملاحظة وفقا لمعـــايير تلك الفترات · والواقع أن كثيرا من تلك الاساليب - بما فيها التعذيب - أخذت عن تقاليد القانون الرومانى · ودفاعا عن محكمة التفتيش فانه يمكن القول ان المدانين باعتناقهم مذاهب تخالف المذهب الكاثوليكى يمكن لهم النجاة من الموت اذا ما أعلنوا تخليهم عن الآثام » · وبعيدا عن اقامة عهد ارهاب يبدو أن محكمة التفتيش حظيت بتأييد شعبى ·

وقدم بعض المؤرخين أدلة أخرى فى محاولة للدفاع عن مؤسسة من المتعذر الدفاع عنها · دعنا نقول هنا ان الايمان المسيحى كان أكثر اهمية بكثير لشعب العصور الوسطى عن الولاء القومى · وان الكنيسة فى العصور

الوسطى بأنشطتها الخيرية المدروسة ومستشفياتها وجامعاتها وخدماتها ـ الاجتماعية الأخرى شكلت الكثير من أدوار الدولة الحديثة ، وأن المذهب المخالف للمذهب الكاثوليكى كان شبيها بتهمة الخيانة العظمى فى وقتنا هذا • وبالنسبة للمسيحى فى العصور الوسطى كان اعتناق مذهب مخالف للمذهب الكاثوليكى أمرا مدعما بالكراهية والبغضاء واهانة للمسيح ، ومصدرا لافساد أرواح الآخرين • وفى العصر الحاضر فان المذاهب السياسية والاقتصادية اكثر اهمية عند معظم الناس عن المعتقدات الدينية • والنظير الأقرب للمذهب الولدوى Waldensianism والمذهب الالبجنسى Albigensianism موجود فى أمريكا الحديثة فى الحزبين الشيوعى والنازى • وعند دراسة المعارضة الشعبية لتلك الجماعات المتطرفة ربما يمكن لنا الوصول الى معلومة عن الحالة الفكرية التى تمخض عنها وجود محكمة التفتيش فى العصور الوسطى •

الرهبنة التى تعيش على الصدقات :

قدم القرن الثالث عشر حلا للاتجاه الخاص بوجود طوائف لا تدين بالمذهب الكاثوليكى فى حالة الورع بالمدن والتى كانت أكثر رحمة وتأثيرا من محكمة التفتيش • وفى بداية العقود الأولى من هذا القرن ظهرت منظمتان جديدتان بشكل أساسى ـ الدومينيكان Dominican والفرنسيسكان Franciscan ـ اللتان وهبتا حياتهما للفقر والتبشير والاعمال الخيرية • ونظرا لرفضهم حياة الأديرة لذلك نذروا أنفسهم للعمل الدينى فى العالم وبصفة خاصة فى المدن • وفى العادة أخذ الرهبان البندكتيون السسترشن عهدا على أنفسهم بأن يعيشوا فى حالة فقر شخصى الا أن تلك المنظمات الديرية استطاعت جمع ثروات هائلة مشتركة • وعلى العكس من ذلك أخذ الدومينيكان والفرنسيسكان عهودا على أنفسهم بأن يكونوا فقراء شخصيا وجماعيا ولذلك عرفوا باسم الرهبان الذين يعيشون على الصدقات Mendicats • وبعد أن فازوا باعجاب العالم المسيحى فىالقرن الثالث عشر نجحوا فى افراغ المذاهب الخارجة على المذهب الكاثوليكى بالمدن من كثير من وسائل دعمها عن طريق اقامة الأدلة لسكان المدن الأوربية ، ان الأرثوذكسية المسيحية يمكن أن تكون مناسبة وأن تفرض بالقوة •

والقديس دومينيك St. Dominic (١١٧٠ - ١٢٢١ م) أحد ابنـاء اسبانيا قام بالوعظ فى جنوب فرنسا ضد طائفة الالبنجسيين وآمن بوجـود اخوة رهبان مدربين كرجال لاهوت ووعاظ ويندروا أنفسهم للفقر والحياة البسيطة ومحاولة استمالة الطوائف الدينية التى لا تؤمن بالمذهب الكاثوليكى عن طريق تقديم الحجج والبراهين والخطابة والقدوة • ونظرا لحصـول جماعة الدومينيكان على موافقة البابوية سنة ١٢١٦ م فانهم اجتازوا مرحلة التوسع والازدياد ، وبمرور نصف قرن انتشروا فى كل أنحـاء العـالم المسيحى : وقدمت الجماعة أعظم الفلاسفة ورجـال اللاهوت فى عصرهم ومن بينهم القديس توماس الاكوينى • وشارك الدومينيكان أيضا بنشاط فى ديوان التفتيش بيد أن أكثر أعمالهم فعالية كانت عن طريق الاقناع أكثر من استعمال العنف • وبمرور الوقت سقط المبدأ المثالى الخاص بالفقر المشترك لانه أصبح من المسلم به أن العلمـاء والمدرسين الذين يعملون طول الوقت لا يمكن لهم أن يستجدوا الصدقات ، أو أن يقوموا بأعمال شاذة ، أو أن يظلوا فى شك بشأن المصدر الذى يقدم لهم وجبات الطعام التالية • غير أنه بعد أن تطورت مفاهيم العيش على الصـدقات بقى الدومينيكان أوفيـاء لرسالتهم الخاصة بالدفاع عن الأرثوذكسية بالكلمة المسموعة والمقروءة •

فاقت انجازات القديس فرنسيس St. Francis (حوالى ١١٨٢ - ١٢٢٦ م) معاصره القديس دومنيكان • وكان فرنسيس رجلا مفعما المحبة ومثيرا للاعجاب ويعتبر من أشهر القديسين فى المسيحية • كان فرنسيس نتجا واقعيا لثورة المدن • وكان ابنا لتاجر أقمشة ثرى فى مدينة أسـيزى Assisi فى شمال ايطاليا • وهى مدينة كان بها أقلية من الطـائفة الالبجنسية التى كانت لها نفوذا مؤثرا • وبعد أن قضى فرنسيس مرحلة المراهقة التى اتسمت بالمرح والصخب تحول الى الايمان العميق بالمسيحية ، وعاش فى عزلة لفترة وجيزة ثم عاد الى المجتمع البشرى بتصميم شديد على أن يتخلى عن كل الخيرات الدنيوية وأن يهب حيـاته لخـدمة الفقـراء والمرضى • وكان فرنسيس حـازما الا أنه لم يكن متجهما • والواقع أن احساسه بالبهجة الذى لم يقل عن ورعه الشديد هو الذى جعله يفتن عصره • ولما تزايدت أعداد التابعين له كتب نظاما ديريا مبسرا لهم مبنيا على مبادىء الأنشطة الخيرية فى العالم والتفانى الكامل للعمل من أجل الله والرفض الكلى لكل الزخرف الدنيوى • وفى سنة ١٢١٠ م طلب من البابا انوسنت

الثالث الموافقة على نظامه الديرى ووافق البابا على هذا النظام الديرى بعد أن أبدى بعض الشكوك • وفى السنة التـــالية انتشر النظام الديرى الفرنسيسكان بسرعة كبيرة • ولاشك أن شخصية فرنسيس الجذابة بشكل يفوق العادة كانت عاملا حاسما فى شعبية نظامه الديرى بيد أنه مدين كثيرا أيضا للحقيقة القائلة بأن مثله العليا ترجع الى طموحات العصر الدينية العليا الى حد كبير • وفقدت الطوائف الدينية المخالفة للمذهب الكاثوليكى وسائل اغرائها فى المدن بعد أن بدأ الرهبان الفرنسيسكان المخلصـــون يتدفقون على مدن أوربا ويقدمون المواعظ فى الشوارع المزدحمة ويقيمون المثال الحى للورع المسيحى •

واذا كان المتدينون قد هجروا العالم فى الأزمنة الأخرى الا أن هجرة الالبجنسيين كانت مثالا للشر • غير أن القديس فرنسيس أقبل على العـــالم بسرور وابتهاج باعتباره من صنع الله • وعبر عن ذلك شعرا فى أغنية عن « أخانا الشمس » Song of Borther Sun حيث عـــبر عن نظرته المقدسة الى الكون :

المجد لك يا الهى خالق كل شىء
فأخانا الشمس أعظم المخلوقات
فمنه النهـــار والضـــوء
ومنه الجمال والاشعة والسعادة الكبرى
ووجوده دليل على وجودك فى الاعـــالى

المجد لك يا الهى خالق أختنا القمر والنجوم
جعلن السماء نورا متألفـــا جميـــلا

المجد لك يا الهى مسير الرياح
ومسخر الهواء والسحاب ومبدل الأحوال
وعليها كانت حيـــاة كل المخلوقات

المجد لك يا الهى خالق أختنا الماء
فهى فى غاية النفع والتواضع والصفاء

المجد لك يا الهى خالق أخانا النار
فهو الذى أضـــــاء الليـــــل
وهو الأشقر والمبتهج والمروع والشديد

المجد لك يا الهى خالق أمنا الأرض
فهى التى تمدنا بأسباب الحياة ونمشى فى مناكبها
وتنبت لنا الفواكه المختلفة والنبـاتات والازهار اليانعة
المجد لك يا الهى بارك لنا فى الأرض
واجعلهـــا طوعـــا لنـــــا

وكانت المبادىء الفرنسيسكانية Franciseanism على درجـــة عالية من المثالية الى حد يصعب استمراريتها · وعندما انتشر هذا النظام الديرى عمل على التخلص من مفاهيمه الأولى بل أنه قبل موت فرنسيس ١٢٢٦ م كانت البابوية مضطرة الى اجازة دستور متطور وعملى لهذا النظام الديرى · وبمرور الوقت بدأ الأخوة الفرنسيسكان يتذرون أنفسهم للعـلم وأخذوا أماكنهم جنبا الى جنب مع الرهبان الدومنيكان فى جامعات أوربا · والواقع أن العلماء الفرنسيسكان مثل روجر بيكـون Roger Becon . فى انجلترا فى القرن الثالث عشر لعبوا دورا رئيسيا فى نهضة البحث العلمى · وكذلك القديس بونفينتر St. Bonventure الرئيس العـــام لمنظمة الفرنسيسكان فى أواخر القرن الثالث عشر ، والذى كان أشهر علماء عصره فى علم اللاهـــوت · وان علو شأن منظمة الفرنسيسكان ومظهرها العام وضعها فى موقف المضطرة الى معالجة مسألة مثلها الأعلى الأصلى فيما يتعلق بالفقر المشترك · وعلى الرغم من أن تلك المنظمة لم تمتلك أو سعت الى امتلاك ثروات مثل البندكتيين أو السسترشن فانها سرعان ما امتلكت الوسائل الكافية لمد أعضائها بأسباب الحياة · ولذلك فبمرور الوقت انتهج الفرنسيسكان أسلوب حياة المنظمات الديرية الباكرة كما تعرضت بساطتهم الاولى وحماسهم الدينى الى شىء من التراخى والتراجع نتيجـة لشعبيتهم ونجـــاحهم · وحاولت جمـــاعة صغيرة منشقة عرفت باسم « الروحانيون الفرنسيسكان » Spiritual Franciscans المحـــافظة على الفقر الرسولى ومثالية فرنسيس نفسه الخالية من كل تكلف بيد أن الغالبية العظمى من الفرنسيسكان كانوا راغبين فى التلاقى مع الواقع فى

منتصف الطريق · واستمروا فى خدمة المجتمع غير أنهم توقفوا عن الهاب مشاعره عن طريق الوعظ الدينى وذلك عند نهاية القرن الثالث عشر ·

ان نمط الاصلاح الدينى فى العصور الوسطى العالية هو آحد مظاهر المد والجزر المتواترة · وبدأت حركة الاصلاح بحماس شديد وغاية نبيلة ونجحت فى اثارة وتنبيه المجتمع لفترة من الوقت ثم خضعت الحركة رويدا رويدا الى الرضا الذاتى · » واقسحت المجال الى موجة من الاصلاح مختلفة وجديدة · غير أنه عند نهاية العصور الوسطى العالية يستطيع المرء أن يكتشف ضعف تدريجى للنشاط الروحى وحتى ظهور الاصلاح البروتستانتى فى القرن السادس عشر لم تحرز أى منظمة دينية جـديدة ماحققته منظمة الفرنسيسكان فى القرن الثالث عشر من شعبية ضخمة وتأثير اجتماعى · وظل الورع الشعبى قويا وبصفة خاصة فىشمال أوربا فىحين شهدت القرون التالية حركن تصوف مهمة · على أنه بدأ اتجاه أكثر علمانية فى الظهور ببطء · ولم يعد الشباب يندفعون أفواجا للانخراط فى النظم الديرية وكذلك لم يعد الجنود يسارعون فى الانضمام الى الحملات الصليبية · وكانت الاثارة القوية التى أحدثها القديس برنارد St. Bernard والقديس دومينيـــه St. Domonic والقـديس فرنسيس St. Francis ظاهـــرة فريدة لعصرهم وانتهى عصرهم بحلول القرن الرابع عشر ·



الجدول الكرونولوجى للحياة الرهبانية والخروج على الارثوذكسية :

٩١٠	انشاء دير كلونى
١٠٨٤	انشاء النظام الديرى الكارثوسى
١٠٩٨	انشاء كيتـــو
١١١٢ ـ ١١٥٣	حياة القديس برنارد من كليرفو كأحد رهبـــان السســـترشن ٠
١١٢٨	النظام الأصلى للفرسان الداوية
١١٧٣	بداية الطائفة الولدوية
١٢٠٨	انوسنت الثـــالث يدعـــو لحملة صـــليبية ضد الالبجنســـيين
١٢١٦	البـــابا انوسنت الثـــالث يرخص باستمرار النظام الديرى الفرنسيســكانى
١٢١٦	البابوية تبارك النظام الديرى الدوسينيكانى
١٢٢٦	موت القديس فرنسيس ٠
١٢٢٣	اقامة محكمة التفتيش

١٥ - الفكر والآداب والفنون :

القوى المحركة لثقافة العصور الوسطى العالمية :

وصفت مدينة باريس فى القرن الثالث عشر على أنها مدينة أثينا فى أوربا العصور الوسطى • وأنه لأمر حقيقى بالطبع أن بونا شاسعا يفصل مابين العصر الذهبى لأثينا البيريكلية Periclean Athens (بيركليس هو السياسى الاغريقى حوالى ٤٩٠ - ٤٢٩ ق٠م) والعصر الذهبى فى فرنسا فى القرن الثالث عشر • ونمت كلتا الثقافتان فى اطار المعتقدات التقليدية والعادات الراسخة وان كانتا قد تعرضنا الى التحدى والتحول على يد عدة قوى جديدة • وان عالم العصور الوسطى الباكرة الدينى والاجتماعى كمثل عالم دولة المدينة اليونانية الباكرة الدينى والاجتماعى كان محدودا وملتزما بالتقاليد نوعا ما • وابان وصول الثقافتين الى عصرهما الذهبى تعرضت قيم الماضى للتحدى بفعل الاتجاهات الفكرية الجديدة كما ان الأنماط الاقتصادية القديمة انهارت أمام النشاط التجارى الذى تزايد فى حدته • وعلاوة على ذلك فلفترة من الوقت أدت تلك القوى الجديدة المتميزة والمستمرة ، الى التعبير عن القيم الثقافية القديمة بوضوح بارز • فالبارثنون Parathenon المخصص لالهة أثينا المحلية الموقرة وكذلك الكاتدرائية القوطية الموقعة فى النفس روعا لسيدتنا Notre-Dame كلاهما نتاجا لابداع جديد تم استخدامه لخدمة أيديولوجية أكثر تقدما • وفى خاتمة المطاف اثبتت الدوافع الخلاقة الجديدة مقدرتها على القضاء على الايديولوجيات القديمة ، بيد أنه لفترة من الوقت حققت كل من بلاد اليونان القديمة واوربا فى العصور الوسطى توازنا بين القديم والجديد وفى كلتا الحالتين كانت النتائج مثيرة للاعجاب •

وعلى العموم نجحت أوربا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر فى ان تظل ثقافتها نابضة بالحياة والاقدام فى نطاق المسيحية الكاثوليكية التقليدية • كما ان فكرة العالم المسيحى أعطت النمط والاتجاهات للمقدرة الابداعية الجديدة وبرغم القوى المحركة النشطة والقوية فى تلك الفترة فانه يمكن القول بشىء من الصحة أنه عصر الايمان •

تعرضت أوربا فى العصور الوسطى العالية لصحوة فكرية وفنية أثرت على كل أساليب التعبير الخيالية تقريبا • وظهرت أعمال خلاقة مهمة فى الانتاج الأدبى وفن العمارة والنحت والقانون والفلسفة والنظرية السياسية بل وحتى فى العلوم • وعند نهاية هذه الفترة التاريخية كانت أسس التراث الثقافى الغربى قد رسخت بثبات • وستقدم لنا الصفحات التالية لمحة فقط عن بعض الانجازات الثقافية الرائعة فى هذه الفترة التاريخية •

الانتـــاج الأدبى :

كان الانتاج الأدبى فى العصور الوسطى العالية وافرا ومتنوعـــا بغزارة • اذ كان الشعر مكتوبا باللغة اللاتينية التقليدية ـ اللغة العالمية للطبقة المثقفة فى العصور الوسطى ـ وكذلك باللغـــات المحلية للفجـات العادية التى ظهرت منذ عهد بعيد فى الأقاليم المختلفة من العالم المسيحى • ووجد الورع المسيحى التقليدى تعبيرا فى سلسلة من الترانيم المهيبة والباعثة على الغم ، والتى ظهرت حالتها المزاجية فى تلك المقتطفات من « أورشليم الذهبيـــــة Jerusalem The Golden :

ان العالم به الكثير من الفســاد
وعصرنا فى تزايد فى العنـــاد
كن متزنا ومداوما للصـــلاة
فملك الموت لا مفـــر من لقـــاه
وحياتنا القصيرة لا تخلو من الآلام وقلة الاهتمام
أما الحياة الأبدية فليست بها أحزان
أورشليم المبتهجة التى حلت عليها البركة
القلب يهيم بحبك واللسان ينعقد عن الكلام
انى لا أعرف مدى السعادة هنـــاك
فيالها من سعادة سماوية متألقـــة
وياله من نور روحى يفوق الوصف

وعلى الطرف الآخر لألوان طيف Spectrum الانتـــاج الأدبى اللاتينى فى العصور الوسطى يجد المرء شعرا من نوع مختلف تماما •

نظمه دارسون مترحلون فى سن الصبى ورجال لم ينتهوا بعد من دراستهم التعليمية • وان الظهور المتعمد للانغماس فى الشهوات وعدم احترام المقدسات فى أشعارهم ، انما هو تعبير عن ثورة الدارسين على الأفكار القائمة على التقشف التى نادى بها كبار رجال الكنيسة :

عندما يحين موعن الصلاة يناديني قلبى بتوق شديد
دعنى أظل فى الحانة الى أن أموت واناء الخمر بجوارى
فى حين تنظر الملائكة الى من فوقى وتغنى بابتهاج •• الخ

وكانت واحدة من تلك القصائد للعلماء المترحلين تطاولا وقحا ومتعمدا ضد قانون الايمان المسيحى • فبالنسبة للعبارة من هذا القانون والقائلة :

« أومن بالروح القدس والكنيسة الكاثوليكية المقدسة ••• » تم تحويرها على النحو التالى :

أومن بالخمر المناسبة لى
وأومن بحـــانة مضيفى
أكثر من ايمانى بالروح القدس
فالحانة هى محبوبتى
أما الكنيسة فليست لى

تلك المشـاعر الوجدانية يجب الا ينظر اليهـا على أنهـا تدل على الاتجاه الكاسح نحو مذهب اللاأدريين (الذين يؤمنون بالماديات فحسب) agnasticism • اذ لاريب أنهـا أساليب للتعبير مميزة للعصور الوسطى تتعلق بحركة التطرف radicalism للدارســين غير الملتزمين والتى شهدتها كل العصور •

وبرغم أصالة الشعر اللاتينى فى العصور الوسطى العالية فان الشعر المكتوب لغة الاقاليم المحلية فاقه فى الكم والنـوع فى أســاليب التعبير • كما أن النزعة تجاه النظر للأشياء عاطفيا والتى لاحظناها فى حالة الورع فى العصور الوسطى كانت متوازية تماما مع تطور الانتاج الأدبى الخاص

بكل اقليم على حدة منذ ظهور الملاحم التى تتحدث عن الشجاعة فى القرن الحادى عشر الى القصص الشعرية المرهفة الرقيقة للمشاعر فى القرن الثالث عشر · ولتأثر الروح القتالية فى شمال فرنسا بالحركة الرومانتيكية التى تميل الى الورقة بعض الشىء والممتعة عقليا والمتعلقة بالتراث التروبدورى Troubodour Tradition (وهو تراث الشعراء الغنائيين الذين اشتهروا فى جنوبى وشمالى ايطاليا فى القرن الحادى عشر الى القرن الثالث عشر) لذلك فان هذه الروح خبت رويدا رويدا ·

وفى القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثـــانى عشر كانت الملاحم البطولية المعروفة باسم أغانى الأعمال العظيمة Chansons de Geste شائعة بين طبقة النبلاء الاقطاعيين الشعبيين الى حد كبير فى شمال فرنسا · وكان العديد من تلك الأغانى سجلات من الأحداث مبالغ فيها حول عصر شارلمان · وأكثر هذه الأعمال العظيمة أغنية رولان Roland التى تحـكى قصة المعركة الدامية والبطولية بين جمـــاعة من المسلمين ومؤخرة جيش شارلمان اثنـــاء انسحابها من أسبانيا · وعلى مثال الطراز الغمبى العتيق فان أغانى الأعمال العظيمة كانت مفعمة بالأثر الأدبى ومال أبطالها الى تجنب الارتباطات العاطفية بالسيدات· فالبسالة الحربية، والشجاعة ، والولاء للسيد الاقطاعى ، ورفقاء القتال كل ذلك كانت فضائل تم التركيز عليها فى تلك الملاحم البطولية · وتميز وصف تفصيلات المعركة بخصائص الواقعية المثـــيرة :

وشاهد أمعاءه تتدلى من جانبه
ومخه ظاهر بوضوح للعيان على حاجبه

وباختصار فان أغـــانى الأعمال العظيمة كانت مرآة لروح الفروسية الاقطاعية للقرن الحادى عشر التى اتسمت بالقسوة والتركيز على أعمـــال الرجـــال ·

وفى خلال منتصف وأواخر القرن الثانى عشر تغيرت الروح الحربية فى الانتاج الأوربى بشمال فرنسا رويدا رويدا نتيجة لتدفق التراث الرومانسى للشعراء الموسيقيين بجنوب فرنسا ، بروفنس ، وتولوى ، وأكويتين · وثمة

ثقافة قوية ونابضة بالحياة والحيوية كانت فى طريقها الى الانتشار التدريجى فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر · ومن هذا المجتمع المفعم بالحيوية خرج الشعر الغنائى الذى تميز برقة المشاعر على نحو رائع وأهمية كبرى · وعرف الشعراء الغنـــائيون باسم الشعراء الموسيقيين trabadours . وعمل معظم هؤلاء الشعراء فى البلاط الملكى أما البعض الباقى فكانوا ضمن طبقة النبلاء العليا بما فيهم دوق أكوتين نفسه · وكانت قصائدهم متعلقة بأقرب الأصدقاء ولها طابع شخصى وتضمنت اهتماما كبيرا بالحب الرومانسى أكثر بكثير عما وجـــد فى أغـــانى الأعمـــال العظيمة · واتجهت الرقة والرومانتيكية عند الشعراء الموسيقيين الى الدماثة والشهامة أكثر مما كان موجودا فى الشمال الاقطاعى · وهذه الشهامة فضلت أغانى الغـــرام على أغانى الحرب · والواقع أن جنوب فرنسا فى العصور الوسطى كان مصدرا لكل تراث الحب الرومانتيكى للحضـــارة الغربية بكل مثـــالية عن النساء ، وتركيزه على كياسة الذكور ، ومجاملتهم للاناث ، والاصرار على اضـــفاء الزخرف على الدافع الجنسى ، يذكر قصص القلوب المتيمة بالحب ، والاكاذيب العاطفية التى تبعث على البهجة ·

وفى منتصف القرن الثانى عشر انتقل التراث الغرامى اللطيف شمالا الى بلاط شامبين Champagne وبدأ ينتشر على وجه السرعة · ونظرا لتزايد تأثير هذا التراث الغرامى اللطيف اكتشف الفرسان أن هناك ماهو أكثر توقعا منهم من مجرد حياة الولاء للرجال وممارسة القتل دون أدنى حذر · وأصبح متوقعا أن يكون هناك رجال مهذبين أيضا — وأن يكونوا لطفاء فى سلوكهم ويتحدثون كما يتحدث سكان المدن ، وأن يكون لهم بعض السيدات النبيلات وينعمن بولع الرجـــال بهن · تلك كانت مفاهيم الحب اللطيف · وكان تأثير تلك المفاهيم على السلوك الفـــردى محدودا بشكل واضح · بيد أن أثرها على الانتاج الأدبى فى شمال أوربا كان جذريا · وتمخض التقاء الملحمة العامية بالقصائد الغنائية باللهجات المحلية عن ظهور نمط شعرى جديد عرف باسم القصـــة الشعرية The romance وعلى مثال أغانى الأعمال العظيمة Chansons de geste كانت القصة الشعرية قصيدة سردية طويلة بيد أنها كانت عاطفية وخيالية الى حد بعيد على مثال الشعر الغنائى فى جنوب أوربا · وكانت فى العادة مبنية على موضوع مهم من الماضى البعيد مثل الحرب الروادية ، والاسكندر الاكبر وقبل

كل شيء الملك آرثر Arthur وهو الملك البريطانى الشبه أسطورى فى القرن السادس الميلادى • وكان الملك آرثر قد تحول الى ملك مثالى فى القرن الثانى عشر محاطا بالسيدات الفاتنـات والفرسـان المتسمون بالشرف والكياسة • وكان بلاطه الملكى مركزا للحب الرومانسى ورقة المشاعر الدينية المهذبة حيث أبدى الفرسان اعجابا ممزوجا بالاحترام لسيداتهم أى ذهبوا الكبير كريتين من تروى Holy Grail وفقا لوصف الشـاعر الفرنسى بحثا عن الكأس المقدسـة Chertien de Troyes • وازدهرت القصة الشعرية فى فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وبين طبقـة النبلاء فى انجلترا الذين يتحدثون اللغة الفرنسية • وكانت القصة الشعرية عنصرا حاسما فى نمو الانتاج الأدبى باللغة الألمانية • وتأثر الشعراء الألمان ـ والذين عرفوا باسم Minnesingers ـ بالشعر الغنائى الفرنسى . والقصة الشعرية بيد أنهم طوروا تلك الأنماط الأدبية وفقا للخطوط الأصلية • وقدم هؤلاء الشعراء الألمان رواياتهم الرمزية والتى كانت بالغة الرقة عن القصص الأرثرية Arthurian stories والتى فاقت فى رمزيتهـا المثيرة للخيال وعمق عواطفها أعمال كريتين من تروى ومعاصريه الفرنسيين •

وظهر الشعر باللغة المحلية بعد ذلك فى ايطاليا غير أنه فى أعمال دانتى Dante (ت ١٣٢١ م) وصل هذا الشعر الى أروع أساليب التعبير فالكوميديا الالهية لدانتى Dante's divine Comedy كتبت باللغـة الايطالية المنطوق بها فى توسكانيا Tuscan veracular ، انمـا هى مزيج رائع للانتاج الادبى والفكرى فى العصور الوسطى • وهى غنية بأساليب الاستعارة والرمزية وتحكى عن رحلة دانتى نفسه فىجهنم والمطهر والفردوس الى المثول أمام الذات العلية • وسمحت هذه الصورة البلاغية لدناتى أن يقدم انتقادات مدمرة للتاريخ السابق على عهده ، والمعاصر له ، وذلك بوضعه كل من لا يوافق على آرائهم ـ بدءا من السياسيين المحليين الى البابوات ـ فى درجات من جهنم • وكان الشاعر فيرجيل Virgil النموذج الأصلى للذهب العقلى مرشدا لدانتى عبر جهنم والمطهر • وأرشدته السيدة بتيريك Beatrice رمز الحب العذمى عبر المناطق السامية للفردوس • كما قاده القديس برنارد Bernard نموذج الطهارة فى العصور الوسطى الى حضرة الذات العلية • وفى الكوميديا الالهية أحاط دانتى بالعالم بأكمله لانسان

العصور الوسطى فى عمل ادبى واحد ، أمكن بواسطته الوصول بالانتاج الأدبى للعصور الوسطى الى صورة بلاغية متألقة ٠

فن العمارة ـ من أوائل القرون الوسطى الى فن العمارة القوطى :

ان العصور الوسطى العالية من أشهر الفترات فى تاريخ فن العمارة الغربى ٠ اذ تم اقامة أعداد هائلة من الكنائس الكبيرة والصغيرة باستخدام الأحجار : فى فرنسا وحدها زادت كمية الأحجار التى استخدمت فى العصور الوسطى العالية عن التى استخدمها بناة مصر القديمة فى بنـــاء الأهرام والمعابد على امتداد تاريخها الذى امتد ثلاثة آلاف عام ٠ غير أن الانجاز الحقيقى للمهندسين المعماريين فى العصور لم يكمن فى المجـــال الضخم لأنشطتهم وانما فى الابداع الرائع لرؤيتهم الجمالية ٠ وسيطر على العصر نمطان معماريان الطراز المعمـــارى الذى راج فى أوائل العصور الوسطى Romanesque Style والذى تطور فى القرن الحادى عشر ووصل الى حد النضج فى أوائل القرن الثانى عشر وخلال النصف الثانى من القـرن الثانى عشر تراجع رويدا رويدا أمام الطراز القوطى ٠ وفى الفترة مابين ١١٥٠ م الى ١٣٠٠ م تم بنـــاء أشهر الكاتدرائيات القوطية فى العصور الوسطى ٠ ومنذ ذلك الحين فصاعدا فقد النمط القوطى بعضا من قدرته على الابداع وذلك لأنه أصبح أكثر تعقيدا وافتقر الى الذوق الى حد بعيد ، بيد أن النمط القوطى شكل أحد التجارب المعمارية الناجحة والأكثر جرأة وذلك خلال العصور الوسطى العالية ٠

ويتاثر فن العمارة فى العصور الوسطى تاثرا شديدا باتجاهين ثقافيين أساسيين فى ذلك العصر ٠ فأولا كانت الكاتدرائيات الكبرى نتاجا للثورة المدنية وظهور الورع الشديد بالمدن ٠

ثانيا : جرى التطور من فن المعمار فى القرون الأولى من العصور الوسطى الى الفن القوطى على خط موازٍ للتحول الذى لاحظناه من قبل فى الانتاج الأدبى والورع تجاه رقة المشاعر العاطفية والطابع الفردى والبطولى والخيـــالى Romanticism ٠ وعلى الرغم من تميز طراز فن العمارة الذى راج فى أوائل القرون الوسطى بالتنوع الشديد فى أسلوب التعبير فانه

اتجه بصفة عامة الى الوفار الذى كان طابعا لحالة الورع المسيحى الباكر ، وكذلك التركيز الدائم على عنصر الرجولة الموجود فى أغانى الأمال العظيمة Chansons de geste . ومن ناحية أخرى كان فن العمارة القوطى مفعما بالاثارة والتـــأثير فى النفس بل أنه مال الى عنصر الانوثة بعض الشيء (فلقد تم تخصيص عدد كبير من الكاتدرائيات القوطية لسيدتنا (Notre Dame .

ان التحول من طراز فن العمارة الذى راج فى أوائل القرون الوسطى الى الرراز القوطى يمكن أن يفهم أيضا على أنه تقــدم فى القــواعد العامة للهندسة المعمارية . اذ كانت القنطرة المستديرة احــدى المقومات المعمــامية الرئيسية فى طراز الكنائس التى بنيت فى أوائل القرون الوسطى . وكان تصميم السقف قائما على اضافات متعددة القناطر المستديرة مثل العقــد الاسطوانى والعقد المتقاطع وذلك من طراز فن العمارة الذى راج فى أوائل القرون الوسطى . واحتاجت تلك السقوف الحجرية الثقيلة الى جــــدران سميكة لحملهــا وبهــا نوافذ التى كانت بالضرورة قليلة وصغيرة . ونقلت الكنيسة المقامة وفقا للطراز المعمارى الذى راج فى أوائل القرون الوسطى شعورا قويا الوحدة والصلابة الراسخة . ففنــاطرها الضخمة وعقودهــا وجدرانها والجزء الداخلى المظلل والمعتم ، كل ذلك أعطى صورة خادعة للبصر بلالال الاسرار النصرانية والايمان بعالم الغيب . ورغم ذلك فقد أشار فى الوقت نفسه الى القوة الراسخة للكنيسة العالية .

وفى منتصف القرن الثانى عشر صار الأب سوجر Abbot Suger المستشار الرئيسى للتاج الفرنسى رائدا للنمط القوطى الجديد بادخاله عناصر جديدة رائعة فى بناء الكنيسة ديره فى ســـانت دينيس St. Denis وكانت القناطر المستدقة الرأس والأكتاف التى يدعم بها الجدران هى الملامح الرئيسية للنمط القوطى الذى انتشر فى ذلك الحين بسرعة الى خــــارج جزيرة فرنســا Île de France . وأفضت تلك الوسائل ووسائل معمارية متصلة بها الى تجربة فنية جديدة . وسمحت القناطر المستدقة الرأس لسقف الكاتدرائية أن يزداد فى الارتفاع . وفى ذلك الحين فقدت الكنائس خاصيتها الأرضية وبدأت تصل عنان السماء . وبأبسط التعابير فان القنطرة المستديرة فى الطراز المعمارى الذى راج فى أوائل العصور الوسطى أفضى الى بنــاء

تصميم أفقى بصفة أساسية فى حين أن القنطرة المستدقة الرأس فى الطراز القوطى أفضت الى التصميمات العمودية ٠ ومن وجهة النظر الجمالية أوجد هذا التحول فى الاتجاه اختلافا هائلا ٠

وكانت الأكتاف التى تدعم الجدار وسائلا لتخفيف العبء عن حوائط الكنيسة الناتج عن قوة دفع السقف الى الخارج والى أسفل ٠ وباستخدام تلك الأكتاف فانها جعلت الجدران من الناحية المعمارية غير ضرورية وسمحت للمهندسين بتصميم النوافذ الضخمة التى ملئت فى العادة بالزجاج الملون اللامع الذى غمر الجزء الداخلى من الكنيسة القوطية بالضوء واللون ٠ ولقد تم تزيين الجزء الخارجى من الكنيسة القوطية بالصور المنحوتة للنباتات والحيوانات والقديسين ورجال الدولة ٠ وغالبا ماحاول فن النحت القوطى أن يحكى قصة عن طريق المناظر والاحداث المستمدة من الكتاب المقدس أو من حياة القديسين ٠ وكان يتم هذا أحيانا بشكل صريح ، وأحيانا أخرى عن طريق الرمزية الدينية ٠ وأحيانا لم يكن هناك رغبة عند النحاتين سوى تصوير مجموعة مختلفة عن العالم الطبيعى بالأحجار ٠ وفى كثير من الأحوال نجح النحاتون فى تصوير النباتات والحيوانات والانسان بدرجة من الواقعية جديرة بالملاحظة ٠

وكانت الكاتدرائية عملا فنيا موحدا وعمليا الى حد بعيد ٠ وأن ارتفاع صورتها الظلية التى أطلت بها على المدينة التى تقع بها ، فضلا عن جدرانها الداخلية الشامخة والمملوءة بالزخارف خلفت انطباعا مثيرا فى نفوس العابدين فى العصور الوسطى ظهر فى احساسهم بالورع والجلال ٠ وبعد مرور سبعة قرون من الجذب الروحى والنفسى فمازالت تحتفظ بسحرها وجمـــالها ٠

ظهور الجامعات :

وعلى مثال الكاتدرائية القوطية كانت الجامعات نتـــاجا للمدنية فى العصور الوسطى ٠ وتسببت ثورة المدن فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر فى تدهور المدارس الديرية القديمة التى فعلت الكثير من أجل الثقــافة عبر القرون السابقة ٠ وفى شمال جبال الألب حلت مدارس الكاتدرائية محل المدارس الديرية ، وفى ايطاليا حلت المدارس المحلية شبه العلمانية محـل

المدارس الديرية . وظلت كل من مدارس الكاتدرائيات والمدارس المحلية قائمة لفترة طويلة من الوقت بيد أنهما لم يحتلا درجة كبيرة من الشهرة الا فى القرن الحادى عشر . وصارت كثير من تلك المدارس مراكزا للتعليم العالى من نوع لم تكن تعرفه أوربا منذ عدة قرون . وازدادت تنظيمات تلك الجامعات باضطراد ونمت كلياتها حتى تطور بعضها الى جامعات فى القرن الثانى عشر .

وفى العصور الوسطى كان تعبير جامعة غير واضح الى أبعد حد . وكانت كلمة جامعة تعنى جماعة من الأشخاص ارتبطوا معا من أجل اى هدف . فالكلمة كانت تطلق عادة على نقابات التجار والحرفيين فى المدن النامية . فالنقابة أو الجامعة من الدارسين والعلماء الذين يشاركون فى مواصلة الدراسة العليا أطلق عليهم اسما أكثر دقة وهو الدراسة العامة Studuim générale . ولذلك عندما نتحدث عن جامعة العصور الوسطى فاننا نشير الى مؤسسة كان يطلق عليها انسان القرن الثالث عشر الدراسة العامة . انها تختلف عن المدارس الأقل فى ثلاث نواحى مهمة : (١) كانت الدراسة العامة مباحة للدارسين من كثير من البلاد وليست قاصرة على الذين يأتون من المناطق المحيطة بها . (٢) وكانت الدراسة العامة مدرسة كبيرة بها عدد من المدرسين وليس مجرد معلم واحد على قدر عال من المعرفة . (٣) وقدمت الدراسة العامة مناهج دراسية ابتدائية وعالية كما قدمت برنامجا أساسيا لتعليم « الفنون العقلية السبعة » التقليدية : علم الفلك ، علم الحساب ، الموسيقى ، علم النحو والصرف ، علم البلاغة ، وعلم المنطق ، وكذلك أيضا التعليم فى الفروع « الأعلى » الدراسات اللاهوتية والقانون ، والطب . وعند اتمام دراسة منهج الفنون السبعة العقلية بنجاح يستطيع الدارس أن يتقدم بطلب للحصول على اجازة رسمية لمزاولة التدريس . بيد أنه فى امكانه أيضا أن يستمر فى دراساته اذا مارغب للتخصص فى الطب ، واللاهوت ، أو الأكثر شيوعا - القانون الكنسى أو المدنى . وقدمت الثقافة القانونية مكافاتها بالعمل الادارى المربح فى الحكومة الملكية أو الكنسية .

وبصفة أساسية لم تكن الجامعة فى العصور الوسطى حرما جامعيا أو عدة مبانى ، وانما قاعة كبرى - تحقق مزايا مشتركة للمدرسين وأحيانا للدارسين . وكانت الجامعة مؤسسة يمكن أن تنتقل من مكان الى آخر ،

نظرا لأن فصولها الدراسية كانت تنعقد فى حجرات مستأجرة ، وفى أكثر من مناسبة عندما تستاء الجامعة من الأحوال المحلية فانها تحرز امتيازات من سكان المدينة بمنتهى البساطة وذلك بتهديدهم بالانتقال الى مكان آخر ٠

وفى القرن الثالث عشر وجدت الجامعات المزدهرة فى باريس وبولونيا Bologna ومونتبلـــــين Montpelier ونابلـــــى Naples وأكســـفورد Oxford وكمـــبردج Cambridge وفى أماكن أخرى ٠ وسيطرت جماعات من المعلمين للفنون السبعة العقلية على جامعتى باريس وأكسفورد ٠ ومن ناحية أخرى أدار جامعة بولونا جماعة من الدارسين الذين عملوا على تخفيض الأسعار المحلية الباهظة للطعام وأماكن الاقامة بالتهديد بالانتقال الجماعى الى مدينة أخرى ، ووضعوا قواعد صارمة ، وألزموا المعلمين بالجامعة بالالتزام بها ٠ وكان على الأساتذة بداية ونهاية المحاضرات فى الوقت المحدد ، وأن يتموا شرح المنهج المقرر كما لم يكن فى استطاعتهم مغادرة المدينة دون اذن خاص ٠ ولاريب ان هذه الادارة التى مارسها الطلبة جنحت الى العنف ٠ ومع ذلك فمن المهم الاشـارة الى أن بولونا تخصصت فى الدراسات القانونية ، وأن طلبتها كانوا من الدارسين الأكبر سنا ــ من الرجال الذين أكملوا دراساتهم لمناهج الفنون السبعة العقلية ، وكانوا حريصين على الحصول على تعليم كاف للعمل بنجاح فى مجال القانون ٠

وعلى الجملة كان طلبة الجامعات فى العصور الوسطى أكثر فظاظة وأكثر حيوية عن طلبة الجامعات الأمريكية فى أيامنا هذه ، وأوسع خيــالا فى مراحفم ، وأكثر عدوانية تجاه المدن المحيطة بهم ٠ وهكذا تميز تاريخ الجامعات فى العصور الوسطى بأعمال الشغب والاخلال بالأمن التى قام بها الطلبة فى المدن بشكل متكرر الحدوث فى فترات قصيرة ٠ وتعرض الطلبة الجدد للسخرية بلا رحمة كمـا تعرض الاســاتذة الأير محبـوبين لاصوات الاستهجان والازدراء وعدم اعطائهم الفرصة لمواصلة الشرح عن طريق التشويش عليهم بأصوات عالية بل وصل الامر الى حد رشقهم بالحجـارة ٠ وكان معظم الطلبة من أصول متواضعة نسبيا ــ من المدن أو من الطبقات الأقل من طبقة النبلاء بيد أنهم كانوا راغبين فى قضاء أيامهم الدراسية فى فقر مدقع اذا ما اقتضت الضرورة لكى يحصلوا على المعرفة المطلوبة وأن

يعدوا أنفسهم للمكافآت الاقتصادية والاجتماعية القيمة التى كانت تنتظر العديد من الخريجين ٠

وعلى الرغم من الفرق الهائل بين الحياة الجامعية فى العصور الوسطى والحديثة فيجب أن يكون واضحا أن الجامعة الحديثة هى نتـاج مباشر للمؤسسة التعليمية التى ظهرت فى أوربا فى العصور الوسطى العالية ٠ واننا لمدينين لجامعة العصور الوسطى بمفهوم اجـازة التدريس الرسمية والتقليد الجامعى الذى لم يكن معروفا فى العصور القديمة الخاص بمجموعة من التعليمات ، وفكرة الدرجات العلمية الجامعية والفكرة العامة الخاصة بتدريس الفنون السبعة العقلية ، والتقليد الخاص بارتداء الطلبة والأساتذة الزى الاكليريكى (القلنسوة والأرواب) فى يوم التخرج ٠ بل ان الخطابات التى أرسلها الطلبة فى العصور الوسطى الى آبائهم أو الأوصياء عليهم بها مسحة حديثة لافتة للنظر :

« اننى أحيطكم علما أنى أدرس فى جامعة أكسفورد بكل كد واجتهاد ، بيد أن مسألة المال تقف حجر عثرة فى طريق مواصلتى الدراسة بشكل خطير. اذ قد مضى شهران على نفاد ماكنتم قد أرسلتموه الى ٠ ان أسعار المدينة مرتفعة ولا قدرة لى على شراء سلعها ، وعلى أن أستأجر غرفة وأن أشترى الضروريات وأن أتزود بأشياء أخرى كثيرة لا أستطيع أن اذكرها بالتفصيل حاليا ٠ ولذلك أتوسل الى حنانكم الابوى بكل احترام أن تساعدونى بعون الله، حتى أتمكن من اكمال مابدأته خيم بداية ، اذ أنه لابد وأنكم تعلمون أنه بدون سـيريز Ceres وباخـوس Bacchus يموت أبولـو Apollo تدريجيا » ٠

الطب والقـانون :

كانت جامعة ساليرنو Salerno المدرسة الطبية الرئيسية فى أوربا العصور الوسطى ٠ وهناك بلد بها امتزاج ثقافى قوى كان العلماء قادرين على الاغتراف من التراث الاسلامى والبيزنطى ٠ وبصفة عامة كان علم الطب فى العصور الوسطى مزيجا عجيبا من الملاحظة الخرافية البدائية ٠ فمثلا نجد النصيحة التى تقول ان على المرء أن يأكل ويشرب باعتدال فى حين نجد أيضا أن البصل يعالج الصلع ، وأن بول الكلب علاج رائع للثولول Warts

(ربما تكون السنطة) ، وان كل مايجب أن يفعله المرء من أجل منع المرأة من الحمل هو أن تعصب رأسها بقطعة من القماش الاحمر اللون ٠ ومع ذلك ففى وسط هذا الهراء فلقد تم احراز تقدم فى الطب ٠ فكتابات جالينوس galen ٠ الشهير الذى عاش فى القرن الثانى الميلادى تمت دراستها واستيعابها ، فهى عبارة عن مزيج من المعرفة الطبية الأصلية وبالمثل المؤلفات المهمة لعلماء العرب فى الطب ٠ ويضاف الى هذه المجموعة النفيسة من المعرفة ماقدمه العلماء الأوربيون فى ذلك الحين من اسهاماتهم الأصلية فى بعض الموضوعات مثل الخصائص العلاجية للنباتات وعلم التشريح الخاص بالجسم البشرى ٠ ومن المحتمل أن علماء ساليرنو فى القرن الثانى عشر قاموا باجراء تشريحات للحيوان والانسان ٠ وعلى الرغم من أن تجارب هؤلاء الأطباء كانت مختلفة وبدائية فانهم وضعوا الأسس العامة لنهضة العلوم الطبية فى غرب أوربا ٠

انصبت الثقـافة القـانونية فى العصـور الوسطى على مجموعتين واضحتين من المواد ـ القانون الكنسى والقانون المدنى ٠ وكانت الخـلافات على تقليد رجال الدين سلطتهم الكهنوتية والصراعات المتتالية بين الدولة والكنيسة حـافزا على دماسة القوانين الكنسية الى حـد كبير ٠ واغترف المتفقهون فى القوانين الكنسية فى بولونا Bologna ، وفى أماكن أخرى من السوابق القانونية المستمدة من الكتاب المقدس ، ومن كتابات آباء الكنيسة اللاتينية ، ومن المراسم البابوية ، والقرارات الخاصة بالمجامع ، وقاموا بتفسير وجهات النظر القانونية الصعبة . وجاهدوا من أجل التوفيق بين القوانين المتعارضة ، ورتبوا مجموعة ضخمة من القوانين الكنسية ٠ وكان كثير من المتفقهين فى القانون الكنسى مؤيدين متحمسين للقضية البابوية ، وكرسوا ثقافتهم لهدف تقديم أساس قانونى قوى للدعاوى البابوية فى القرنين الثانى عشر والثـالث عشر ٠ تلك الدعاوى التى أحرزت فوزا ساحقا ٠ والواقع أننا علمنا أن الكثير من البابوات كانوا متفقهين فى القانون ٠

ومن ناحية أخرى نزع المتفقهـون فى القـانون المدنى الى تمجـيد الامبراطور والملوك الذين كانوا يعملون تحت امرتهم ٠ اذ ان علم القانون المدنى قام فى اطار مجموعة القانون المدنى Corpus Juris Civilis للامبراطور جوستنيان التى تم دراستها بجد وكد لأول مرة فى الغرب فى

أواخر القرن الحادى عشر فى بولونا Bologna • ويروق لعلماء العصور الوسطى العالية اعتبار القانون الرومانى مجموعة قوانين منطقية وشاملة بشكل فريد• وعلى الرغم أنها احتوت على عنصر قوى من المبادىء الدستورية فانها ورثت من عنصر جوستنيان اتجاهه نحوالحكم المطلق الامبراطورى الذى وضع موضع التنفيذ بشكل مؤثر على يد المتخصصين فى القانون فى بلاط الحكومات الملكية الصاعدة • وأصبح القانون الرومانى القاعدة الأساسية لمعظم الأنظمة القانونية فى القارة الأوربية حيث ساعد على جعل الحكومة على الفور أكثر نظاما واستبدادا • ومن ثم لعب رجال القانون المدنى دورا مهما فى تطوير فرنسا من الحكومة الملكية الألمانية المحدودة لأسرة كابيه الباكرة الى الحكم المطلق الاستبدادى فى العصور الوسطى المتأخرة • وان التطور وقوة النظام النيابى فى انجلترا مدين بالكثير لحقيقة وجود حكومة ملكية قوية قائمة على مبادىء القانون الجرمانى والتى كانت قائمة بالفعل قبل أن تشعر أوربا بالتأثير الكامل للنهضة القانونية الرومانية •

الفلسفة والعلوم :

وكان من المتوقع لعصر شهد تلك التطورات السياسية والاقتصادية الشاملة وذلك الابداع القوى فى أساليب التعبير الفنية والدينية أن يحقق نجاحا جديرا بالذكر فى مجال الفكر النظمى • وكانت الفلسفة فى العصور الوسطى منوعة الى حد بعيد • وتميزت بالفضول اللانهائى والجدل العنيف• ومن بين الابحاث المختلفة والآراء المتعارضة للمفكرين فى العصور الوسطى هناك ثلاث قضايا رئيسية تستحق اهتماما خاصا •

١ ـ مدى العلاقة المتبادلة بين الدين والعقل ، ٢ ـ والمزايا النسبية للتراث الفكرى للأفلاطونية الأوغسطينية Platonic Augustinian والتراث الفكرى الأرسطورى Aristotelian ٣ ـ وحقيقة الأفلاطونية الأصلية « العالمية وربما كانت مسألة الايمان ازاء العقل أكثر الموضوعات الثلاث بعدا فى الأثر • فمنذ عهد تيرتولين Tertullion فى القرن الثالث الميلادى كان هناك مسيحيون أصروا على أن الله يسمو على قدرة العقل وأن أى محاولة للاقتراب منه باستخدام المنطق فهو ليس مجرد اجراء عديم الجدوى فحسب وانما ضرب من الكفر • وان الصوفى هو الذى عرف الله

وليس اللاهوتى . وفى مواجهة هذا الرأى قدم فلاسفة العصور الوسطى من أمثـــال أنســلم Anselm وتوماس الأكوينى الدليل والحجة على أن الايمان والعقل هما وسيلة مزدوجة الى الحقيقة وأنهما فى الغالب يوصلان الى نفس النتائج . وأنه لا يحدث فى أى حال من الأحوال أن تتناقض نتائجهما .

وان التعارض بين نظم فكر أفلاطون - أوغسطين وأرسطو لم يظهر بوضوح حتى القرن الثالث عشر عندما وصلت الى الغرب المجموعة الكاملة لكتابات أرسطو فى الترجمات اللاتينية من اللغتين اليونانية والعربية . وحتى ذلك الحين فان معظم جهود استخدام العقل فى فهم الدين كانت مبنية على التراث الأفلاطونى ، وتحولت وانتقلت الى الغرب فى العصور الوسطى على يد أوغسطين . وكثير من الفلاسفة من النوع الأكثر محافظة على القـديم كانوا نزاعين الى الشك بشدة تجاه الكتابات الأرسطوية التى كشف الغطاء عنها مؤخرا واعتبروها من وجهة النظر وثنية وخطيرة على الدين. والآخرون من أمثال القديس توماس الأكوينى St. Thomas Aquinas ، كانوا فى غاية الاخلاص لهدف التوفيق بين الايمان والعقل الى الحد الذى لم يستطيعوا فيه أن يتجاهلوا أعمال رجل اعتبروه أعظم فلاسفة العصور القديمة . وحاول القديس توماس أن ينصر أرسطو كما كان قد حاول القديس أوغسطين تنصير أفلاطون . وفى منتصف عقود القرن الثالث عشر عندما وصلت فلســفة العصور الوسطى العالية الى أوجها ازدهر التراث الأفلاطونى والتراث الارسورى جنبا الى جنب . وفى أعمال بعض المفكرين الانجليز للعصر نجد أنهم حققوا اندماجا مثيرا وفريدا .

حمل الخلاف بين الأفلاطونية - الأوغسطونية والأرسطوية فى العصور الوسرى بذور جدل آخر هادئا : مشكلة النموذج الأصلى أو الطراز البدئى أو العموميات . وقد أوضح أفلاطون أن التعبيرات من أمثـــال « كلب » و «انسان» و «قطة» لا تصف مخلوقات معينة فحسب وانما تمثل واقعا فى حد ذاتها . ذلك أن القطط ماهى الا انعكاسات غير تامة لقطة نموذجية ، قطة من الطراز البدائى أو العالى . ومن ناحية ثانية فاننا نطلق على بعض الأفعال «خير» لانها تشارك فى الخير العام الذى يوجد فى السماء . وباختصار فان هذه العموميات القطة والكلب والجمال والصلاح ... الخ توجد بصرف النظر عن الأعداد التى لا حصر لها من القطط والكلاب والأشـــياء الطيبة

والجميلة فى هذا العالم • وعلى المرء الذى ينشد المعرفة أن يفكر مليا فى تلك العموميات فحسب ووافق القديس أوغسطين على نظرية أفلاطون عن العموميات مع تعديل واحد : ان الطراز البدئى وجد فى علم الله وليس فى عقولنا بعملية أطلق عليها أوغسطين « الاستنارة الالهية » • ووافق كل من أفلاطون وأوغسطين على أن الكون وجد بصرف النظر عن التخصيص • والواقع أن الكون أكبر حقيقة من التخصيص • وفى العصور الوسطى العالمية فان هؤلاء الذين اتبعوا الطريقة الأفلاطونية الأوغسطية لمعرفة العموميات عرفوا باسم الواقعيين اذ أنهم اعتقدوا أن العموميات أمر حقيهقى •

وجلب التراث الاغسروى معه وجهة نظر أخرى عن العموميات ؛ انها موجودة بالتأكيد بيد أنها فى مجال التخصيص • ويستطيع البشر أن يحصلوا على معرفة العموميات عن طريق دراسة الأشياء الخاصة فى ظواهر العالم فحسب • فالعموميات كانت حقيقة واقعية بيد أنها فى ادراك أقل حقيقة عما اعتقد كل من أفلاطون وأوغسطين • وبناء على ذلك فان الفلاسفة فى العصور الوسطى الذين مالوا تجـــاه الموقف الأرسطورى عـــرفوا باسم « الواقعيون المعتدلون » •

غير أن فلاسفة العصور الوسطى لم يقيدوا أنفسهم بالخيار بين هاتين النظريتين • فالعديد منهم استنبط حلولا بارعة من جهودهم • وفى أوائل القرن الحـــادى عشر أعلن الفيلســـوف روزكيلينوس Roscellinus أن العموميات ليست حقيقة بالمرة • وانها مجرد أسماء أطلقها البشر على الطوائف الاعتباطية للأشياء • ان الحقيقة لا توجد فى التعميمات وانما فى التعددية وفى الأشياء المتنوعة التى نراها ونلمسها ونشم رائحتها فى العالم المحيط بنا • على أن الذين حذوا حذو روزكيلينوس فى هذا الرأى عرفوا باسم « الاسمائية » nominalist (هم أتباع مذهب فلسفى يقول ان المفاهيم المجردة أو الكليات ليس لها وجود حقيقى وأنها مجرد أسماء ليس غير) فبالنسبة اليهم ليست الكليات سوى أسماء Nomena وأن المذهب الفلسفى القائل بالمفاهيم المجردة أو الكليات ليست لها وجود حقيقى وأنها مجرد أســـماء ليس غير • وتوارى مذهب الاسمائية nominalism فى البيئة الثقافية الفكرية خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر • بيد أنه ازدهر من جديد فى القرن الرابع عشر • واعتبر كثير من رجال الكنيسة أن هذا

المذهب الفلسفى خطير لانه يؤكد على الفردية أكثر من الكليات . ويبدو أنه أشار الى أن الكنيسة الكاثوليكية ليست هيئة عالمية فريدة تضم المؤمنين . من رجال الكنيسة الأخيار وانما هى مجرد حشد هائل من الأفراد المؤمنين.

وبعد أن درسنا القضايا الثلاث المهمة للفلسفة فى العصور الوسطى ـ العقل مقابل الالهام ، والأفلاطونية الأوغسطية تجـاه أرسطو ، ومسألة الكليات ـ فسوف نرى كيف تطورت هذه القضايا فى أفكار الفلاسفة فيما بين القرن الحادى عشر والرابع عشر . وعرف فلاسفة تلك الفترة « باتباع المدارس Scholastics لأنهم كانوا مرتبطين بالمدارس الـديرية ، والمدارس الكاتدرائية أو الجامعات . وظهروا لأول مرة فى أواخر القرن الحادى عشر كنتاج للصحوة التى بدأت أوربا تتأثر بها . وكان القديس انسلم Anselm الشخصية الكبرى فى الفلسفة المدرسية scholastic philosophy وكان ايطاليا مارس التدريس لسنوات عديدة فى مدرسة بيك Bec الديرية النشطة فى اقليم نورماندى . وبمرور الوقت تم تعيينه رئيسا لدير بيك . وفى سنة ١٩٥٠ م رئيسا لأساقفة كانتربرى ، وكرئيس للأسافقة ناضل انسلم بقوة ضد ملوك انجلترا من النورمان سبب مسألة تدخل العلمانيين فى تعيين رجال الدين . وأخيرا بعد أن وافق على تسوية بحل وسط للخلاف مات سنة ١١٠٩ م . وابان مجرى حيـاته الزاخر بالأحداث وجد أنسلم وقتـا للتفكير والكتابة بعمق فى موضوعات مثل التكفير عن خطايا البشر عن طريق صلب المسيح . وامكانية تقديم الدليل العقلى عن وجود الله والعلاقة بين الايمان والعقل وشارك أنسلم بقوة فى التعاليم الافلاطونية ـ الاوغسطونية وكان مهما بشكل فريد تطوير الفكر فى العصور الوسطى بسبب ثقته فى أن العقل ليس متعامضا مع الايمان . وقام أنسلم بالتعليم بأن الايمان يجب أن يعلو على العقل . وأن العقل يمكن استخدامه لتوضيح الايمان وتأكيده على العقل ثم فى اطار الايمان المسيحى الراسخ وأعد المسرح للتطورات الفلسفية المهمة للأجيال التالية . وجعله فكره البارع فى التحليل بذكاء أكثر الفلاسفة الغربيين شفوة منذ وجود أوغسطين . وبفضل أنسلم استرد العالم المسيحى الغربى أخيرا المستوى الفكرى لفلسفة القرن الرابع الميلادى .

ان فلاسفة القرن الثانى عشر تأثروا على مايبدو بالامكانيات المحدودة للعقل والمنطق وتقدموا بجسارة عبر الحدود الفكرية الجديدة فى الوقت الذى

كان فيه معاصريهم يزيدون من رقعة الحـــدود الجغرافية لأوربا · وكان بطرس ابيلارد Peter Abelard (١٠٧٩ ـ ١١٤٢ م) اكثر المسيحيين العقلانيين فى القرن الثانى عشر شهرة وجرأة · وكان مدرسا محبوبا رائعا معتدا بنفسه وانتهت حياته القصيرة فى مأساة وهزيمة ·

وربما زادت من شهرة ابيلارد قصة حبه للفتاة هيلويز Heloise وانتهت تلك القصة بتحويل ابيلارد الى خصى على يد جماعة من قراع الطرق استأجرهم عم هيوليز الذى كان فى غاية الغضب · وتم التفريق بين المحبين بصفة دائمة والتحق كل منهما بالسلك الديرى · وفى السنوات التالية كتب ابيلارد بكل ندم عن غرامه العنيف فى قصة حياته التى كتبها بقلمه وسماها تاريخ كـــوارثى History of my Calamities · ثم تبع ذلك رسائل متبادلة مؤثرة بين المحبين حيث اعترفت هيلويز التى كانت فى ذلك الحين رئيسة لدير راهبات بحبها الراسخ فى قلبها تجاه أبيلارد الا أن أبيلارد كتب اليها ككاهن الاعتراف تقريبا ولم يقدم لها العزاء الروحى · ومازالت حياة ابيلارد التى كتبها بقلمه وكذلك رسائله المتبادلة مع هيليويز باقية حتى يومنا هذا تقدم كلها الى الدارسين الحاليين صورة لقصة غرام عنيف فريدة فى الالفة والدفء والرقة وتقدم أيضا عنصرا مثيرا للشفقة فى مجتمع بعيد عن مجتمعنا الحالى ·

كان ابيلارد اشهر علماء المنطق فى القرن الثانى عشر ونظرا لأنه كان يكتب لعدة عقود سابقة على التوفيق الكبير للفكر الأرسطوى فى الترجمة اللاتينية فانه سبق موقف أرسطو فى مسألة الكليات وذلك بتأييده نظرية معتدلة تقول أن للمادة وجودا حقيقيا مستقلا عن ادراكنا العقلى لهـــا · واعتقد ابيلارد أن الكليات universals ليس لها وجود منفصل وانما نشأت عن الاشياء المفردة بعملية تجريدية · وفى مؤلف شهير يحمل عنوان نعـــم ولا Sic et Non جمع ابيلارد الآراء من الكتاب المقدس ، ومن الاباء اللاتين، ومن المجامع الكنسية ، ومن القرارات البابوية. فيما يتعلق بمجموعة كبيرة عن المسائل اللاهوتية ، وأقام الدليل على أن تلك السلطات المقدسة غالبا ما اختلفت فى الرأى بشأن الامور الدينية المهمة· ولقد قام آخرون قبل ابيلارد بجمع الآراء الرسمية الخاصة بالمسائل المتعددة القانونية واللاهوتية بيد أن ماجمعوه لم يكن على الاطلاق دقيقا. أو منظما · وانتهج ابيلارد فى كتابه

نعم ولا طريقة التحقيق التى تطورت ونمت على يد الدارسين للقانون الكنسى والفلاسفة على امتداد الأجيال العديدة التالية ٠ بيد أن خلفاءه حاولوا التوفيق بين التناقضات والوصول الى قرارات نهائية فى حين أن ابيلارد ترك كثيما من المسائل دون حل ٠ ومن ثم جلب لنفسه عداء المعاصرين له من المحافظين على القديم والمقاومين للتغير ٠ وكان ابيلارد مسيحيا مخلصا ٠ وان هناك شيئا من التفاخر الفكرى غير أن كثيرين نظروا اليه على أنه كان نزاعا الى الشك فى مبادىء الدين بشكل خطير ٠ ومن ثم ترك ابيلارد نفسه عرضه للهجمات الشديدة على يد رجال من أمثال القديس برنارد **St. Bernard** الذى كان معارضا بشدة لدمجه الايمـان بالعقل ٠ وتعرض المدرس اللامع للمطاردة من مكان الى آخر ٠ وأخيرا تمت ادانته بتهمة اعتناق مبادىء دينية تتعارض مع مبادىء الكنيسة **heresy** سنة ١١٤١ م ٠

غير أن المذهب العقلى فى القرن الثانى عشر كان أبعد من أن يكون مسالة فرد واحد ، كما أن اضطهاد ابيلارد فشل فى أن يوقف نمو هذا المذهب العقلى ٠ ففى أواخر القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر قويت الحركة بشدة عند وصول كميات هائلة من الكتابات اليونانية والعربية الى الترجمة اللاتينية ٠ وأصبحت أجزاء مهمة من التراث العلمى والفلسفى للاغريق القدماء فى متناول العلماء الأوربيين فى ذلك الحين ٠ وفوق كل ذلك فان المجموعة الأرسطوية الكاملة وصلت فى ذلك الحين الى الغرب عن طريق جهود المترجمين فى كل من أسبانيا وصقلية ٠

وعلى أية حال كانت تلك الترجمات موفقة اذ جاءت استجابة لحالة الشوق الشديد من جانب المفكرين الغربيين للحصول على معرفة أكمل للتراث الكلاسيكى فى الفلسفة والعلوم ٠ ومع ذلك فان مقدمات بعض الأعمال الأرسطوية الجديدة خلقت أزمة فكرية فى العالم المسيحى لأنها احتوت على بعض المفاهيم الضمنية التى بدت معادية للايمان ٠ على أن التعارض الجلى بين تلك الكتابات الأرسطوية والمسيحية تزايد نتيجة لأنها وصلت الى الغرب مصحوبة بتفسيرات الفيلسوف المسلم الاسبانى ابن رشـــد **Averroes** الذى كانت معتقداته الدينية بعيدة جدا عن المعتقدات المسيحية ٠ وأكد هذا الفيلسوف الشهير النزاع الى الشك على مذهب أرسطو القائل بأن العالم موجود منذ الأزل ٠ ولذلك فانه غير مخلوق ٠ وقام أيضا بتفسير فلسفة

أرسطو بطريقة أنكر فيها الخلود الشخصى · واستطاع ابن رشد العمل على التوفيق بين تلك الوجهات مع الاسلام الحنيف بطريقة فكرية لافتة للنظر عرفت باسم « مذهب الحقيقة الثنائية » وقدم ابن رشد الدليل على أن بعض الأفكار يمكن أن تكون صحيحة من وجهة نظر الدين المستتر فى القلب · وأن لوصول مذهب الحق الثنائى للغرب نتيجتين مهمتين ·

(١) ظهور مجموعة من المؤمنين « بأفكار ابن رشد من اللاتينن » الذين أصروا على الصحة الفلسفية لآراء أرسطو الخارجة على المبادىء الشرعية للمسيحية ومع ذلك دافعوا عن الايمان المسيحى بكل صدق حتى لو تعارض مع العقل ·

(٢) والثانية هى ادانة بعض كتابات أرسطو على يد الكنيسة ·

وفى مواجهة هذه الأفكار الفلسفية ظهرت فى منتصف القرن الثالث عشر جماعة جسورة من الرجال الذين نذروا أنفسهم للتوفيق بين العقل والايمان والعمل على اندماج فلسفة أرسطو بالمسيحية · اذ حاولوا تفنيد آراء المؤيدين لفلسفة ابن رشد من اللاتين وذلك باقامة الدليل على أن العقل والوحى يشيران الى حقيقة واحدة لا الى حقيقتين · وكان كل من الفيلسوف الألمانى البرت الكبير Albertus Magnus وتلميذه الايطالى الشهير توماس الأكوانى Thomas Aquinas من أشهر الشخصيات فى هذا المجال · وكلاهما كان من الرهبان الدومينيكان ودرسا فى جامعة باريس وترامنا مع بونافنتور Bonaventure الفيلسوف الفرنسيسكانى الكبير الذى كان من أشهر مفسرى التراث الافلاطونى الاغسطوى · وأن التقاء هؤلاء الرجال جعل باريس فى منتصف القرن الثالث عشر أحد المراكز الفكرية الشهيرة فى التاريخ ·

وأوجد القديس توما الأكوانى المزج الكامل للعقل والوحى فى أوربا العصور الوسطى وفى بحثه المفصل والكامل فى علم اللاهوت قام القديس توما بدراسة تمهيدية عن كل المسائل الكبرى فى الفلسفة واللاهوت وعلم السياسة والأخلاق مستخدما طريقة أرسطو المنطقية وكانت مقولاته العشر فى الفكر فى توافق كامل مع الايمان المسيحى وان كان قد وصل الى

استنتاجات • وحاول القديس توما تقديم الحجة والمنطق كمؤمن بالواقعية المعتدلة فيما يتعلق بمسألة الكليات Universals مستخدما التجـــربة المنطقية أكثر من الاستنارة الالهية • وكما فعل أبيلارد قام توما بجمع كل حجة ممكنة الحجة المؤيدة والحجة المعارضة فى كل موضوع قام بدراسته غير أنه على عكس ابيلارد استخلص النتائج • وقليل من الفلاسفة من قبل أو من بعد كانوا كرماء فى تقديم ودراسة الآراء المتعارضة مع آرائهم • ولم يكن هناك أحد على الاطلاق يعمل بنظام واتقان • ووجد القديس توما نظاما فكريا موحدا وهائلا يمتد من الله الى العالم الطبيعى مدعما بالمنطق فى كل خطوة • وكما أن الكاتدرائية القوطية كانت تجسيدا فنيا لعالم العصور الوسطى العالمية فان فلسفة الاكوانى كانت قمة التعبير الفكمى نظاما ولذلك السبب أطلق على البحث الشامل فى علم اللاهوت Summa Thiologica كاتدرائية الفكر •

وحتى يومنا هذا يوجد هؤلاء الذين يؤيدون فلسفة الأكوانى بصفة أساسية • غير أنه من ناحية أخرى فان كثيرا من معاصريه فى القرن الثالث عشر عارضوا فلسفته اما كلية أو الى حد ما • اذ كان المفكرون الفرنسيسكان من أمثال بونافينتور Bonaventure نزاعين الى الشك والارتياب بصفة أســـاسية فيما يتعلق بالأفكار الدالة على البراعة tour de force لهذا الدومنيكان الموهوب • ففى انجلترا ظهرت أفكار معارضة لأفكار توما بشدة رويدا رويدا فى القرن الثالث عشر وهى وجهة نظر ضمت التراث الرياضى لأفلاطون والتراث التجريبى لأرسطو ووجهتهما تجاه البحث فى العالم المادى • وقد ولد العلم الأوربى فى انجلترا فى القرن الثالث عشر • اذ كان العـــالم الانجليزى الشهـــير روبرت جـــروستيست Robert grossteste (ت ١٢٥٣ م) على علاقات وثيقة بالفلسفة الأفلاطونية المحدثة ، وعلم الطبيعة الارسطوى ، والتراث العلمى الاسلامى الخصب • وشارك بدور ريادى فى تطور الطريقة العلمية وذلك بتحديد معالم منهج الملاحظة والفرضية والتجربة وباللجوء الى استعمال التحليل الرياضى كلما كان ذلك ممكنا • وكمثل الرواد الآخرين سلك روبرت جروستيست كثيرا من السبل الخاطئة — اذ أن تفسيراته عن الألوان والحرارة واقواس قزح لقيت معارضة فى القرون التالية بيد ان طرقه التجريبية التى دافع عنها تطورت على أيدى خلفائه الى اداة فكرية قوية الى حد بعيد • وقام احد تلاميذ

جروستيست وهو روجر بيكون الفرنسيسكانى Franciscan Roger Bacon (حوالى ١٢١٤ ـ ١٢٩٤ م) باجراء مجموعة مهمة جدا من التجارب العلمية المعقولة وغير معقولة كما كان روجر بيكون مؤيدا للتجارب العلمية أكثر من كونه ممارسا دائما لها بيد أنه فى أحسن أحواله كان معلما ملهما تقريبا ٠

فالعلم التجريبى يتحكم فى استنتاجات كل العلوم الأخرء وانه يكشف عن الحقائق المستنبطة من المبادىء العامة (التى لم يتم الكشف عنها بطريقة كل من أبيلارد والقديس توما)٠ وأخيرا فانه يضعنا على بداية الطريق الى الاختراعات المدهشة التى سوف تغير وجه العالم ٠

ومن ثم فان الشاط الفكرى الجاد فى القرن الثالث عشر تمخض عن كل من المزيج الأسمى للمذهب العقلى المسيحى ونقطة البداية لطريقة جديدة للبحث العلمى وفى ميدان الفكر كما فى كثير من المجالات كان القرن الثالث عشر متسما بالنشار التأليفى والابداعى٠ وعند اقترابنهاية القرن الثالثعشر اضمحل شأن المزيج الفكرى الذى أوجده القديس توما نتيجة لشكوك خلفائه الذين بداوا يشكون فى أن محاولته للتوفيق بين العقل والوحى انما كان يحاول تحقيق المستحيل ٠ ومال الفلاسفة اللاحقون الى فصل المجـالين اكثر فاكثر . ومال كثيرا منهم الى العودة الى نظرية ابن رشد الخاصـة « بالحقيقة الثنـائية » ؛ على أن نظم التعميم Universal systems كتلك التى تخص القديس توما لم يقدر لها البقاء الا نادرا بيد أنه لسنوات قلائل صور مذهب توما الفلسفى Thomism للكثيرين الاندماج الكامل للفكر والعقيدة للعقل والروح ٠ كما أخذ مذهب توما الفلسفى مكانه جنبا الى جنب مع الكاتدمائية القوطية ، والكوميديا الالهية لدانتى ، وكذلك ومع القـديس فرنسيس كتعبير ناضج للانبعاث الملىء بالقوة والنشاط فى أوربا العصور الوسطى العالية ٠

وصفت بعض الكتب الدراسية عالم العصور الوسطى العـالية بأنه سادها الخمول والكآبة والتحجر الفكرى ٠ وفى الطرف الآخر فلقد تم وصف عالم العصور الوسطى العالية على انه كان مجتمعا مثاليا خاليا من المخاوف والتوترات حيث استطاع الناس من كل المجتمعات العيش فى سعادة وبطبيعة

خلاقة • والواقع أنه كان عصر الحيوية ، والتباين لافت للنظر ، والمخاوف الشديدة، والآمال الكبار، والفقر المدقع ، فى أغلب الاحوال، وان كان قد اتخذ سبيله الى التلاشى تدريجيا • وقبل كل شىء فلقـــد كان عصرا أدرك فيه الأوربيون المجموعة المتنوعة والوافرة من الامكانيات التى كانت فى متناولهم وقام شاعر فى القرن الثالث عشر ابان احتفال الربيع باثارة الانتباه تجــاه روح هذه الصحوة :

تألقت الأرض فتنة وسحرا من جديد
بالأزهار المزدهـــــرة
واخضرت الحقول ثانية
وصارت الظلال وافرة
وأورقت الغابات من جديد
والعالم كله فى فرح شديد
وهذه الأرض القاحلة منذ عهد بعيد
تنبض بالحيوية من جديد
وتدفقت المشـــاعر
بمولد الحب من جديد
وصحا الجمال من رقاده الشديد

Suggested Readings :

The asterisk indicates a paperback edition :

General Works :

R.W. Southern, The making of the MiddleAges (* Yale. A birillant sympathetic interpretation of the eleventh and twelfeth centuries. Frederick Heer, The Medieval World (* Mentor). Heer contrasts twelfeth century expansion with thirteenth century Stabilization.

Economic History and the Frontiers :

Henri Pirenne, Economic and Social History of Medieval Europe (* Harvest). A compact, rickly interperative survey by a great Scholar. Henri Pierenne, Medival Cities (* Anchor). Brief, lucid and highly original.

Sidney Painter Merival Society (* Cornell) A short, introductory Essay.

Steven Runciman, A History of the Crusades; (3 vols, Cambridge University Press; vol. I : (* Harper). Comprehension and Authoritative.

Empire and Papacy :

Geoffrey Barraclough, Medieval Germany, 911-1250 (2 vols., Blackwell). Volume I is a valuable introductory essay; Volume II consists of specialized studies by German scholars in English Translation.

Gerd Tellenbach, Church, State and Christian Society (Blackwell). The finest analysis of the Investiture Contraversy in English. Walter Ullmann, The Growth of Papal Government in the Middle Ages (Methuen). An intellectual history of the medieval papal ideology.

Ernst Kantorowicz, Frederick II, An excellent biography. Kantorowicz's conclusions should be compared with those of Barraclough in his origins of Modern Germany (* Capricorn). Innocent III, Vicar of Christ Lord of the World?, J.M. Powell (Ed.). (* Heath), Essays by historians representing diverse viewpoints.

For high medieval England, the appropriate Volumes of the Monumental Oxford History are authoritative but rather heavy: A.L. Poole, From Domesday Book to Magana Carta. E.M. Powicke the thirteenth century. For a lighter treatment of the period see Especially : Christopher Brooke, from Alfred to Henry III (Thoman Nelson).

Helem M. Cam, England Before Elizabeth (*) Very brief but Excellent.

Robert Fautirer, The Capetian Kings of France (* St. Martin's) A short, masterful treatment, highly recommended. Amy Kelly, Eleanor of Aquitaine (* Vintage). Sound and entertaining.

Christianity in the high Middle Ages :

Norman E. Contor, Medieval History (Macmillan). A recent, highly interpretive textbook, particularly strong on matters ecclesiastical.

Summerfield Baldwin, The Organization of Medieval Christianity (Holt). A short introductory essay. Steven Runciman, The Medieval Manichee (* Compass Books). A Penetrating investigation of medieval heresy.

Paul Sabatier, St. Francis of Assisi (Scribners). A masterly Older Study, deeply, sympathetic to St. Francis.

Thought, Letters, and the Arts :

F.C. Copleston, Medieval Philosophy (* Harper). A popular introduction by a leading scholar. oGrdon Leff, Medieval thought (* Penguin). A survey which emphasizes the development of metaphysics.

C.H. Haskins, The rise of the universities (* Carnell). Short and Highly Competent; a pleasure to read. C.H. Haskins, The Renaissance of the twelfeth century (* Meridian.An epoch-making Book, Particularly strong in the area of latin literature. Erwin Panofsky, Gothic Architure and scholasticism (* Meridian), A Challenging study which endeavors to demonstrate lines of connections between these two great medieval enterprises.

C.H. Mcllwain; The growth of political though in the west (C.H. Mcllwain, The growth of political thought in the west (Macmillan). The preferred, one- volume account of medieval political theory.

Sources :

The portable medieval reader, Tr. J.B. Ross and M. Mclaughlin (* Viking). Like cantor's medieval world, a useful, well chosen selection of medieva sources in translation.

Documents of the Christian Church, Tr. Henry Bettenson (Oxford). A useful collection running from antiquity to the present. The little flowers of St. Francis Tr. L. Sherleyprice (* Penguin). A fascinating collection of sources relating to the life of St. Francis. Otto of Freising, the deeds of Frederick Barbassa, Tr. C.C. Mierow and R. Emery (Columbia). A good example of medieval historical writing.

Memoirs of the Crusades : Villehardouin and dejoinville, Tr. Sir Frank Marzials (Everyman). Excellent contemporary accounts of the fourth crusade and the crusading adventures of St. Louis. The portable Dante, Tr. Paole Milano (* Viking). Good translations of the Divine Comedy and other works.

Introduction to St. Thomas Aquinas, Anton C. Pegis (Modern Library). Intelligently chosen selection together with a stimulating introduction.

محتويات الكتاب

الموضوع — صفحة

الموضوع صفحة